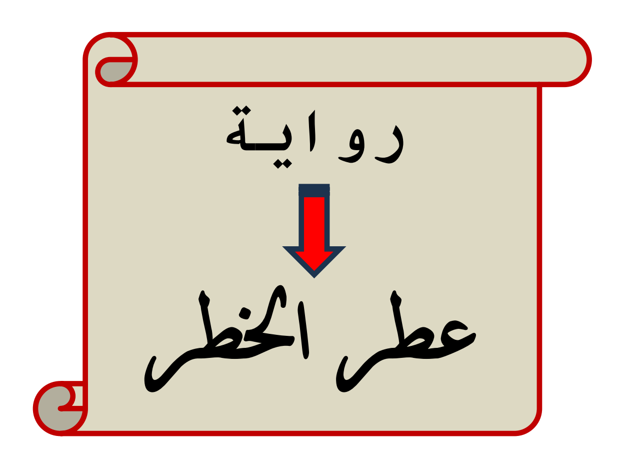




للتواصل مع المؤلف اضغط:

أو عبر البريد الالكتروني:

تنويه:

أنا طالب دراسات عُليا قسم اللغة العربية قد تلف عندي جهاز اللابتوب واحتجت الى شراء آخر لغرض مساعدتي في تحضير اطروحتي. بينما كُنت ابحث في مجموعات الفيس بوك الخاصة بشراء وبيع الحاسوب؛ وجدت اعلان عن بيع لابتوب معروض بأسلوب غير نمطي استوقفني عنده. عجبت من طرح سعر الجهاز أدنى من الثمن الذي تستحقه المواصفات المرموقة للجهاز، وكدت اعتقد ان هذه سذاجة في مفاوضة السعر تؤدي للخسارة او الشخص مستعجل في بيعه لأمر طارئ يحتاج فيه الى المال؛ لولا وجود بند في الإعلان يشترط ان المشتري من ذوي الثقافة الحقيقية! شرط غير مفهوم ولا علاقة له بأمور مساومات السوق على الاطلاق. راسلته على الخاص مدفوعاً بفضول إزالة غاشية الابهام الذي يلّف هذا الموضوع ولا أريد ان أفوت إغواء السعر الرخيص. استفتحتُ كلامي فقلت له: «مرحباً، ما علاقة الثقافة بدكاكين الأسواق؟ هل تريد ان تكون فارس الاعلاء من شأنها والتسويق لها بين فئات المجتمع؟ هذه طريقة غير مُجدية في ترويجها وحضّ الناس عليها، أو أعجابك باهل الثقافة جعلتك تقدم تسهيلات وترخيصات استثنائية لا تمنحها لعامة الناس، او قد يكون لديك مكتبة تريد عرضها للبيع وتغري بشرائها بهدية سعر لابتوب زهيدة!، لن اخوض في احتمالات قد تجحف نواياك الاصيلة لهذا الإعلان، ربما لديك غاية منه دقّ عقلي عن استيعابه...! انتظر ردك». انصرمت ساعات انتظر رسالته. وتأففت

عندما علمت ان رمز علامة الصح تحول ازرق في الماسنجر كإشارة على قراءته رسالتي ولم يرد. وقلت في نفسي ان رسالتي كانت حدّية تشكك في نواياه، وتحمل لهجة متطفلة وشبه هاجمة لا تتناسب مع لباقة الشراء فأشاح بنظره عني. هكذا اسلوبي يتخذ وضعية ردّة الفعل المتحفزة للسؤال والتدقيق والتمحيص ولا أدري متى أتعلم اللطف الاجتماعي. تداركت خشونتي عن رسالتي السابقة في إرسال باقة كلمات اعتذار ولا ردّ. توثّب الاستفزاز من هذا الصمت المريب المتفرج من علياءه...!

انقضت أربعة أيام وقنطتُ من ردّه، وحسبت ان فرصة شراء نادرة ضاعت مني لن تعوض. في اليوم الخامس جاءتني منه الرسالة التالية: «مراحب اخي، اعتقد ان السخط استوثق منك لإهمالي الرد، والحقيقة أني لم أرد على جميع الرسائسل المتواترة بالعشرات طمعاً في نيل حاسوبي. كل فرد أدعى انه مثقف وبرهن البعض على ذلك بالتشدق بأسلوب فصحى ركيك يصل الى حد الاضحاك، وهناك من حاول رفع سقف السعر قليلاً كي أتوانى وأغض الطرف عن شرطي الثقافي، وحدها رسالتك التي حازت على رعاية نظري؛ اذ لم تثبت لي ثقافتكِ بقدر ما ابديت التساؤل الذكي عن هدفي الغريب، وتلك نقطة استبشرت بها خيراً واستنبطت منها مخايل النجابة الثقافية وأنّ فيك مطلوبي. لا تعتذر ابداً عن التساؤل وتجد فيه خدش اجتماعي لا يليق، وليطمئن قلبي من تأصّل امرك في القراءة؛ فانّي اريد عمل سلسلة اختبارات اقلّب فيه مقدار معرفتك، فاسمح لي بقضاء وقت قصير ادردش فيه معك». وافقت على طلبه ولذّ

لي خوض هذه المغامرة وما فيها من لغز يوافق حاسة مجازفتي لدكّ المجهول، اكتشاف هدفه رَبَى على رغبتي في حيازة لابتوبه. تاريخي في القراءة عريق وعلمت أني فائز لا محالة في اختباراته، وهو ما أبلغني به بعد أسبوع من مطارحات مكثفة في ليالي الانس الثقافية. اتفقنا على تفاصيل موعد وتسليم اللابتوب واجور التوصيل، وفي ختام الكلام معه نبأني قائلاً: «اظنّك تنتظر جائزتك في معرفة مقصدي من اشتراطي بعد هذه الاختبارات المضنية، أليس كذلك؟ استودعت في اللابتوب ملف "Microsoft Word" من نصيبك فابحث عنه، ففيه الخيط الذي ينتهي بك الى مرامي، وقبل ان اذهب هل تعلم من أحب الناس اليّ؟ إنها «شهرزاد». حاولت الاستفسار الأكثر عن تفاصيل الملف وكيفية ايجاده فأمسكت؛ لعلمي انه اقفل الحديث عند هذا الحدّ ولن يسمح بتوضيح أكثر.

عند باب البيت انتظرت بحرارة شمس تموز سائق التكسي ان يأتيني بالحاسوب، او بالأحرى اترقب هذا الملف الناريّ والكشف عن هذا السر الملثّم. لمّا وصل وفحصت البضاعة، ألفيتها مطابقة للمواصفات المعلنة ونظيفة في لمعان لا شية فيها. سارعت الى داخل البيت وأول ما فعلته هو البحث عن الكنز المخبئ بدلا مما يفعله الناس عادة عند شراء جهاز تقني يبحثون في تدقيق عن خواصه وميزاته وتجربتها. أعْملت عدسة استقصائي في وحدات التخزين الرئيسية في اللابتوب لإيجاد الملف فلم اجده. الأقراص الصلبة فارغة وليس فيها إلا ملفات نظام الويندوز والتعريفات والبرامج البدائية اللازمة لأي حاسوب للعمل، فمن الواضح

ان الجهاز تعرض لفورمات مسحت جميع اشياءه. كنت اظن انه سيسهل المهمة لي ويضع الملف على سطح المكتب، او في قرص فارغ للتخزين فأجده سريعا بلا مشقة. غضبت من تعقيدات هذا الشخص وزرعه الوعورة عند أي منعطف اظنه نهاية إماطة الستار عن سرّه. هذا شخص لا يفهم لغة التيسير ابداً، وكل شيء عنده كلمات متقاطعة ينبغي حلّها حتى تعانق ما تطمح اليه، كأنه يقول لي ان ما عندي جوهرة نفيسة وكلّما علا ثمن الشيء عزّ نواله وعنّت مسافاته. نالني الإحباط عندما فتحت حسابه في الفيسبوك لغرض مساعدتي فوجدته معطلاً.

كرست نهار يوم لإجراء تفتيش اخر موسّع اوافي فيه ما عزب عني، فرجعت احمل بين كفيّ عطش الجِمال. تأمّلت في شاشة الحاسوب وقلت في نفسي ماذا لو كان يضحك مني ويجعلني جُحا ابله ادور حول نفسي بلا طائل؟ كدت اغلق الجهاز محملاً بالعبث فيما أقوم به وسعياً وراء سراب رجل مجهول؛ عندما لمحت ان سطح المكتب يحوي ايقونة لبرنامج اسمه Recuva!، لماذا يتواجد برنامج غير اساسي الى جانب ايقونة This PC الرئيسية ويشكّلان معاً الايقونتين الوحيدتين في واجهة سطح المكتب مع اختفاء الايقونات التقليدية للنظام مثل Recycle bin و لوغو رموز البرامج المهمة؟ هذا الاخفاء المتعمد هدفه ابراز ذلك البرنامج الغريب لعيني؛ إذ لو كانت بقية الايقونات موجودة لما اعتبرت في الامر شيء ذي دلالة مريبة، مثل هذه النقطة الصغيرة التي استرعت توقفي قد لا تثير تنويه من ليس له باع خبرة في أمور الحاسوب.

في قائمة البدأ -start- عثرت على متصفح نت للبحث عن ماهية هذا البرنامج وعمله، فتجلّت النتيجة عن برنامج يستخدم لاستعادة الملفات المحذوفة في الكومبيوتر. أيعقل ان الملف المطلوب محذوف وقد ثبّت هذا البرنامج كمحطة للإرشاد اليه؟، أعطيت أوامر للبحث عن الملفات المفقودة فوصلت ملفات Microsoft Word التي عثر عليها إلى ما يقارب العشرين، أجريت استعراضاً اولياً لها فوجدت أن أحد الملفات المسترجعة لا يفتح إلا بكلمة سرّ!، غلب ظني ان السر يقبع هنا وخصوصا ان الملفات الأخرى ليس فيها أهمية ذي بال، او شيء يتناسب مع خطر ما اجوس في البحث عنه. لكن لماذا يضع كلمة سر او عقبة أخرى؟ هل ما ينتظرني حقاً مسألة في غاية الأهمية ام هو دس التعويص لعمْلقة سر قد يكون تافه في نهاية المطاف؟، على ما يبدوا أن هذا الرجل يصوغ حياته وفق أساليب روائية لإيقاد التشويق، يريد مني أنْ اكدّ الجهد حتى أجد شيفرة دافنشي الخاصة به، ولكن أنّى لي معرفة كلمة السر ولا إشارة معيّنة اتبّعها الى مقرّه؟ طفح الكيل واقسمت في لحظة غضب على تكسير اللابتوب إذا كان المحتوى المنتظر شيئاً عادياً او سخيفاً. أجريت استقصاء في ذهني للألفاظ المحتملة والمرشّحة لأن تكون مفتاح الدخول، فلا يُعقل ان يتركني في عمى مع مئات الالاف من الكلمات من دون يستخدم خفة يد الساحر ويرمي بقربي كلمة السر من حيث لا أدري!، وبعد فلاحي باختباراته المعرفية توثق من حدّة ذكائي وتأكّد من معونة دهائي في تحرير المُستند من بابه الموصد. أخفقت عشرات الالفاظ

المرتبطة به في فتح المستند مثل اسم اللابتوب او اسم حسابه في الفيس بوك او اسم الملف الحالي.

ولإيام، انفجر رأسي من كثرة تداول وتقليب الكلمات في دماغي وتجربيها وهز رأسها من اليأس، وفشلت كل المحاولات الاختراقية لكسر كلمة السر بطريقة غير شرعية. عند استفراغ الأسباب والوسع يأتي الفرج، ويقفز من وراء ظهور البيوت لا من أبوابها. حدث عندما كنت اشاهد فيلم وثائقي قديم للفنانة ليلى العطار وهي تتمشى في شارع الرشيد -أحد أبرز شوارع بغداد- فرأيت لافتة معلّقة على أحد المحلات باسم شهرزاد، ربط ذهني ذلك بالسؤال الذي وجّهه غريب الاطوار لي عندما قال: هل تعلم من هو أحب الناس اليّ؟ انها «شهرزاد»، وقتئذ لم افهم لماذا طرح هذا السؤال الشخصي الذي كان لا يمت بصلة حديثنا المتداول في أمور معرفية بحتة؟، ولماذا كانت هذه النقطة الشخصية الوحيدة عن حياته التي اتاحها لي؟، ربما هذه القطعة هي المحطة الأخيرة التي ستحل هذه الاحجية.

جلست أمام الجهاز أتضرع الى الربّ ألا توجد شيفرات أخرى، ادخل حروف "شهرزاد" بتؤدة حذرة وتدقيق مهووس، دفعت نفساً حارقاً عميقا يلفظ من دخيلتي خليط المشاعر المتناقضة قبل اقحام الحرف الأخير، اكتمل الاسم وترددت مرات عديدة قبل أن اضغط زر "enter". انفتح الملف فانشرح صدري بلذة اكتشاف عالم أثري لمدينة طمرت تحت التراب لقرون طويلة. اول ما وقع على ناظري في الصفحة

الأولى الرسالة الآتية: «مرحباً صديقي، أظن ان وجهك ممتقع من الغضب الان على ما زرعته من خطوات شاقة حتى تفدَ الى ملفي، لا تنزعج فأشيائي عزيزة، وعلى من يريدها ان يتسلق التعب كي ينال حظوتها. غيومي المثقلة بماء الخصوصية قد استمطرها قلمي في هذه الصفحات الطويلة، وهنا سكبت خطوات عمري التي كنت الشاهد الوحيد على تعثرها وما اثخنت به وجه روحي من جراح. ولمّا اكملت نُظمها واستوفيت وطري منها؛ ترددت فيما سأفعله بهذا الشريط الوثائقي لحياتي، ورطة أنوء بثقلها ومأزق ارتبكت بوجوده. احسست اننا توأمان أحدهما انا بنسخة لحمية والأخر بنسخة ورقية، ولكن لا يمكن ان يجتمعا معاً او يعلم الناس أنهما صِنوان أو يرشد بيده أحدهما للآخر. هذا المنتج لا يجب ان يُكتب فيه صنع من ابداعي وتأليفي، ولا أن يقوم بالوشاية ويشي بدخيلتي امام المعارف والناس. لا احبذ ولا أستسيغ ان يقرؤوا هذا الهذر فيعاملوني على أساسه ويعيدوا تركيب شخصيتي وفقه. هنا بسهولة يجد الشخص خاصرة رخوة يلوي بها ذراعي، وسيوف متنوعة في طعن ما يشاء بي. فكرت هل أقوم بإتلافه وارتاح من كوي تأنيب خصوصيتي وخشيتي من نزع لحاء أشياء، لطالما استخدمت أساليب قمع وحشية في اسكات ظهورها؟ لم أستطع الرسو على تخريب هذه الصفحات ورميها في القمامة؛ لإن جزءاً ثائراً مني أراد التمرد على ديكتاتورية صمتي وتجربة إحداث قنابل صوتية مدوية من ضجيجي وايصال صداها للعالم لأول مرة في حياتي، والأخيرة كذلك. وحتى احتال على الموانع الرافضة لهذا القرار النشاز عن شخصيتي، قررت ألا أكون بوجه المدفع واوكّل هذه

المهمة لشخص آخر يقوم بها على اتم وجّه، شخص يعتبر ان هذه الرواية من صنع يده واستيلاد خياله، يعتبرني بطلاً قادماً من النتاج الكيميائي لتفاعل مخه لا شخصاً حقيقيا ولد من بطن الواقع وسلّمه قصته. أن يعامل ما كتبته كأبن بالتبني وجده في قارعة الطريق أو تركه أبوه المتوفي امانه عنده، أو يعتبر نفسه محققاً تراثياً قد عثر على هذه اللفائف من ركام مخطوطات قديمة لشخص عاش في زمن سحيق. أريد أن اهرب مما حبّرته وابرئ من نسبته وبذات الوقت اقرئه مراراً وتكراراً وارثي نفسي فيه. أن أصبح قارئاً متغرباً عمّا كتبته وانظره بحيادية كأني اقرئ لكاتب آخر اذهب الى حفل توقيع كتابه، وأحظى بإهدائه كلوحة فنية فيها هيئة وجهي وبرسم وتوقيع فنان اخر. لذلك يا صديقي عملت هذا الاشتراط في إعلاني او هذا الطُعم لاستدراج شخص مؤهل لهذه المهمة. كان هدف الاختبار المعرفي واستنباط الشخص الثقافي منك؛ لأنك ستقدّر باهتمام ما دوّنته حق قدره ولا تبخسه بالإهمال، وتجد فيه تجربة إنسانية تفصح عن جوانب نفسية غائرة قلّ ان يتطرق لها الكتّاب. وكان لا بد من تضليل موقع الملف وعمل كلمة سر له؛ لاختبار مدى اصرارك وعنادك واستبسالك ونفسك الطويل في الحصول سرّي وبالتالي اقيس منه حُرصك على حفظ عملي المسمّى بـ "عطر الخطر" واطمئنان قلبي على حراسة حياضه من عوامل الاسكات والتمزيق. لم اتخذ إجراءات متشددة للتعرّف عليك أكثر، فلربما تخيّب ظني وتصدم رجائي وتخاتل مطلبي وتخدعني بشخصيتك ولا تهتدي السبيل الأمثل لمراعاة غرضي من إسناد هذا الكتاب اليك، بيد انّي أسندت مَلكية هذا المتن اليك تتصرف به كما تشاء؛

لذا وضعت احتمال قائم وكبير ان يضيع مجهودي ويُلقى في اليمّ على يديك ويقبره النسيان بما أني نقلت عهدته إلى ممتلكاتك وصرت القيّم عليه. لن أذرف الأسى لو اهلكت هذه الصفحات حرقاً؛ فجانب مني يود لو تكون رماداً، ولن ألومك لو تصرفت به بما يناقض اهوائي وأمنياتي منه، ولا يعتبر بحكم الوصية الواجب تنفيذها من قِبلك لو طلبت ان تفعل به كذا وكذا، فليس الامر مقايضة ان أعطيك الكتاب في مقابل تحقيق إملاء نشره. انا اجازف بإيمان أم موسى ووضعت كتابي في تابوت المجهول وألقيته في بحر الخطر وسيصل الى قصر الطبع والنشر حيث سيكرم مثواه ويحتضن بالاهتمام. لن اخادعك واخرج عليك مستقبلا اتهمك بسرقة الحقوق الفكرية واطالبك بإرجاع الوديعة الى أهلها، ولا اطمح بلقاء آخر معك استقرئ منك اخر اخبار الرواية وتطورات مسيرتها. فاقضي ما أنت قاض بحق هذه الكتاب من تعديل أو حذف أو هِبْته لشخص آخر، ولا ترعوي من ورع يزعك عن فعل ما يطيب لك فيها. وهذا اخر عهدي بك، فاقضي على كل أمل في البحث عني. سلامٌ عليك وعلى اخر كلمة اكتبها هنا قبل العزلة...». انتهى كلامه

وعليه لا ادّعي ان هذه المخطوطة من بنات افكاري وانّما وصلت بالطريقة التي رويت عليكم، ولم يسمح ضميري ان احيلها الى أسمي أو أتناولها بالتنقيح كما اشتهي، ونشرتها لِما بصرتُ بها من سرد يستخرج اوجاع المرض النفسي وتأثيره من أعماق عجزت كثير من الأقلام ان تصطادها بمثل هذه الاسهاب الرشيق والدقة المتناهية، ولحاجة الرواية

العربية الى رفد رفوفها النادرة بمثل هذه المواضيع الحبيسة في طيّات كثير من الناس وافتقارها الى لسان ناطق باسمها. وأقول لصاحبي- الذي لا أعلم أن كان سيطالع هذه الكلمات او لا- انّي صحبتُ حروفك، ومشيتُ على صفيحها الساخن، وسرى دمعها الحار على خدودي، ولمست بأصبعي مواطن مواجعها، وركبت امواجها الشجيّة، ولطخت بدماء جراحها المُثخنة، والتحفت تفكيري أياماً ولياليّ طويلة؛ فان انكرك العالمين فحسبُك أنّ شخصاً قد استطاع فهمك أخيراً.

******

تمهيد:

بعد سنين من اغلاق مغارة اسراري وصدّها بوجه الرائحين والغادين، واخفاقهم في انتشال غموضي وسيرتي المستترة والجزء غير المروي من حياتي الى مسرح الانكشاف؛ بدأ قلمي يراود نفسه للكتابة والإبانة عما يعتلج في النفس من زُحام مكدّس ينتظر ترحيله إلى صفوف الحروف. لا أدرى على سبيل الدقة كيف اختمرت عندي أسباب البوح. هل تداني خطوات الموت مني عجّل بنقل حياتي على الورق وخطفها من يد النسيان الابدي؟ أن أتخطى بالكتابة كمين الفناء وأعبر بحياتي من نحر النسيان وأفيء الى مرافئ الخلود؟ او أجد في الكتابة ذريّتي التي تحمل أسمي وتاريخي وتعوض عن خلفٍ لم أنجبه؟ هل هي محاولة ملحمية مني لاقتحام انسداد الفهم الوعر عن حالتي المعقدّة والاستعاضة بالكتابة لتبسيطها امام عقول الناس؟ هل هو الخوف المرضي الذي يهددني بسلب قدرة أصابعي على الكتابة ويهيجني إلى تدارك ما فوّته من أمرها؟ هل هي سطور اكتبها ملاذاً واشباعاً لحنين مستقبلي على ماضي سأفقد فيه القدرة على الكتابة، اخر ادواتي للتعبير عن افكاري وشخصيتي؟ أو هو احتياج مُلح لكنس مدخنة نفسي وتحريرها مما ران عليها من طبقات الكبت، والطفو بها تحت مصباح الوعي لأكون على بيّنة وبصيرة ومواجهة من نفسي؟ هل هو فقر دم إنجازات لشابٍ يسعى من خلال هذه السطور لدخول مجد الكتابة؟ او لإني لمّا طالعت في الكتب وآنست من نفسي القدرة على الكتابة مثلها، قررت الخوض بحظي فيها؟ أو قد يكون

تزجية وقت وتسلّي بوقت فراغي الشاسع، أو صناعة شيء افتخر بقيمته امام ذاتي واتميز على اترابي وعشيرتي بكتاب لا يستطيعون اجادة انتاج مثله! لا أدري؟ هي أهداف توالد بعضها من بعض، ولا لأعلم ترتيب أولاها من أُخراها.

هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة ارهاصات أرست الجهوزية والتدافع على أبواب الكتابة لتأخذ بزمام تحقيقها، وأسنان القلم متأهبة لتقضم من ثمرة المحبرة والهبوط بطائرتها في مطار الورق. بقي توقيت الانطلاق متردداً يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى، إلى أن دنا فتدلى من انثى ذابت امامها جلاميد صندوقي الأسود وليطلق مدفع خصوصيتي القذيفة في الهواء معلناً الإفطار وفك الصيام عن الكلام، اسمها شهرزاد واستلوا لاحقاً من أمرها ذِكراً. قضيت معها أيام قصيرة بشعور سنين طويلة، وتفرع معها ملحق عمر ثانٍ غير عمري الأصلي. ذات صبيحة عطّلت حسابها في الانستغرام على حين غرّة وخلفت رسالة فيها ما يلي: «عزيزي الغَزْاليّ، العزلة ندائي الابديّ كما تعلم، فما أن اسمع رنين قرع جرسها حتى أقيم صلاة الميت على الأشياء واستفرغ الناس من جعبة اهتمامي، وأحزم ثوب الاعتكاف وأحج إلى صومعتها اتبتّل فيها تبتيلاً. واعلم انّك أنشأت في خيالك محاكمة تعاتب فيها إثم مفاجأة رحيلي، ولكن قطعاً هذا العتاب سينحر امام عتبة تفّهمك لشطحات مفارقتي واتباعي سنّة الصدفة في الذهاب والإياب بلا موعد استأذنه واقرره في مفكرة المواعيد. سيطول أمد الرحيل هذه المرّة، وقد لا تصدقني؛ لعلمك ان كثير من

افعالي لا يمكن التنبؤ بها، فقد أخبرك أني سأغيب يومين فتمطّ أسابيع او اغيب أسابيع فتنحسر لأيام معدودة. من أول يوم لقاءنا وأنت نذرت سمعك وكرست يومك، وازهقت اهتماماتك للإصغاء إلى تاريخ حياتي وطرفاً من حاضرها بنفسٍ صابر لا يخالطه نأمة استياء وضجر، ولا تبالي بتعبك المرضي ونقره المؤلم. أشهد أنك راعيت آداب الانصات، وتنفعل كل احاسيسك لتحاكي ألوان مشاعري التي يثيرها حديثي حتى لأحسب ان أعصاب عواطفك تعمل وفق دستور عواطفي. لم تكُ اذنك ساهمة حتى إذا خرجت من عندي تقول لنفسك: ماذا قالت آنفا؟ ولا أنسى طرح أسئلتك المحققة والدقيقة التي تطارد سردي -وإن كنت انزعج احيانا من مقاطعتها- فاني أعلم من خلالها ان ذبذبات بالك متصلة معي؛ فيشدّني ذلك لاستفراغ المزيد. لمست فيك سحر حفظ السر، فغدوت أمينه وحاميه، كأنك تعتقد ان مقصلة فوق لسانك ستقع لو انسل منك، فلم تكن بوقاً تجهر به لأطراف أخرى يتداولونه فيتخذوه ظهيراً ضدي أو تستعمله لاستصغاري عند حدوث شجار معك. ملاذك الامن واهتمامك الشخصي وعشقك المتفاني لي؛ شجعني في توسيع رقعة بوحي إلى بُقع شديدة الحساسية ونائية عن يد البشر، لو تدحرجت على لساني لارتاع وما سمح لها بالخروج، وأحيانا استعجب كيف وضعت لساناً لتلك المناطق الحرجة في مذكرة الذاكرة وحنثي بقسمي أن لا تخرج ابداً! لا أنكر انّك آثرت الصمت طوعاً وتخليت عن ذاتك إيثاراً، حتى تنسح لطاقتي التعبيرية بأخذ مكانها في اذنك؛ اذ كُنت تعلم ان طوال حياتي في علاقاتي الاجتماعية امتهن الانصات وأتبوأ رتبة الارشاد والنُصح والهدهدة والاحتواء للناس

كأني امّ لهذا العالم، فبقيَ داخلي مضمراً ينازعني الظهور، وامتطى وجداني واسراري وذاكرتي الصمت الجاثم. وجدتك الوعاء المناسب الذي ينساب فيه نهر حديثي المتدفق بلا عقبات معترضة تصارعني او مثبطات كابتة أو أحكاماً عقلية واخلاقية معقبّة منفّرة تجعلني أندم او اتأفف على اقلاعي في الكلام، حتى أني لأنسى وجودك كأني منوّمة مغناطيسياً وانخرط في انغماس مع ذاتي كأني أكلمها وجهاً لوجه. تُذكر قيل أني بحاجة لطبيب نفسيّ، فقُلت لك لو كان لي من الامر شيئاً لسلكت الطريق إلى مسكنك، واتخاذه عيادة اشرّح بها نفسي امامك تشريحاً؛ إذ لم اجد شخصاً جمعني فأوعى أفضل منك، فانت قُلت لي: «أنا اشعر اني تلاشيت وحللت في ذاتك عندما تتكلمين، فاسمع قرقرة المعدة وهي تهضم الطعام، وهسيس مجرى الدم في الاوعية الدموية، وتناوب دورة الانفاس بين الشهيق والزفير...».

احتسي الشجب على صمتك الذي لا أعود منه سوى بطنين هبوب رياح فارغة، وإجمال مخلّ يزيد من احاجيّ غموضك، ولا يُعرب عن سفور وضعك الغريب. لوهلة ظننت ان ثقتك بي متصدّعة وغير مؤهلة لإحالة اسرارك لي، ولكني اكتشفت ان الكلام عندك يشقّ طريقه بحافز خارجي بالاستنطاق والاستجواب وليس تداعي حرّ ذاتي من تلقاءك. وهنئذا شهرزاد سأسكت عن الكلام المباح وافسح المجال لمساحتك الشخصية بالإبانة وإنهاء اغتيالها من لدنّي، واتحول إلى كيان من أذن وظيفته حصراً سماعك، واستهل – لأول مرة في حياتك- الولوج

إلى الكائن القابع في داخلك، والمستتر بإحكام عن أعين العامة، والاطلاع على ركامه المتكتّل وإخلاءه إلى يابسة العالم الخارجي، ليأخذ حقه في التفاعل والنور. سأترك لك ايميلي مرفقا في حاشية هذا الكلام وانتظر رسائلك الدورية عما لا يعرفه الناس من سيرة حياتك، لتكون زادي واثرك الذي استلقي عليه واعانقه في غيابك، وهذه أوامر عُليا مني واجبة التنفيذ، وايّ تلكأ فيها سيثير حنقي الذي بمثابة اغلاق الباب على الاصبع، فلا تجعله يحتد ليصل الى العقوبة القصوى وهو: الصمت المطلق الذي لا يفلّه ايّ تضرع ورجاء، وانا آسفة لاضطراري للتهديد؛ لإن طلبي منك هذه المرة عملاقاً ولم يلبّى سابقاً، فاستعملت أكبر تخويف تهاله مني، ومع استخدامي الترهيب فاني على قناعة داخلية انّك ستنفذ حُباً لي، لإن ذلك المعهود عنك.. بفارغ الشوق انتظر نصّك الروائي لتحلية وإشغال عُزلتي بك *..

- الايميل: Mitsuha_Taky@gmail.com

الرسالة الأولى:

تعلمين يا شهرزاد أن طول صمتي عزز المنع النفسي في البوح إلى درجة زجري منح ايّ ترخيص يعطي الحق لشخص آخر في معرفتي. ومع أنى شغفتُ بك حباً وخالطتك بعمق حتى كنتِ سمعي الذي اسمع به وبصري الذي أبصر به وجوارحي التي تفعلين بها، إلا أني اذ أدشن حكايتي اشعر بارتجاف خانق متردد وكأنها عملية جراحية تستدعي وجع شق جلدي واماطته لاستخراج مكنونات ذاتي. شعرت أنها عملية انتحارية احتشدت لها مشاكسات تؤنبي على فعلها وانبرى لها مصدّات تتوعدني لو أقدمت عليها. عسير كان مخاض استيلاد جنين قصتي وحملها بين يديك والنظر اليها. صحيح ان أسباب الكتابة استحكمت عندي من قبل اعرفكِ، إلا أنّ حاجز اللحظة الأولى لإتيانها اصابني بتوتر تسارعت له نبضات القلب بدرجة أشرفت بي على حافة الاغماء، وكنت اعلم ان كسره يعني تساقط بقية احجار دومينو واكمال مسيرتها بسهولة متناهية.

استمر الكتم والبوح يتصارعا على الإمساك بخطام القلم، الى ان تمعنّت في ايميلك ونقلني الى ذكرى انمي "اسُمك-your name" الذي شاهدناه معاً ذات سهرة، والذي يبدأ بتقمص "ميتسوها" و "تاكي" أجساد بعضهم البعض اثناء النوم ثم ينفصلان اثناء الاستيقاظ، وتبعاً لذلك يقضي تاكي يومه في جسد ميتسوها، وتقضي ميتسوها يومها في جسد تاكي، بعملية انتقال عابرة للمكان، ويحاول كل منهما في البداية أن يتكيّف مع

العيش بجسد الأخر ومع تفاصيل حياته، ثم تنتقل عملية التكييف السابقة إلى محاولة إصلاح المشاكل التي يعيشها كل منهما في حياته! ولطالما بحثنا عن اسم ذو دلالة يشمل تفسير علاقتنا فنُعود بخفيّ حنين ويقيّد مجهولاً. فتعرفنا على هذا الانمي واشتققنا منه تفسيراً جلياً لعلاقتنا، فاقتنعنا ان الحب ليس ذات تعشق ذات مغايرة للآخر كما هو شائع، وإنما هو نزوع خفي للرجل ان يكون له صورة انثى ونزوع ضامر للأنثى ان تكون لها صورة رجل، فصرتِ التجلي الانثوي الذي أحب ان اكونه، وصرتُ التجلي الرجولي الذي تُحبي ان تكونيه! هذا الخاطر حسم رجحان الكفة لصالح الكتابة، فلا يصح الادعاء بانّك انا، وأجزاء مني خافية عنكِ. علاقة مبتورة وعرجاء تلك التي لا يستوي فيها ظاهر وباطن الشخص امام الطرف الثاني.

اكتب هذه المعاناة لكِ حتى تعلمي مقدار ما كابدته من قلع المقاومة لكل ما هو مُستعد للانتقال إليكِ؛ لذلك وضعتي التهديد في رسالتكِ احتياطاً لعلمكِ باني سأتلقى مجابهة عنيفة، وفي حال إذا ما أخفق الحُب في دفعي للكتابة. وهذا اختبار عظيم وبلاء مبين قد اجتزته لأتركك مع نص الرسالة الأولى، وستتلوها نصوص الرسائل الأخرى، ولا تنسي التعقيب بـ "تم" لأفهم أن المعاينة تحققت ولا أطمح أكثر من هذه الكلمة؛ لأنّكِ نذرتِ صوماً فلن تكلمي في العزلة إنسياً.

******

كنت أسرح في رياض الاستقرار المطمئن، وما ذهبت لمكان إلا أنبتت الحياة لي حدائق ذات بهجة تسر فؤادي وتبسط برحابها لا تغلقه بوجهي. كنت اظن ان سعادتي قد قضمت من شجرة الخلد فتبقى خافقة لا تغض بصرها عني، وأنها مرتبطة بدقات قلبي لا تتوقف حتى تخنس نبضاته، إلا ان ظنّي هذا ستذروه رياح عاتية ما تذرُ من شيء أتت عليه من سروي إلا جعلته كالرميم. كنت احسبه هناء دائم غير مؤقت بميعاد للفراق ولا تسري عليه أحكام التغيير والابتعاد. ولكن القدر كان ينظر إلى ساعته مترقباً إطلاق صافرة البداية لعمل انقلاب تكون حياتي ما قبلها لا تشبه ما بعدها، وان نسخة حياتي الذهبية قررت من دون مشورة ولا استئذان مني؛ ترك حاضري والانضمام الى الماضي، وتسليم امري إلى حياة أخرى قد سُمّيت زوراً حياة وماهي منها بشيء. كل يوم ينزل آدم جديد من فردوس حياته الهنيّة ويهبط الى ارض الشقاء ويبدأ مسيرة الكَبد والتعاسة وقد آن وقت نزولي. داهمني البلاء بطريقة غير مؤدبة فكسر نافذة زجاج نفسي ودخل منها على طريقة السارقين يعيث فيها، فلم يُعلمني بقدومه ويأتي البيت من بابه. وانهارت الاحلام المشيّدة على أساس الحياة القديمة، وما كان واقعاً بديهياً فيها قد صُيّر بعد البلاء حلماً اسعى اليه!، وبينما كنت أتقدم خطوات في تعمير مستقبلي؛ انحسرت إلى الخطوات الأولى التي كنت قد تجاوزتها.

لا أملك جهاز إنذار ورادار يحدد طريق البلاء فآخذ استعداداتي لتقبّله ولتشذيب شيء من حجمه قبل ان ينْصبّ بي، ولكن انّى للتهيؤ ان

يأخذ مجراه والجسم سيتخشب من هوله؟ قُبيْل مجيئه والنزول في ساحتي، وعند ساعة الأصيل حيث الشمس تضع رجلاً في الشروق وأخرى في الغروب، ونسمات الربيع تغدق حنانها على رئتيّ؛ مرّ على أحد جيراننا فأصابهم بمصيبة الموت، وخرجت لأرى هرج ومرج الناس يتحلق حول زعيق وهوج صياحهم، فالتمعت عيني بالدمع حُزناً على فراقه، وقفلت راجعاً إلى البيت اردد آية الاسترجاع واضطجع على الاريكة متفكراً في عبرات الموت. انكسر وهج الشمس امام غزوة الظلام فغرقت في دياجيره والكهرباء لمّا تأتي بُعد. بعد برهة أعاد البلاء الكرّة على جار آخر، فنادى أحد افرادها فلبّى ولقي حتفه، وتعالى نحيب مباغت مزق نياط قلبي وانتصب له شعيرات جسدي.

كانت أمسية مدججة بالموت وكلٌ يضع يده على قلبه ترقباً أن يكون هو القادم، وغشّاني من يم الغم ما غشّاني، إلا انها لم تبلغ مرحلة الصدمة الصاعقة التي تسلب لبّي. لم أكن أدري ان دوري هو التالي لتلك الرحلة القاتمة التي قررت صبّ هداياها على طريقتها المرعبة. كنت احسب أني في مأمن من نار المحنة، ولن أحرز منها سوى استنشاق دخانها دون ان تلامسني بلسعها، ولكن كنت أحد اغراضها المستهدفين حسب خطة عملها المقدرة لها، وسيكون الموت هو صاحب البطولة والممثل الأساس في القصة التي تريد حبكها معي، وستجعل منه الطُعم الذي تقربه وتبعده عني بمقدار.

اتخذت موضعي من الفراش وعسس النعاس طفقوا بالطواف في محاجر عيوني. أسمع أصوات نشيج الجيران تتسلل من النوافذ فتزيد من قتامة الجو. وفجأة، شعرت ان تنفسي قد بدأ يفر مني وصدري كأنه يعاني من ضمّة قبر تكبسه وتختلف عليه اضلاعه. أكره عنصر المباغتة للألم وهو يغرس نفسه بي، يزداد ضراوة وشدّة عندما يأتي من حيث لا احتسب، اترنح من هول مفاجئته كأنه انطلاقة سحابة عيش غراب الانفجار النووي الضخم ثم يتبخر رويداً تاركاً خلفه اثار مدمرة، لا اعلم لماذا لا يأتي بالتقسيط ويتمهل في الدخول ويترفق بالأعصاب فلا يتعجل؟

وثبْتُ من السرير فزعاً وأهيم كالمجنون لا أدرى إلى اين؟ أصبحت أرى روحي كالحبل يتنازعها فريقان، يقوم أحدهما بشدّها الى الداخل والآخر يريد انتشالها للخارج، وعلى حلبة طرف بلعومي جرت لعبة شدّة الحبل. هرعت إلى القرآن كأول شيء استقر عليه واحضنه ولعله يحميني ويطرد هذا المصاب الحائم حولي. لأول مرة راق للموت ان يغمس فمي من صحنه واتذوق علقمه. عايشت الاحتضار وحشرجته وسأعيشه مرارا وتكراراً بعد ذلك. كنت اظن أني سأكون ثالث ثلاثة الذي سيختم به رحلة الموت لهذا اليوم المريع الذي ليس كمثله شيء، غير انه لم يستعجل خطفي؛ إذ مارس معي عبث السراب، فيدنوا مني حتى إذا ايقنت الهلاك، تركني ألهث من الرعب والظمأ للحياة، فاكرع منها وكأني مولود جديد فيها. العذاب يمطّ الزمن فكنت اشعر انها ليلة سرمدية لن يكون لها فجر، وتمد القشعريرة أسلاكها على ظهري فكانت تنزل صعقة

كهربائية هلعة يتزلزل لها كياني كالذي يتخطفه الشيطان من المسّ. تموج الدنيا من حولي وتدور ومعدتي تتشقلب تريد التقيأ. أصبحت تسوماني هائج اتوسل بضراعة للهدوء القديم ان يثوب إلى رشده، ويكف عن مزاحه السمج ولا يهجرني اكدح مع هذا الوضع الذي يبلبل حالي، فلا حياة لمن تنادي. استغيث بكل شيء ان ينجي امري من حوت الظلمات ولا أرى إلا الظلام الذي يحيق بي ولا ينقشع. لم تفلح همهمات أمي الدينية وكلماتها التشجيعية في استدعاء جزر السكون، والقضاء على مدّ هدير أمواج الاضطراب بداخلي، فبدأت اشعر باني من أبناء الاخرة وانظر باستسلام إلى مصرع الدنيا وزوالها..

استيقظت، وقد زالت تلك الزوبعة العنيفة عن جسدي، وآل إلى الهدوء غير انها أعقبت آثار لم يستطع ان يعفو الزمن عنها حتى الان. انظر بعيني، فإذا الأرض غير الأرض والسماوات! اجوس في نفسي وقد زايلتها الثبات والسكينة! أفتقد شيء ما اغترب عنها وشرد. هل جرت عملية مقايضة نفسي بنفس أخرى لا اعرفها وبدون علمي؟ هل ما حدث أمس من ألم كان المخاض لولادة نفسية جديدة لم اشهدها بعيني! أشعر ببرودة الأشياء وسُباتها مع أن الجو كان ربيعياً، إلا أنى ايقنت ان فصول حياتي سيخلو منها الربيع بعد اليوم. اشعر بالدهشة وانا أتطلع إلى الغرفة حولي كأني أزورها لأول مرة، وكآبة حزينة تصبغ وجداني. تحتشد أسباب المخاوف لديّ، تتمزق السكينة وتنفض من حولي، يجدّ الوهم في عمله ويبلغ الذروة في انشاء تهديدات لا وجود لها، تدور اعيني وتتلفّت

ذات اليمين وذات الشمال من خطر محدق يرمقني من مكان لا اراه، لو أجد ملجأ او مغامرات او مُدّخلاً اندس بها والوذ في ثناياها حتى اضلل العدو المتربص أو أحرف عني فاجعة محتملة. أن أكون بحجم فأرة ورشاقة خفتها في الاختباء في شقوق غير مرئية. أن أملأ الفراغات الشاسعة بأفواج من الجدران التي تجعلها كالمتاهة التي لا يستطيع أحد ان يجد فيها أحد. أن أدثر وألف بأغطية كثيرة تستلب المخاوف بداخلي وتشيع الأمان. ايّ حياة هذه التي يصبح خشخشة كسر ورقة يابسة كأنه صوت صرخة طفل رأى شبحاً مخيفاً؟ لماذا كل شيء في حالة طوارئ ومتأهب لدرء خطر قادم؟ لماذا أصبح كل شيء يهتف بنعيق الغراب نذير الشؤم؟ الأشياء لم تعد تبعث السكينة! أراها كائنات حية تخدعني بجمودها وتضمر لي شراً مرتقباً! يتشمم حدسي الارجاء من حوله فلا يلتقط إلا إشارات التحذير والانذار! هناك من أراق قارورة "عطر الخطر" واجراها في تشعّبات نفسي. ليت زكاماً ابدياً يتلف هذا الاستنشاق للخوف وانهاء هذه المهزلة. هل هذه الغرفة أصبحت مسكونة بالجنّ ويرسلون اصواتا بلغتهم لا اسمعها ولكن اتجرع تأثيرها بجزع؟ او العطر يفوح من هذه الغرفة لا من داخلي؟ لا بدّ ان العلّة في المكان حصراً. انقل نفسي إلى حيّز آخر -واللامنطق يفرد حكمه عليّ- فلم يتغيّر شيء.

مع أنى أعيش في بيت محصن بالأبواب والجدران والاقفال ولكن اشعر باني في عراء ممدود بلا حدود، أني بلا قوة أو شيء يحميني ويصدّ عني سبيل الخطر، أملك وسائل حراسة ولا تحميني! ظهور صورة ذاتي

يُظهر مشاعر التهديد والخطر داخلي. انكشافي يستثير الأشياء ويحرضها ضدي. شيء ما فيه يستعد للتآمر ضدي واتلاف مصالحي. وجودي يخرج أسوء ما فيها من الشر الذي تضمره اتجاهي، ظاهرها مسالم، هادئ، وباطنها محارب يريد الفتك بي. أشعر باني أسوء مخلوق قد اتحد جميع المخلوقات للنيل منه. اريد ان أصبح مستتراً وغير مرئي للأشياء. أمر بجانب الأشياء فلا تحاول إلا الظفر أرى الأشياء مهتاجة وثائرة لا أستطيع هدهدتها وتسكين روْعها. متى يتسلم السلام مقاليد زمام نفسي ويستسلم له الاضطراب ويستتب الامن في ربوعي؟

غادرت البيت لأرى العالم خارجاً، فتداعى التجانس معه وانهدّ، والشيء الذي كان يشدني إليه قد أدبر. شعرت كأني مخلوق قد حشر في غير بيئته، كغربة النملة ونفورها لو وضعت في خلية نحل ليس فيها اشقاء جنسها. اشعر ان الذاكرة تمت إعادة ضبط المصنع فيها وحذفت محتوياتها، فغدوت أنكر الأشياء ولا أعرفها، وغاص الاستئناس بها، فانقبضت وتنصّلت عنها. هذا المكان الذي رضعت من اشياءه أعواماً مديدة حتى أصبحت غصناً اتغذى من شجرته؛ بات ذهني يطرح سؤالا عنه: اين انا؟ آصرة جذوري المغروسة في أحشاء تربته جُزّت بالمنجل، تضاؤل حجمي إلى هباءة تصرع جاذبية الاستيطان الى الأرض، فصرت اتقلب في هواء الغربة اللامحدود. ما بال عواطفي تبرئت من الحياة وجافتها كأن لم تكن بيني وبينها وشائج المودة؟ لا يوجد من هو مثلي حتى اشرح له ما اصابني، فانا في ضفة والناس في ضفة أخرى وبيننا مجرى

نهر متهور لا أحد يستطيع عبوره للتواصل. اسمع شيء من خفقان قلبي كعلامة شاهدة تؤكد ان ما حصل أمس لم يكن هذيانا. الطبيب الحاذق الذي ذهبت اليه ليفحصني وليستبين ما جرى لي؛ قد استجمع اوكسجينه كالسباح الذي يستعد للغطس، فأفلت زفرة طويلة فهمت منها حيرته التي تلاحمت مع حيرتي وحيرة اسرتي في معرفة السبب وراء ذلك...! هذه كانت الحلقة الأولى من سلسلة فشل نبوغ الأطباء امام ما يلّم بنفسي من اوجاع، والتي ربما تحتاج إلى طب جديد لم يواكبها بعدُ علوم الأطباء المعاصرة.

انتهى النهار الأول لعالمي الجديد وجنّ الليل، إلا أن سكونه الذي يلوذ به الناس من كدّ عناء يومهم؛ قد تم السطو عليه، فأقبل بوابل من الذعر بعد نهار من طلّ. ولا أدري لماذا دياجير المساء تكاتفت مع الخوف لزيادته؟ ربما عربدة الخوف كالخفاش لا ينشط حثيثا إلا في الليل. لم يعد في قوس الصبر منزع، فأهرقت الدموع على هذا الداء الذي لم أجد بعدُ له دواء. ارى عيون اهل بيتي تبحلق بي، وتهمّ ان تقتدي بسيلان عيوني، وتنتظر الوجنات لديها ان ترتشف من مائها المالح. انطرح في غضون ذلك سؤال في ذهني: لماذا حصل ذلك معي؟، وتُذاكر ذاكرتي هذا السؤال وتكرره على مسامعي مرة بعد أخرى مع كل لكزة خوف. ابتهل إلى العقل وامسكه من تلابيب ثيابه واهزه واستغيثه ان يعصر كل قدراته حتى يجيب عنه، فيشيح بوجه خائباً وقد تملكه الاستفهام وهو المخلوق في رأس الانسان حتى يحلّ الاستفهام والغموض! تجتاز الدموع القنطرة وتصل

إلى طور العويل، هو نحيب التحول الذي يرافق الانسان إذا فارق ما يعزّ عليه ويجد فيه الراحة، إلى مكان منفيّ لا تتجرعه النفس، جففت البكاء- الذي هو وصفة مؤلفة من الحيرة والخوف والتحوّل- استعداداً للنوم.

تدثرت باللحاف وقلبي ليلتئذ واجف من تكثّف غبار الخوف حولي. اِلسرب الذي آويت إليه آمن، فلو وضعت احتمالات وقوع خطر في تلك الليلة فلا تتعدى اعشار مئوية. فمن هذا الذي يتلاعب بعدّاد الأدرينالين داخلي ويرفعه إلى مستوى جرس الإنذار؟ فوق الفراش صارت دقات قلبي المسيطرة على الفراغ الساكن وتخفق بسرعة كالطبل. ارتد البناء النفسي لي على صورة الطفل الذي يجزع من بقائه وحيداً، فهرعت إلى أمي لعلها تناوش لي شيئاً من السكينة. فكان بعد ذلك لا يدركني نوم معتدل إلا إذا سمعت انفاس بجانبي، أجدها مبيد يبخ في الارجاء ويكافح آفات الخوف التي تتربص بي الدوائر!

وعلمت آنذاك ان المرض يضعني في مواطن لا تناسب سنّي، ويجر بيدي إلى اتجاهات طفولية استنكف ان يراها الناس وانا اباشرها. ولكم حرصت ان لا يبث نبأ هذا الارتكاس الطفولي الذي استحي ان يلصق بعمري الشاب. انها لكبيرة على نفسي ان اكون كالرضيع الذي يزعق من الخوف لو ترك لينام منفرداً ولا يد تربّت عليه! إلا إن الألسنة من الصعوبة عليها رؤية هذا الحدث النادر ولا تشارك الناس خبره ويتداولونه بالتفتيش والتحليل وادلاء الفتوى الطبية في الامر. وصُحت

مُندداً بالذين اشاعوا حالتي هذه، وكأنهم ازالوا عني لباسي الداخلي، غير أنى كنت اخاطب آذان محشوة بالقطن تدّق خصوصيتي بلا اكتراث.

كانت الصدمة طرية وطازجة لتوها، فأفرزت تعلق يقيني بتلاشي هذه الحالة سريعاً، وأنها ومضة ستُمزق صفحاتها من كتاب أيامي، وستُستأنف حياتي الاعتيادية تارة اخرى من حيث توقفها عند بداية تلك المصيبة. مع كل صباح اتحسس نفسي متحرّقاً إلى ان فقاعة هذا الكابوس الجاثم على صدري قد تم فقأه وابادته. ولكن لم يسمح الزمان باستمرار خضّة الصدمة وذهولها الغير المصدّق لتبدّل الحال، فبدأت ترخي قبضتها وآب العقل رويداً الى موقعه، وشحذ بذهني فكرة ان ما كنت اراه دائماً من صفاء الحال وتنعم حياتي ما هي إلا مرحلة قد حان أجلها واستسلمت لنهايتها.

الرسالة الثانية:

"سبوحٌ قدوس" شهرزاد، استهل الرسالة بهذه التحية التي ابتكرناها معاً كرمز للسلام، ولا شك عندما تعانق عيونكِ هذه الحروف، ستردّين التحية بنصفها الثاني، ايّ: "ربّ الملائكة والروح" غَزْالي. لا أدرى كيف أصبح دعاء الركوع النبوي مفتتح كل حديث بيننا؟

عاهة عقدة الكتابة تم الشفاء منها، وتساقط شلال الكلمات بطريقة عارمة ادهشتني، وكأنها كانت عاتبة عليّ لتركها مكتظة في زحام خانق لا يطاق، تذكرت مقولة غادة السمان (وانقلها بتصرف) " كل الذين يتقنون اسرارهم بإتقان هم كالسيل إذا باحوا". استعنت بمقطوعة الموسيقى الحالمة لـ فريدريك شوبان لتعمل على ترخية بقايا التوتر التي ترافق الكتابة، وتخيرت تلك المقطوعة من قائمة المفضلة في حسابي على موقع اليوتيوب التي تضم ما يربوا عن 120 مقطع اغنية وموسيقى، انتخبتها من أرشيف مخزن السمعيات عندكِ.

أرايتي ايّ تغيير طال اذني؟ هي التي كانت تصمّ جهازها السمعي عن التقاط الابداعات البشرية الغنائية وانتاجه الموسيقيّ. انبتر من عضو الصوت جانبه الجماليّ، فكنت اراه مخصصاً للإفهام وتصريف الشؤون اليومية، واحنق بجلجلة على فائض الأغاني المُنتجة سنوياً وما تفعله من اعلاء شأن العاطفة والهاء الشباب بها على حساب خصم وبخس قيمة المحصول العقلي عندهم. من شدة غضبي عليهم اتخيل لو كُنت ولي الامر

في بلادي؛ لحاربت أستوديوهات الأغاني ودور اوبرا الموسيقى وضيّقت رقعة تواجدهم إلى نطاق محدود لا يُملي على عواطف الناس تأثيرهم. انطبق عليّ قول أبو حامد الغزالي "من لم يحرّكه الربيعُ وأزهاره، والعودُ وأوتاره، فهو فاسدُ المزاج ليس له علاج". ولكن اتلف فساد المزاج السمعيّ معكِ، وأصبحت اتناول الاغاني بذائقة فنية تتغلغل في الحانها وكلماتها، وقادرة على تمييز الغث والسمين منها. سابقاً، كان يعسر عليّ التقاط الكلمة من فم المغني، والان اقبض عليها بانقياد واكتبها بخفة رشاقة غزال غزلاً بكِ، مع تجاوب جسدينا باهتزاز وتحريك اعضاءهما بطرب ورقص حبور. التفت أحيانا لباب الغرفة خشية ان يقتحمه أحد ويراني اتمايل ذات اليمين وذات الشمال، فيهتف بي متعجباً: أمعقول هذا انت؟ فيما مضى كنت استنكف عن رجرجة جسدي، واعدّه منافي للسلوكيات الجليلة ومن السخافات السائدة التي لا تليق بي فاستحيي ان آتي بشيء منه، وانتقد انسياق الشباب الى هذه الحركات المتهتكة والبذيئة لوقار البدن.

كثير من سماعنا منوط وفق حالتنا النفسية وبعيد عن الأعتباطية، فمثلا تُسمع السيمفونية التاسعة لبيتهوفن او اغنية Never Enough عند احتداد وثبة الغضب لغرض امتصاصه وترويضه، أو نسمع موسيقى "رائحة قميص يوسف" لمجيد انتظامي عند انفعال حمية الحزن، أو نسمع أغاني القاعات الهابطة فنستشيط في جنون محموم عند استيقاظ القاع السفلي المظلم بداخلنا، أو نرعى موسيقى ملقّحة بصوت المطر والنار

لاستدعاء الأجواء الشتوية ودفئها فنصمت في تبادل نظرات حميمية حتى يأتينا النوم.

صوتي الذي كنت احسبه عادياً اعدتُ اكتشافه معكِ، والفيتهِ يحوي نبرة هادئة مطمئنة دافئة وصالحة لإلقاء بعض ألوان النصوص الأدبية، ولا تنفكين تطالبيني ببعض الشعر او النثر القصير بصوتي حتى يسري إلى اعصابكِ وديعاً مسترخياً قبل نومكِ. من ذلك صار عندي اهتمام بتصنيف افانين خامات الاصوات كلٌ على حدة فتنامي عندي الذكاء السمعي وقبع جزء من جمجمتي عند طبلة الاذن. ولكن حالة المعافاة السمعية ووفرتها، تتعرض لانتكاسة وانطفاء، وترتد إلى الشحوب واليبوسة، وتأنف من السماع وتترفع لو انفردت لوحدي للإنصات؛ لان وميض اذني يتأجج عندما يشترك مع أذنكَ ويعيشا الحالة الوجدانية للمعروض من الصوتيات. أحاول قدر ما أستطيع استحضاركِ لأستدعي - ولو جزئيا- نعيم السماع.

لا أدرى لماذا أحببت فقرة توطئة الكلام عنكِ عند فاتحة كل رسالة من قصتي أرسلها اليكِ؟ ربما؛ لإني اعتبرك بسملة الحروف في هذه الرسائل. اعود الان إلى حكايتي وأكمل ما انتهيت منه.

*****

هذا المرض الغامض شنّ انقلاب على حياتي، فهو ليس ألم فحسب، وانما يتوسع في السيطرة على السلوكيات وفرض تحديثات جديدة فيها. فبعض سلوكياتي الرئيسية القائمة، ظهرت قُبالتها اضداد سلوكيات احتلت مكانها، فلم يبقى لها سوى حيّز صغير تختلسه في بعض الأحيان. حدث عندي تبادل مقاعد بين الاضداد، فانتقلت من المجابهة إلى الانحسار، ومن المرح إلى الاكتئاب، ومن الكلام إلى الصمت، ومن المبادرة إلى الخمول، ومن الأمان الى الخوف وغيرها..، من تغيّرات زجتّ بي في قوقعة لا ترى من العالم الخارجي إلا حرباً مستعرة مفزعة فنهشت من مساحة تفاعلي معه وصرت اخالطه على استحياء. نهرت الشكوى عن ملامسة لساني، فما قبلت لها بالتواري في آذان الناس، وطويتها في اطواء نفسي تردد صداها. ألمي من صنف الالام التي لو ملكت بلاغة الخطباء فلن تستطيع دسها في أدمغة الاخرين ليفهموها، فكان الصمت مني خيبة كلام جال في المحافل وفشل في استرعاء انتباه الافئدة للتعاطف مع قضيته.

من العسر تحييد وتنحية تلك السلوكيات المستحدثة في التعامل مع الحياة والناس، فأصبحت أمامها كالروبوت المسيّر لا تستطيع العزيمة كسرها. وليت هذه السلوكيات الجديدة تتبناها لائحة الأعراف والتقاليد المقبولة لدى الناس فلا يستغربوا ما يصدر عنها، فأعيش في وئام نفسي معهم وحتى لا يرتفع تل الالم بداخلي، ولكن هذه السلوكيات لا يألفها الناس، ويستنكروا او يستكرهوا سراً فاعلها فلا يدنون منه، ويدرجوه في

خانة المرضى النفسيين! كأنهم غرباء من كوكب اخر تسللوا سهوا او خلسة الى عالمهم.

أصبحت سلوكياتي لقيطة، ولا املك صلاحيات التحكم بعوائد المجتمع لأخلق لها حق الوجود ضمن عائلة السلوكيات التي يتقبلها الناس بقبول حسن. السلوكيات الصحية للناس لم تعد نفسي تسكن اليها، ومحاولة تقمصها كسماد يزيد من تضاعف الالم الداخلي، وهذه الزيادة لا تنقص إلا لو نشطّت السلوكيات المستحدثة بدلا عنها! فما هو شذوذ بنظر الناس صُيّر طبيعيا لي! كم من الاذى الذي عليّ تجشمه حتى اواري مساحات شاسعة من هذه السلوكيات الجديدة، واقارب المناطق المعتدلة الطبيعية لحياة البشر واقلل الفجوة بيني وبينهم؛ وذلك استدراراً لتقليص الوحشة والتناكر معهم. يُهيّأ لهم ان هذه السلوكيات المستحدثة هي من اختياري واصطفيتها لنفسي بلا اجبار، وما كان باعثه اختياراً يمكن استئصاله بالاختيار كذلك، وما علموا انها سلوكيات ألزمها المرض إلزاماً ومن مظاهره التي غلفت خارجي. ولشدّ ما يزيدني وجعاً تحميلي مسؤولية ألمي وكأني من رميت بنفسي الى التهلكة بلا مبالاة او اكتراث، ويجهلوا حقيقة ان عوامل الالم ليست بيدي ولا من استحضاري.

تزداد نقمتي على المرض حين يؤلب الناس ضدي. يخفي نفسه وجنايته اتجاهي، ويبقي آثار كدماته ظاهرة؛ حتى إذا ما رأى الناس ذلك، ظنوا أني مستهتر مجنون ضربت نفسي مسبباً لها الأذى، بينما هو يطل برأسه من وراء الستارة يقهقه خُفية وبخبث الشياطين على ما حمّلني اياه

زوراً وبهتانا. من الصعوبة ان أجد مكان يقبل التطبيع مع هذا الوضع غير الطبيعي لي فلا ينظر لي بعين الريبة او النفور. ولا عجب والحال هذه ان يتكثف شعور الغربة داخلي ويتوحش العالم بنظري وتنفصم الملائمة بيني وبينه. فإما ان يتنازل العالم ويتكيف مع وضعي الذي يعسر التقولب معه وهذا من المحال حصوله، أو اتنازل عن وضعي وانصهر مع وضع العالم وهذا امر يكلفني ما لا طاقة لي بهـ ويحثّ الانهيار على معانقتي. فالعيارات في الكفتين غير متساوية حتى يحدث التوازن والتوافق، ولا يبقى إلا ان يحدث الهجران وان انزوي بعيدا عنه.

اسكتُّ اضطرابي وانتحلت الهدوء مجبراً. فبصُر الناس ذلك وأجمعوا امرهم ان ما حدث لي من هزّة فرّقت شعث نفسي؛ كان شيئاً عابراً ولا بد ان يزرع القدر تلك القلاقل النفسية المروعة في حياة ابن ادم فينال قسطه منها وانا لست بدعاً منهم. فأجد منهم من يضرب مثلاً من شواهد الواقع يعزز هذا الناموس الإنساني. ومنهم انتدبوا أنفسهم ليكونوا قدوة لي في الصمود، فقاموا باستطراد نتف من سيرة حياتهم مليئة بأحداث مزلزلة وكيف عبروها بشجاعة، فما استكانوا وسقطوا في حمأة الهزيمة النفسية! ومنهم من ارتقى منبر الوعظ، ويذكرني بان المؤمن لا يهن ولا يخاف ولا يحزن، وانه الأعلى بفضل قوة ايمانه برب السماوات العلى، فيطلب ان اذكر الله ذكراً كثيراً وسيضطلع بمهمة التماسك النفسي بين ضلوعي! ومنهم من رأى ان "دلع الدلال" هو من اودى بي إلى شطّ الانفراط النفسي وما عليّ إلا ان اتخلى عن نعومة الحياة والاصطفاف في

معسكر قساوتها وترك الاتكال على غيري، وسأتحول إلى كتلة صلبة تيأس الأشياء من تفْتيتها! ومنهم من يُحاضر في الإيجابية على مسامعي، وانّ ما اصابني من مصيبة وإجهاد نفسي، أستطيع تفويت الفرصة عليه لو قصدت ارادتي العزيمة على نبذه خارج اسوار حياتي، وما عليّ إلا بتر ماضي اطلال ليلة عزرائيل تلك وسيصفو لي البال. كانوا يحسبون ان بكلامهم هذا يحسنون صنعاً، ومن جنس اكسير الفلاسفة يقلبون به خشب التلف بداخلي إلى ذهب برّاق ذو صلاح، ولكنه حديث -وانْ كان زاهياً بالحكمة- فانه وضع في غير موضعه فبطل مفعوله التأثيري، وزاد على ذلك بروز اعراض جانبية سلبية منه وطدّت من سمك التقاطع مع الناس وقطع الرجاء منهم.

اختليت في مساحة ذاتي تائهاً عن السبيل الأمثل في طرد هذا الوافد القبيح. ولا اعلم من اين اختط البداية لمشوار دحره ولا معين ينصرني من دونه، فأكون مريداً استضيئ به في وضعي على درب الخلاص منه. شعرت ان العالم تآمر ضدّي او اعتباري لست ضمن مخلوقاته. كان عليّ مقاساة الخذلان الخارجي بصمت والذي تفشّى بسبب تشفّر حالتي عن الاذهان، وألا أعقد الاماني أو استعطف الغيث من الاخرين. فالحيّز المخذول الذي كنت اعول عليه في تخفيف وطأة الحالة؛ كان عليّ ملأه بنفسي، وأن يكون صبري بقوة عدّة اشخاص حتى احمل على عاهلي مكابدة الحياة بصورة طبيعية. كانت صفعة من الدنيا علمتني ان لا أنتظر من الاخرين ليداروا ويداووا ما يغشى بي من اوجاع، أو

ليكونوا لي مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. هي مساحات خفية من الأنين خلقت بداخلي وصُنعت خصيصاً لأعانيها وحدي حصراً ويستعصي على رؤيتها الأغيار. انّي لن اجدّ مدقق بصير يلاحظ انطفائي ويحاول ايقاد نبراسه مجدداً.

طمست بمشقّة كثير من الآثار الظاهرة والدّالة على هذا المرض حتى احافظ قدر الامكان على ألق وجاهتي ولا يَندّ منها لوْثة سلوكية مستغربة قد تُجري سيل من التساؤلات المحرجة التي لن ينقطع تكرارها ولا أجد لها جواباً. ضنّت الأشياء بسماحتها في التعامل ووجهها الدمث، عندما اردت انتحال تصرفات طبيعية كباقي البشر، فكان الاقبال على كثير منها يشدني على بذل جهد مضاعف لم أكن فيما مضى آتيها إلا بيسر! فمثلا تحاشيت ابراز مخاوف نومي لو اختليت معه لوحدي دون مقاسمة سريري مع شخص ثاني، فتجشمت من جراء ذلك ضنك ليالي- قد خلا فيها البيت من سكانه- ترتعد لها اوصالي لبقائي منفرداً، كأنّي أبيت في أطلال قرية مهجورة، مدلهمّة اجوائها، وتُصفر الريح خَواراً مُريعاً في خرائب بيوتها. كنت اتوسل للنوم ان لا يتمطّى في مجيئه، ويؤخر موعده معي، فيترك لهلاوس الخوف ممارسة ساديتها بحقي. أغمض عيني، وازاول طقوس ذهنية مركزّة حتى اطهر طريق النوم من دنس التوجس، وعقلي يشتبك في صراع عتيد لزحزحة الخيالات الشبحية وتفنيدها، ويقدم الحجج البرهانية لعواطفي حتى تنزجر عن الاختلال الهائج. فتارة انجح في ذلك وتارة يكون الخوف بليداً في المجاوبة معه

والخنوع لسلطانه، فيزمجر كالرعد ويغشى على صوت المنطق فيصبح أبكم لا أسمع له همساً. وعندما يغلبني الخوف على امري، وتبدأ عيني تجوب الارجاء بجحوظ، أحملق في النافذة واسمع تكسّر زجاجها ودخول السارقين من خلالها في خيالي! ثم أجيل النظر إلى باب الغرفة واترقب صدور صرير فتح بابها! أغبط النائمين على فقدان وعيهم وتعطل حسّهم مؤقتا عن الشعور بأي شيء، فاشعر بعزلة انفرادي بين الخلائق بهذا الخوف وهم غارقين في سباتهم الوادع غير آبهين بي، فيكون ذلك حطباً تزيد من نيران مأساتي. وذات مرة فُتح الباب، وكان من خلفه جثة عملاقة الهيكل، وشبكة عيونها متقرحة بالدم، لو اطّلع عليه شخص لولى منه فرارا ولأترع منه رعباً، كل ما في داخلي من حركة قد تخشّب وصدأ من رهبة ظهوره، واهمّ بالهرب فاحسبني محتجز ورهن اغلال تشدّني إلى السرير فلا أستطيع، وابحث عن صوتي ليناصرني بالصراخ ولكنه خان حنجرتي كجندي جبان اعطى ظهره لساحة المعركة، يتقدم نحوي وفيه وجه جهنم وهي تتوعد الكافرين بالويل والثبور، وأشهر سكين وطفق يحز بها رقبتي وشلال من الدم الدافئ ينساح على جسدي... واستيقظت من هذا الكابوس وانفاسي تلهث ولا ارى سوى صدى الفزع يطن في العالم، تشوقت إلى رشفة ماء ابلل بها صدري كي ينصاع قليلاً للسكينة، فاطلب من رجلي ان تحملني اليه، فإذا بها تريد من يحملها! جمدت في مكاني وصار الباب قِبلة أنظاري، فأرصد دخول هذا الوحش في أي لحظة وازهاق روحي. ومرت برهة من الوقت على هذا الحال حتى جاء صوت الآذان منقذاً يصدح بطمأنينة تشيع في نفسي، وإيذانا بانبلاج الصباح الذي

سيطارد فلول الليل وذعره، فأتخيل فئام من الناس وهم يهرعون للصلاة فيكون دبيب خطواتهم شارخاً لهذا السكون المعذب ومواسياً لقلبي ومخففاً عنه.

كانت امتحانات البكالوريا للثانوية على الأبواب، وشرعت أحاول الانهماك للتحضير والتجهز لهذا الماراثون الشبابي الذي سيفصل في مستقبلهم ويقضي بحكمه بينهم، غير ان التلكؤ والخمول أسروني ولا أجد مقويات ترفع همتي لها. هذه المرحلة الدراسية التي هي لؤلؤة عقد كل المراحل وسِنامها، والتي تسبب ازمة نفسية قلقة وحالة استنفار قصوى لكل طالب وكأنها الاختبار الفاصل بين الجنة والنار، والتي تكرس لها كافة الجهود المالية والبدنية والذهنية في سبيل لعق اسمى درجة، والتي تصل فيها الجدّية الصارمة في انتهاز الوقت كما لم يحدث من قبلها او بعدها، والتي لا يعرف فيها الطلاب سوى رائحة الكتب وكأن هناك من خدعهم بانهم جهابذة وعباقرة ستكلل جهودهم الدراسية بابتكارات على شاكلة اختراعات نيوتن، والتي تراهم فيها وقد ودّعوا حياة اللهو والتسيّب وتبتّلوا شعثاً غبراً في محراب العلم والمعرفة؛ أقول : كل ما يخص ذلك قد صار عندي شيء فاتراً، لا امراً مفصلياً تاريخياً في حياتي، او مفارقة تهيمن على معالم مستقبلي كبقية الشباب. كنت اصحو والشمس في كبد السماء تصافح اعيني، والصالحين يصلون صلاة الضحى، وزملائي يستيقظون عندما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، أو يسهرون في حرث المناهج الدراسية وإيداعها في ادمغتهم يحدوهم مطلع

البيت الشعري "ومن طلب العُلا سهر الليالي"، ولكن هذا العُلا عندي قد تهاوى لمعان نجمه في سمائي ولمحت شهابه الساقط يستقر في العدم. انام قبل انتصاف الليل ولا أُقدّم عليه مذاكرة امتحان قد يمنحني سرق وقته كلية مرموقة. حقاً قد قامت قيامة عندي تخفض وترفع عندي الأشياء بمقاييس غير مطروقة، وبدا هنالك تقشر واضح في طلاء أفكاري القديمة. كان يستوقفني كثيرا من الشرود الذي يوزع تركيزي في مناحي شتى وانا أتصفح المناهج الدراسية. تهيؤي هزيل، وستُمنى بخيبة واسعة آمال علقت بي. وشطارتي التي أسعفتني طوال السنين السابقة في تبوء مكاناً بين الأوائل؛ قد شحّت بإنعامها وقطعت عادة جودها، في هذا الختام الثانوي للمدرسة التي ما كانت كل الصفوف قبله إلا تمهيد وتتويج له، فقذفت بي إلى المتأخرين من الكسالى.

اذهب للامتحانات، وقُبيْل الدخول ارى غمغمة الطلبة تتصاعد وهم يحثون معلوماتهم على الاستيقاظ والتأهب عند استدعائها. انتحي ركنا قصياً اقلب الأوراق للمراجعة فكانت الصفحات تمضي معي بتثاؤب شديد ومتململ لا يتناسب مع مهارة القراءة السريعة المُجملة للمراجعة. لا أرى بعين الجلالة الاختبارات وما ستفرزه كي اتعرق الكدّ من اجلها، وحتى اثناء الاستعداد لمادة أخرى تالية، كنت انزل ساحات الكرة المستديرة للعب، ومخلفا من ورائي اوراقي المبعثرة والمتضرعة أن أستغل الثواني في اكتناز كل حرف فيها. ضاعت تلك الرهبة الامتحانية وانا ادخل لقاعاتها وعقلي فيها يتساءل بتوتر: هل الأسئلة صعبة أم سهلة؟

وانقرضت تلك اللهفة في مراجعة الإجابات وتقدير درجتها النهائية، أو توبيخ الذاكرة على نسيانها أشياء قبل الامتحان وتذكرها فيما بعده، أو حسرة العقل بعد فوات الاوان لو أنه فعل غير الذي سطّره في الورقة! كنت ارى الطلاب حريصين على الدرجة الواحدة تُضاف إلى معدلهم، واستغرب من برود ارقامي التي لا تميّز بين الثمانين او الستين في نتائج الشهادات.

رأيت جحافل الطلاب لما آن حصاد النتائج وتسربت الاشاعات عن إصدارها؛ تتكدس عند مكاتب النت، يرابطون عندها صباحاً ومساءاً، والوجوه خشعت قُبالتها والغم يأكلها، وكأنهم ينتظرون نطق محكمة بقضيتهم. السماء ازدحمت بدعواتهم الحارّة، وتواصوا بينهم بأحاديث التوفيق والنجاح، ويسهبون بتفصيل الكليات التي يطمحون لها. الهواتف ترنّ كل قليل ويسألون صاحبها عن النبأ العظيم، فتند عبارات شاكية عن تأخر ابلاغها. كلما أعلن اسماً، تتهدج القلوب مترقبة ان يكون أسمها هو التالي. الكل يترجى العتق من هذا الانتظار المتوتر. ملامح مستقبل مغاير ستقدمه شاشة الحاسوب بعد قليل. في وسط حلقة هذا الموج الهائجة اعصابه، كنت أعظمهم صبراً حتى لو تم ارجاء النتائج إلى شهور او دهور! بعد تلك الليلة قد تُكلت في احلامي التي كانت تؤزني ازاً للالتحاق بكلية تجعل مني مؤرخ عظيم لتاريخ الأمم، ولم أكن اعلم أني سأصبح مؤرخاً لسيرة نكبتي الشخصية الحالية! مصيبتي داهمت تلك الاحلام الجسام وفتتها إلى ذرات منزوية عن صدارة مشهد حياتي، فالهم عندي

كان منصرفاً إلى استعادة بيانات نفسي القديمة والتي حذفت بفيروس مجهول اعطبها، ولا يمكن لأحلام الشباب الكلاسيكية العودة إلى عنفوانها إلا بعمل استرجاع لنفسي. اصبحت ذاتي ارض بوار لا يمكن للأحلام ان تستصلح فيها. كان المستقبل عند الشباب إضافة أشياء جديدة إلى حياتهم تثري من قيمتها ورفاهيتها، بينما عندي المستقبل عندي منْصّب على إرجاع أشياء في الماضي هي موجودة بالإصالة عند الاخرين! ماذا افعل بالمعدل العالي ورؤوس الكليات المرموقة مثل الطب والصيدلة إذا خسرت نفسي وإقبالها على الحياة؟ ماذا سيفيدني رفعة الرأس بالمعدل العالي ورأس نفسي قد انحنى في قعر الهاوية؟ وما ادراكم ماهية؟ نار معذّبة حامية. مستعد لدفع ملك سليمان ومال قارون ان كنت أملكهما في سبيل احياء التآلف مع هذا الكون ولا اشعر بوحدتي وخوفي وسط زحامه. جاءني اللوم من كل حدب وصوب على معدلي المتواضع، ولولا حصيلة دراستي ما قبل النكبة، لكان الاقدام على الامتحانات ضرباً من الانتحار العبثي، ولآل معدلي الى رسوب الحتمي، ولما حظيت بمثل ها المعدل. لم يسال أحدهم بلطف لماذا هذا المعدل الخجول؟ الكل ينتظر مني ان آتي بالأشياء على أحسن وجهها، وإذا أخفقت؛ ينهال عليّ العتب فلا يفكر شخص معي في التنقيب عن جذور الفشل ومساعدتي في ازالتها. ينتظرون مني زبدة متلألئة، ولا أحد منهم يقدّر ما يجري عليّ من نزال داخلي عنيف واستنزاف مجهودات كبيرة للوصول إلى معدل ناجح. كان هذا بداية تنذر بان النجاحات المتعلقة بدنيا الناس سينالها تهديم واسع في حياتي، وارجل العدّاء عندي ستتكلس وتمنع من ملامسة شريط الفوز بها!

وبلغة البورصة، فان الذل عندي سيبدأ منحناه في رحلة ترند صاعد لا يعرف تذبذباً او مقاومة تعكس مساره.

الرسالة الثالثة:

سبوحٌ قُدوس شهرزاد. البارحة وافني رفيق قديم في الماسنجر، ودخل معي في دردشة أطال الاسهاب فيها. التململ الذي أصابني من طول قعوده، جعل عندي الالام كأنها تنهل من مشروب الطاقة فتضاعف نشاطها وتركّز ألمها في وعي. ومع ان الجلسة يسوقها تلك الأحاديث التي ابشّ واهشّ لها إلا انها وميضها خبا مع بداية الحوار، وأصبحت كأنها كُتل حجر تتدحرج من أعلى لتستقر في سفح وجهي تلطمه. اتهمّت صاحبي سراً انه خالف التهذيب لما أطال من وقت معاشرته، ولكن بدا لي ان الوقت مناسباً في منظور الناس ولا يستدعي كل هذا الامتعاض مني. أتعلمين أصبح عندي عقلين: العقل القديم الراضع من العقل الجمعي للناس، والعقل المرضي الناشئ الذي مازال يستمد تكوينه وطوب هيكله من ظروفي المرضية. وكلما أوحى إليّ عقلي المرضي بفكرة ما ينبغي عليّ اخذها بنظر الاعتبار؛ قام العقل القديم مصححاً ومستدركاً عليها، وكلٌ منهما ينشب حرابه في احشاء نفسي لأقدّمه عليه، فكأني في بيت يضم ضرتين؛ إن أرضيتُ إحداهما أسخطت الأخرى! ثم بعد ذلك يسألني الناس: أين انت؟ ولا يعلمون انّي افر مما لا طاقة لي به ولهم طاقة عليه.

أقول قولي أعلاه لإقارنه معكِ. كُنت قطعة ملتئمة في أمة البشر وقشطني المرض عنها، وانقطعت احيا في حواشي بادية الحياة المنفردة بعيداً عن مُدنها المكتظة بإنسها، وضوى الاهتمام بأبناء جنسي وركنتهم في دُرج الإهمال وأغلقته لا افتحه للاطلاع عليهم إلا قليلا. وبقي اعتقادي

ان ملفي مع البشر وضع في حقيبة واوصد عليه بالسَحّابة نهائياً، إلى أن كان لقلبي الضحِل ميقات استدعيّ فيه إلى الواجهة والألق مجدداً، كان ذلك عندما تعرّفت عليكِ يا شهرزاد!، فقادني لأول مرة-بعد المرض- لإذكاء التواصل مع إنسان بمحضٍ روحيّ لا ينافسه فيه مأرب دَنيّ. كنتِ استثناء ضربت نفسي الدفوف فرحاً أن آحيا آصرة الاقتران المعنوية التي هلكت واقفرت فلا يرجى معها جِراحة لإصلاحها. خيط علويّ أعاد وصلي بعالم البشر وبرهن امام قلبي على أني قادر أن أحبّ وأكلم أنسان. وجودكِ أيقظ شيء كان قديماً بقلبي وعفا عليه النسيان من طول غيابه حتى كأني ولدتُّ مبتوراً منه. نبأ عظيم نبع من وحي مَعين النُبل البشري آذن بعتق قلبي عن لعنة عقوبة لطالما اعتقد انها امسكتني عن البشر. لمّا اجالسكِ وننخرط في حديث لا اوّل له ولا آخر ويحين وقت الاغلاق والنوم، فإن لهفتي للحديث بين أحضان حجركِ يبقى ماثلاً لا يحدوه تمنّي الزوال، وآية ذلك ان احلامي صارت تستقطع من يومياتها جزءاً لاستئناف الكلام بيننا، وكأنّها شيء خفيّ يأبى ان يجعل من النوم قنطرة انفصال مؤقتة. صار يومي معنوناً باسم رواية "طعام، صلاة، حب" فكنتُ لا اقطع حديث الحُب الشيّق إلا لطعام أعبئ منه البطن بسرعة تخدش صحة المعدة، أو صلاة انقرها نقراً وليسامحني الربّ على ذلك.

استغفر الحب مما قلت في حقه سابقا. تلك المفردة التي كثيراً ما ازدريت أصحابها واستنكار هوس الناس بها، وتوظيف أكثر مساحة فنونهم من الغناء والتمثيل والرسم من اجل أعلاء شأنها، حتى غدت اشياء

كأنّما خُلقت لتنطق باسم عاطفتها، ودفعت ببقية معترك حالات عواطف الانسان الاخرى إلى هامش تسليط الضوء والتعبير. غزارة تداوله بهذا التضخم؛ جعله في نفسي رخيصاً، استنكفت على قلبي ان يدخل حلبة السباق فيه. كُنت اشعر بغرور خلو نفسي منه، واحمد سلامتي على نجاتي من شأنه الصغير، واصعّر خدّ سريرتي كلما التقيت بالوالهين منه وهم يشكون لي أنينه واحنق على التهافت الشبق وراءه. كُنت ارى فيه تسخيف للعقل وارجاء دوره إلى المؤخرة، ويساهم في إضعاف المرء وانضاء الاعتماد على ذاته وتقوية الحاجة للآخر، والجناية على راحة البال واهلاك استقرارها، ولون من الشِرك الخفي مع حُب الربّ واخفات صوت الاخبات إليه. عجل سامري عصرنا الحديث الذي اشرأبت اعناق القلوب إليه وما كان ينبغي لها تشرّبه بهذه النهمة. سلبيات ترعرعت وترسخت من إسناد إلى المنطق المتين، وانسداد قلبي بالمرض النفسي واستفهامه المستمر من قدرة الناس على الحُب! هذه اعتقادات نُسفت واستغفرت مزاولتها وعددتها من جاهلية القلب الأولى؛ بفأس حُبي لكِ، فأقر العقل ودَان بالعشق كشيء لا يُنفى من تضاريس نفسي، وأحد أكبر قاراتِها المؤثرة فيه. لم يكن هو "حبّ العوام" المذبذب، والعادي، والمكرر في نمطه، والذي يدهمه الكدر الأخلاقي، وسرعة التقلب، ورخاوة البقاء، وذبول الانبهار؛ انما شيء انطوى في مثوى "حب الخواص" النابت جذره من تربة أثر معمار انسانيّ عمّر ألفيّات، تخفق عوامل الزمن في اجتثاث وجوده، ويقتات على حساسية عاصفة متطرفة لا تؤمن بوسطية متزنة. وما هو موقف من المواقف معكِ، حتى يؤشر مؤشره على اقصى

درجات الانفعال من غضب او حنان او غيرة...! ولطالما عانيتِ من احداث تعتنق مجرى الفعل الاعتيادي، وعددْتها من هفواتكِ الجسيمة؛ فيمتقع وجهك من جراء اعوجاج ميزان نظرتي، وترغم مشكلة انفها لا ترفع إلا باعتذار من العيار الثقيل، اعاهدكِ فيه على تصويب عاطفتي في اتباع السبيل القويم، فانكث في كل مرّة، وتندلع شرارتها في استياء نزق يمزّق راحة بالكِ إرباً!

لا أعلم لماذا اسير معكِ على اقصى الحافات؟ ولا أعرف علاجاً يصيب ذلك السير بالعوق. كثيرا ما آذيتك بسبب ذلك، حتى تمنيت ان ينقص حبّي لكِ إلى منسوب لا أطيش غضباً لو حادثتي شخص لضرورة ما، او قضيتِ وقتاً طبيعياً مع صديقتكِ وجدت فيه سرقة لوقتي منكِ، او وضعتي صورة مستعارة فيها ابراز لجمال مباح. اكتشفت ان العاطفة تشدوا المبالغة وتعدّها منطق سليم إذا احبّت شخص استثنائي، وايّ فتور في هذه المغالاة هي إمارة على خلل فيها. فكل ما عند الشخص من استثناء يختبّئ في كمون ثم ينبثق مع بزوغ فجر الشخص الاستثنائي في حياتك.

تعلمين ان نومي ثقيلاً ولا يقطعه عائق، ويغبطني عليه أصحاب الاستيقاظ في الصباحات الباكرة، ويهنئون حياتي على هذا الامتياز الباهظ، غير انهم لا يعلمون عندما تتواجدين في ساعات متأخرة في الليل فاني انزع للاستيقاظ باستنفار غير متردد. وكأني مُلزم بحراسة ليلية لا ينبغي تفويتها، فأكافح لذة النعاس بلذة احاديثكِ. ولا يحدث هذا الاستثناء في نومي واقتطع من ساعاته لصالح انسان إلا معكِ. اطلتُ في هذه

الديباجة وما احطت بمواضيعها التي لم يلحق القلم في سباق الجري معها، ولي رجعة اغتراف من مُحيطها فيما بعد..

****

كنت على ميقات جديد واختبار جديّ لقدرتي النفسية في الوفاق والتناغم مع العالم الخارجي الممثل بالحياة الجامعية، وأفكر هل سأفلح بالاندماج واقاوم مخلفات تلك الليلة من الخوف والانعزال عن تجمعات البشر، أم سأعود ادراجي سريعا والاختباء في جحري؟ انشج اوجاع خفية انافح فيها الرغبة الشديدة في هجر الكلية. ما كان صالحا للأغلبية، يعتبر عطب غير مجدي لي. اخطئوا سواء السبيل عندما ظنوا ان مستقبلي يقبع في ذلك المكان التعليمي.

مع قرب أيامي للذهاب، أجد عيون تنضح بالفرحة لي، ولا يعلموا ان مأتم بداخلي يقام على رثاء عزوفي عن الحياة. شخص من اقربائي اكتهل وبلغ من العمر اشدّه يرمقني بابتسامة جانبية، وكأنّ موقفي هذا يذكره بشبابه فيها، فبدأ يغترف منه ويصبها في اذني صباً، قائلا: «كنت في عمرك أجد الجامعة الفاصل الترفيهي الوحيد في حياة الانسان، ولا نظير يوازيها نضارة من بعدها، وفرصة ستبكي عليها ندماً إن لم تُوفّ وقتك فيها حق قدره. ونزهة القلب الأكبر فيها، حين يعلق بامرأة تذكي العواطف التي تتنسم في ربوعها روضة من رياض الجنة، وتقضي مع الاصحاب فيها مواقف سخية بالمسرّات. الكلية هي الاستجمام النفسي

قبل الانطلاق في كدح الحياة». كان يظن بعد الانتهاء من حديثه أنّي سأكون مفعما بالشوق لها إلا إن سريرتي كان تريد منه جُمل مُشجعة تصدّ عني رغبة التشبث بالبيت، وليس استعراض ماضيه الزاهر!

في اليوم الأول، ركبت في السيّارة الناقلة للكلية، وسلمت "سلام عليكم" بصوت لا يكاد يسمع، وأحاول جاهداً وبتصنع نصب نافورة التبسم على وجهي ونثر رذاذها على من حولي، وداخلي يستغيث بي ان لا ارمي بنفسي إلى التهلكة القادمة! اتغلب على تردد خطواتي واركب وافاجئ بالمقاعد موزعة على النساء قاطبة وانتحي بالمقدمة مع السائق. زاد موقفي سوءاً انّي الذكر الوحيد، ولعنت قريبي الذي هيأ لي خط الحافلة الانثوي هذا. اتخذت العين النظر للإمام، بينما خيالي يستعيد امامه اللقطة السابقة المؤنثة بالإناث وهُنّ في أبهى زينتهن. منظر لم اعشه سابقا في حياتي.

عند بداية الانطلاق رأيت في الشارع شخص اعرفه يحدّق لي بخبث ماكر، وينادي باسمي ضاحكا، وصاخباً، وكأنه يظن بي أنى مقبل على قصر ويتهادى من بين يدي ومن خلفي حريم السلطان ويأتمرن بأمري! تأملت في عيناه وكأنها تحسد مقامي الناظر إلى الأجساد الحِسان، وتنقم حظه العاثر في الدراسة الذي دفعه مبكراً للعمل الوضيع، واستفتاح الصباح بوجهه اليابس الكريه والناشف من الملاحة.

كانت السيارة تسير بسرعة 125 كم/ بالساعة، فالكلية تقع في محافظة أخرى ولا بد من اجتياز الطريق بهذه الدرجة من السرعة حتى نِصل مُبكرا، ولإني اعتدت السكون المفرط طيلة الأشهر الماضية؛ كانت تلك السرعة الفائقة تشكل تهوراً فادحا يتجاوز إجراءات السلامة، اختلس النظرات فأبدوا أني الوحيد المشغول بهذا الخطر الذي لا أستطيع ان اجرئ على البوح به للسائق حتى لا اتلقى سخريات ناقدة لهذا الخوف الطفولي. اسمع ازيز السيارة المجاورة وهي تمر بسرعة خاطفة بجانبنا فيشحب قلبي وكأنها مستعدة للاصطدام وتكوير السيارة الى كومة حديد ملبّدة باللحم والدم. لا أدري كم لقّنت نفسي الشهادة خلال ذلك اليوم!

أحاول ان أغض البصر عن الطريق واتشاغل بما يجري في الداخل. النساء الاجنبيات عن محارمي لم يكن لهن وجود إلا في خيالي المراهق. عيني تنظر إلى الطريق ونفسي معلقة بالخلف تتطلع إلى النظر والتدقيق في هذا العالم المستحدث في حياتي. ارتحت قليلا وانا اتشاغل عن الخوف المجهول والمرتقب بالتفكير في جوقة الروائح المنبعثة ورائي. اختلست نظرة سريعة غير مقصودة من مرايا الزجاجة الجانبية، لتقع على شفتين مخضّبتين باللون الأحمر، ومراهقتي كانت ممحاة شطبت بقية ملامح الوجه وركّزت على الفم القرمزي الفاتن! تزمّتت شفتاي عندما اغمضت عيني اغترف من منظرها، ثم بلا وعي خرج طرف لساني يمص شفتي العليا، وانتبهت إلى ان السائق بجانبي فارتبكت والحقت بسرعة الوقار الجامد بفمي. دق إسفين الشهوة بين ساقيّ خفيفاً

فحاولت سرقة نظرة أخرى إلا ان سلطان الخجل قيّد بصري من التلفّت، ثمّ ثنّى عمله بإحلال صمتي طوال الطريق، فلم أكن همّام مبادر إلى اتنازع أطراف الحديث معهن. ليس بِدعاً منه ذلك الثني، إذ ان من يراني منهن، فإن انطباعه سيفرزني مع المعقدّين الذين يلبّدون الجو بغيوم الشتاء الكئيبة، ولا ينشرحوا بحديث منمّق بالعفوية البسيطة.

قُرعت أجراس الخوف مجددا بعد تصفية الشهوة من قبل الخجل. جذوة الغثيان تتقد، وبقايا طعام تعرج الى سقف الحلقوم وتتراجع. العطور نفاذة وتحث على فوضى معدتي وتشيع الاختناق، كأنها تطرح ثنائي أوكسيد الكاربون وتنقضّ على الاوكسجين. لا أدرى هل هذا الغثيان هو أثر من مرضي، أو لأني لست متعود بعدُ على الطريق الطويلة أو تأثير القلق؟ أريد الهواء ان ينبسط في الجو، ولكن اخجل من فتح النافذة على جانبي حتى لا يتسرب الهواء البارد ويتأفف الطلاب. ما زادني ضيقاً ذلك التلوث الضوضائي الصادر من المسجل وهو يبث الأغاني الصاخبة والراقصة التي انتشرت مؤخراً واستولت على الذوق الفني العام. اسمع صوت بنت تضرب بكعبها الأرض متفاعلة مع الاغنية، وثانية تحاكيها بدندنتها القبيحة، وثالثة تهز راسها طفيفا كأنه رأس افعى تتمايل. لا أستطيع تسجيل اعتراضي بتخفيض الصوت او حتى فتح أغاني هادئة مثل فيروز او ما تيّسر من القران الكريم. طالبة قديمة مخضرمة جسورة تحاول ان تحتكّ بي وترسل إشارات كلام تقصدني بها حتى استرسل معها ولتزجية وقتها بالتعرف على هذا الطالب الجديد المجهول بالتدريج، ولكن

أرد بابتسامة عليها ولا أتجاوب. لا تعلم بأني لو تكلمت فلربما اتقيأ بوجهها! أريد التململ والتلوي في مكاني من التقزز الحاصل ويمنعني الإتيكيت واللباقة الاجتماعية. الكل ساطع بأناقته والوجوه تتحرق شوقاً للانصهار المرتقب مع زملائهم واحباءهم ولا أجد نفسي اشبههم في شيء. دائما هذا الثنائية المتفرقة مع البشر تزيد من غربتي ومخاوفي. محاصر بالتقيؤ الذي على وشك ان ينهمر، وبدا ان الطريق كأنه رحلة الى الفضاء. لا أقدر على الاستئذان لوقف السيارة ورمي ما في جوفي، اترفع ان أبدو مشمئزا من اليوم الأول وأثير جلبة تعكّر رخاء بالهم. الحالة تكتظ، حتى كأن العالم حط في معدتي وأريد استنزاله او امرأة حامل تريد ان تضع مولودها! اضع يدي على بطني واتمتم " اللهم رب الناس أذهب البأس آشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً". رأيت أحدهم يخرج دستة من علكة النعناع ويزرع في فمه قطعة منها، وكان طلبي منه واحدة كفيل ان يمثل اسعافاً ناجعاً مؤقتاً لتسكين ركلات معدتي ولكن يقف خجلي حائلا عنه. تعفف متطرف لا يعترف بالتعاون ومدّ اليدّ وما يؤول ذلك الى ويلات ليس بمقدور النفس بمفردها ان تتجاوزه.

اقتربنا من الكلية، وزاد منسوب الأحاديث والضحكات الناقزة والوجوم يكتسي هيئتي. شاغلني عن قلق الدخول للجامعة همّي المنحشر في معدتي المتخلخلة، وامنيتي الكبرى في مغادرة السيارة واستنشاق الهواء الطلق كي تستجم وتهدأ. وصلنا الكلية وصادف نظري بنت، وقد ركع جسمها الذي يميل هيكله للضخامة وهي تريد النزول من السيارة،

فبرزت مؤخرتها بشكل فاضح، وخصوصا ان تنورتها تميل لعصر تلك المنطقة التي قدّر لها ان تكون سيرك تلهو به الشهوات. اشحت بنظري بعجلة، فاتصلت باعين السائق الذي كان ينظر من مرآته المعلقة في سقف السيارة، فأتاحت له رؤية ذات المشهد، فهزّ حواجبه وابتسم لي! فهمت منه هذه الايماءات التي تنم عن فياغرا بصرية قد انتشى بها أو كأنه احتسى قهوة اغرورق معها جسده بالدفء! لا يعلم هذا الشخص ان التقيؤ قد جعل العالم بنظري مرحاض، اريد سكب فيه محتوياتي من سوائل فضلات الطعام بدلا من سفح وتقيؤ سوائلي المنوية لهذا المشهد الايحائي! ولا يعلم أن لو تعرت امامي، لَما وجدتها سوى عجل مسلوخ الجلد معلّق في واجهة محل جزار!

انتبذت مكاناً قصياً أقوم برياضة نفسي وهدهدة معدتي. تقدّمت عند مدخل الجامعة وافواج الطلاب تنسكب عنده. الأصوات تنبثق من كل الجهات ضاحكة مستبشرة وهم يتعانقون بعد فراق العطلة الصيفية، ومن كان جديداً يدخل الباب وقد سرت إليه عدوى السعادة الطافحة، كأنّه تسلّم في يوم الحساب كتابه بيمينه وقادته الملائكة إلى أبواب الجنان. توزعت الغربة واشتدت في حنايا نفسي، ورغبة عارمة في الإقلاع نحو البيت. اتقدم بخطى متّئدة وألتفت خلفي لعل باباً للعودة ينفسح لي إلا انه كان مؤصداً في عَمدٍ مُمَدّدة. كثيرا ما اسمع ذم الانقياد نحو القطيع إلا أني رغبت ان أكون مستنسخ مثلهم وانهي انفرادي الممسوخ بهذا الرعب المديد. سياج نَصب حولي ذوبان نفسي وانحيازها في هذا التيار المائج

بالتفاؤل. كلما تقلصت مسافة الدخول أشعر بأني ألج بيت الاشباح وحالة من الغثيان تغثّ معدتي. كنت جداراً يريد ان ينقض ولا من صديق حميم جنبي يقيم صلبي الآيل للسقوط. التفت، لعلّ طالباً جديداً ينضم معي ويخرجني بحديثه مما انا فيه. أجتاز المعبر الى بنايات الكلية وارى الناس غادين ورائحين في حركة أريحية تطوي الأرض من تحتهم طيّا، فأتمنى لو أنّ عنّدي مثلهم ألفة المكان والاخلاد له، فيكون كالبيت واستأنس افراده كما لو أنهم من ذوي القربى. عثرت على قسمي الدراسيّ بعد بحث مُضني طويل أكثر من الوقت اللازم. عُزلة حارقة منعتني من سؤال ايّ شخص. أعلمني بمكانه شخص نظر الى تردد حيرتي وبادر من نفسه، ولولاه لقضيت ساعات لا أصل اليه. اتخذت موقعاً قصيّاً في قاعة الدرس وانظر إلى افراده وقد ابتدئوا بالتعارف. تنتظر آذاني تحية من أحدهم لينتشلني من زحام العزلة الخانق إلا أنى اشعر بنأيهم عني، بل كل الأشياء تبتعد مني ولا تصافح وجودي "كأنّهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة". المصيبة إذا عمت هانت، فلماذا لا تأتي مخلوقات تُشاكلني هذه الحالة وتأخذني إلى قبيلتها حتى تذاب شحوم مترهلة من الهم عني؟ موقفي هذا نبش في الذاكرة ونبّهها على ذكرى مشابهة حدثت اول دخولي للمدرسة الابتدائية حيث شرعت في البكاء وانا اغرس جبراً وسط عالم غريب فَطمني عن اسرتي، فريثت لحالي وطفقت الدموع تلح للتحرر من المآقي إلا أني رجل ولا يحق لي رفاهية الطفل، أريقها وقت اشاء. ما زاد الوضع سوءاً هو التحاشي الخجول الذي يصدّني عن الاحتكاك والعثور على شخص اتشاغل به عن وجعي الداخلي. اجتث نفسي من مقعدي واتقرب

من حلقات بعض الطلاب، وأسقط قلماً بجانبهم لعلّي الفت الانتباه فلا من مُجيب. اكتشفت ان عزلتي مُتحركة وليس مكاناً انتحي فيه لوحدي.

وبينما يمرّ الوقت، وانتظر بجوع انتهاء هذا اليوم، وإذا بصوت انفجاري يهز اركان البناية ويرتج صداه في كل بقعة. الزجاج يقرر التخلي عن تماسكه ويتشرذم إلى قطع مكسرة على الأرض. أقف ورأسي يدور مرعوباً والانفاس زادت من هرولتها. اسمع الاصوات النسائية تعالت بالصراخ والولولة والنحيب. خرجت لأنظر ماذا يحدث، فإذا الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن وقع العذاب عظيم، والوجوه كأنها وجوه أموات خرجت لتوها من القبر وتظُنّ ان يُفعل بها فاقرة، والحركات عشوائية واجفة لا تهتدي سبيلاً، ولغط الأصوات في ذروته فتمحوا الكلمات بعضها بعضاً فلا تكاد تبين. اتبّع زعيق سيارات الإسعاف، فقادتني إلى مدخل الكلية حيث تجمهر رجال الامن فاستنبطت ان عندها حدث التفجير. كنت صباحا اسميها بوابة الحياة واغبط المارقين من خلالها، والان تكون ساعية بريد للموت فتوصل له من تريد! دخلتها خائفا والموت يتخايل بين عيني، والذين ماتوا دخلوا مطمئنين ويحسبوا ان الحياة ستعمّرهم احقابا طويلة! تذكرت البيت الشعري "فكم من صحيح مات من غير علّة، وكم من سقيمٍ عاش حينا من الدهر".

على الرغم من انفضاض نفسي بالذعر وترقب بارود سيتفجر في ايّ لحظة، كان هناك الى جانبه التماع ارتياح خفي؛ إذ إنّ الخوف بدأ يقاسم الناس وكفّ عن توحدي بي، ويتجسدّ في حركاتهم فأشعر بأنه اليوم

العالمي للتضامن مع مأساتي. اخاطبهم في سرّي أن هذه معاناتي فاحتسوا من كأسها لعلكم تشعرون بي. اعلم ان داخلكم الان أفرغ من فؤاد ام موسى، ويستجير بزمان ما قبل الانفجار ان يعود سريعاً إليكم حتى تضربوا في الأرض باطمئنان...! لو ان هذه اللحظات العصيبة تتجمّد لأجل غير مسمى، فإن فهم ما بداخلي من خوف سيصل لكل فرد منهم لو اسررْت له بها. اتنغّص عندما اعلم انه سيتلاشى بعد أيام لديهم، واتذكر انه سيبقى عندي يتذبذب صعودا وهبوطاً. من بعيد المح جسداً يحمله شخصين وعيناه مفتوحة بجحوظ لا يرمش، أتساءل بهلع هل هو ميت وجثة محمولة ام مصدوم من طامة هذه القارعة؟ أنظر الى بقع الدم المتناثر فلا استعجب من غرام ارض هذه البلد بها، وبنت تجمع كفيّها على وجهها وتبكي، وأخرى تحضن صديقتها ويتواصوا بالمواساة، واخر يتصل يطمئن اهله انه بخير، وجماعة منزوية تعيد تفصيل الحدث مجددا وردود فعلهم عليه. تطلعت لشخص يقف مثلي وحيداً فتبادلنا نظرات مستنجدة. اتلهف إلى بقعة آمنة استعيد بها رباطة جأشي، فإذا الأرض تموج من تحتي وتنشف من كل قطرة سلام. مع أني بحاجة الى زحام الناس ليغذّي طمأنينتي، فإني ابتعدتُ الى مكانٍ ناءٍ حتى لا يُكتشف علائم الفزع على وجهي. فمي صار صحراء ويشتهي زخات ماء واريد شراء علبة منه، ولكن تجمّدت في مكاني من الهياج وعضلات رجلي لا تكاد تحملني.

مازال الاضطراب قائماً حتى أعلن نهاية الدوام مبكراً وقبل أوانه. حاولت الاتصال بالسائق فإذا الهاتف شحنه انتهى. تفاقم الاهتياج وتقدمتني الحيرة، فخرجت للشارع وحُشر الطلاب في هرج ومرج تتقاذفني فيه اللكزة بين الحين والأخر من الزحام الشديد. أبواق السيارات تهدر فتصم الآذان، كلٌ ينادي على صاحبه لينضم إلى ركبه ويرحل. الأصوات تتداخل بشكل لامتناهي كأنها تخلت عن بقية الكوكب وجاءت هنا تتجول. الوضع يزأر بالاحتباس العسير الذي يجعل من كل امرئ شأن يغنيه فلا يلتف لأحد. نشبت مشادة كلامية حادة كادت تصل للضرب لولا التدخل السريع لفض الاشتباك. رائحة العرق تقوم بتشريد العطور الزكية وتملأ فضاء الأجواء. بدأ الدوار يجعل الأشياء من حولي تتماوج، واشعر بهلع طفل تاه عن اهله في زحمة الأسواق. ساقاي بدأت تفقد صلابة الامتداد وركبتي تنثني خفيفا بين الحين والآخر. خائف في بغداد التي تلقّب بدار السلام. عيني تجوس الجهات الأربع لعلي ألمح امرأة ركبت معها اليوم وتدلّني على السائق. وكيف أجدهنّ ولا أحفظ من رسم وجوههن إلا شذرات قليلة ضبابية الملامح؟ الطرق شبه مغلقة والسيارات سيرها بطيء جداً بسبب الانفجار، وهذا المنظر يصيبني بالاختناق ويدنوا بي إلى الإغماء. انظر الى رب السماء متنفس الضعفاء واستغيث ان ينجيني من هذا اليوم العصيب. علامات وجهي المعجونة بانخطاف اللون تجعل من يراني يرق ويشفق قلبه لي. أحاول الثبات حتى اهش عن نفسي قيل وقال الشفقة وكل ما بي يحرضني على الانهيار. ظللت أمشي ذهاباً واياباً على الرصيف المحاذي للكلية حتى وجدت إشارة يد بنت من بعيد تلوح لي

بالمجيئ، فكانت الغيث لصدري، وتنفّس الصعداء من بعد قحط الضيق المضني. ملاك هبط من السماء لتكون لي الهادي المرشد وهي تسوق خطواتي نحو السيارة. اشعر بالامتنان الجزيل ومستعد لبذل ما تريد وكأنها انقذت حياتي من موت مُحتّم. أبلغت حداً من الخواء يجعلني أرى بسائط المعروف على انها هدايا ملكية ثمينة؟، شعرت بالضعة في موقف عُضال كان يجب ان أكون فيه السائس للنساء وينساقن من خلفي بحكم رجولتي لا أن يحدث العكس! ألمْ اقل سابقاً ان منحنى الذل بدأ يتصاعد بوحشية؟

ركبت السيارة وكانت كسفينة نوح المنجية لي من طوفان الحيرة الدامية التي تعصف بي. استرخي قليلاً وانفض تعبي وأتأمل هذا اليوم الذي ليس كمثله يوم، أو ان نكبة تلك الليلة لا تجعل أيامي مثل باقي البشر. ألوم نفسي على هذه المغامرة وقد نبئني الخوف منذ البداية ان من الصعوبة النأي بذاتي إلى أماكن لم أشهدها سابقا، ومازال بنيان نفسي ينكمش ويتهاوى عند أقل اختبار يجابهه. كيف لي ان اخدع واقعي وأتعامل معه بنفس هشّة ظناً مني على انها نفسي القديمة؟ أكنت اظن ان عندي قدرة على التكيف التدريجي ثم ثبت اليوم بطلان ذلك؟ أو كنت اريد اقناع نفسي بدليل ملموس ان ما أصبت به سيتلف كل ما كانت تقوم به نفسي القديمة بسلاسة؟ سُتغلّف الغفلة طلاب كليتي ويرجعوا غدا وكأنّ شيئا لم يكن. اما نفسي قد تجانفت وكشّت من وطأها بعد يوم حافل لا

يبشرني بأيام مستقبلية حافلة بالمسرات، فعزمت على هجرها غير متأسف على بهرجها.

نمر من فوق نهر دجلة والشمس تودع نفسها في حافة أفقه بعد ساعات نهار طويلة قضيناها في اختناق مروري بسبب هذا اليوم الدامي. تذكرت فوات صلاتي فاغتممت، ثم صليت صلاة المشلول وانا مستلقي من التعب كالذي قطع هجير صحراء، فاتلوا في سرّي الفاتحة وقصار الصور واركع واسجد في خيالي! ما بي من الانكسار والعجز جعلني بحاجة ماسة للتواصل مع الله تعالى وتلك سنة الفطرة في ابن ادم عندما يمسه الضر يلوذ بالذي خلقه. أيقظني من شرودي إشارة السائق إلى جانبي فرأيت سيارة رثّة الحال تضم ثلاث زملاء من أيام الثانوية وهم يلوّحون لي باسمين فبادلتهم مجاملاً بالمثل. شتمت التوقيت البائس الذي وضعهم امام وجهي. أحدهم يقول لي بصوت تضعفه الرياح «اموركـ عدلة»، وآخر يردد النظر بين النساء وبيني، ثم يغمز لي! لو علموا ما بي لآثروا ماهم فيه من ضِعة الحال على ما عندي من نفاسة المكان، ولا يعملون أنى مستعد لو أقدر على وهبهم سيارة فارهة ومتخمة بالحسناوات في مقابل شراء نفوسهم الوافرة بالثبات والترابط المتين. لا الومكم والبشر طبعه التيقن من الانطباع الاولي المؤسس على المظاهر.

رأى السائق التجهم والوجوم على وجهي وكأنه أدرك ما نالي من إعياء جراء ما حصل اليوم، فقال مواسياً: «عادية هذه الانفجارات، وصارت عندنا مثل المفرقعات النارية ونستغرب إنْ مرت فترة تخلوا

منها». أقول في نفسي، لن تراني بهذا التضعضع يا صديقي لو كنت كما في الأيام الخالية، فقد عايشت صفير صواريخ أمريكا وهي تسقط ابنية بقربنا، والعبوات الناسفة والسيارات المفخخة وهي تستهدف اسواقنا وطرقاتنا، والسلاح المنفلت للمليشيات الارهابية وهي تشتبك بعيارات نارية عشوائية وراجمات تائهة فيما بينها في ازقة احيائنا؛ وكل ذلك كان يحدث هزّة في روحي إلا إن صداها ما يكاد يمسّها إلا ليعبرها وتعود الى الهمود والاستقرار. كان هناك مصدّات تجتاز بي الى برّ الأمان إذا توحشت الحياة وادخلتني في عنق الزجاجة. ما حدث لي في تلك الليلة كان وقعه اقوى من زمجرة القنابل التي تنخلع لها الافئدة. تسلل بخفة يد الساحر وعلى أطراف قدميه، فأحدث فعله المخرب بدون هسيس، وبىغتة لمح البصر انهرت! من يصدق هذه الحكاية إذا رويتها! وإذا ما قلتها سيقولون اضغاث تفكير او يضموها إلى اساطير القصص الغابرة! تناهى صوت من ورائي في السيارة يقول: «لا تبتئس، راح تعيش وتشوف وتنسى!». ما عندي اراه عذابا غراماً، تجري من تحته حمم الشقاء وخالداً فيه ابداً.

نزلت من السيارة والسائق يقول: «غدا موعدنا»، فأومئت له موافقا: «ان شاء الله». واكملت في سري، هذا فراق بيني وبينكم، واعلم غداً عندما يبلغكم ذلك، سأكون مادة دسمة لحديثكم. أتخيل من الان ان أحداكن ستقول: «قد ولى هارباً عند اول انفجار، مازال طفلاً يحتاج رضاعة»!، وأخرى ستقول: «من المفترض ان الرجل يصمد عند منازلته

النوازل ويصبر، والنساء يخرن على ركبهن من ارتعاش الاعصاب، وما حدث هو العكس. رجال هذا الزمان لا يُعتمد عليهم»! وثالثة ستقول بأسف: «قلبه رقيق، كيف سيعيش هذه الحياة»! استقبلني أخي وهو يرى الاكفهرار يناوش وجهي فقال مازحا: «يبدوا ان امرأة رفضتك»! يا ليت امرأة رفضتني ومثنى وثلاث ورباع وكل ما برأ الرب من النساء وحتى اللواتي يضارعن جمال حور العين، فهذا اهون مِمّا اعانيه الان.

لن اعود! هذه كانت اجابتي القاطعة لما احتواني البيت وسُئلت عن احداث يومي. لوهلة أولى ظنوا ان ذلك ناجم عن الانفجار وآثاره الفجيعة على نفسي الغضّة التي لم تألف فتك مناظره الوحشية، وان إجازة يوم او يومين ستحلحل كمد نفسي ويصبح ما أجده من مخلفات الماضي. إلا أني صررت على اسناني واستبسلت بعناد على رأي، فاستعاضت الوجوه التقطيب بدلا من الدماثة الحانية، فقال قائل لي منهم: «ألف واحد يتمنى لو تهيأت له الظروف ان يكون مكانك وانت تتخلى عنه بسهولة؟ لو أتبع الناس اهوائهم وتركوا شؤون امرهم لطارئ ضنك مرّ بهم؛ إذاً لفسدت حياتهم وتعطلت مصالحهم، فلا تجعل حادث عرضي -عمره أيام معدودات ويزول- يستقوي عليك ويتعمم على مستقبل حياتك»!. عضضت على شفتي من الغيظ، ولأحبس دمعة تحّك عيني وتريد ان تثب. لا أدرى كيف افهمهم إن هذا الانفجار كان عود الثقاب الذي أشعل بارود محتقن يطلب مني التجرد عن الدنيا، فما بي متجهز للتخلي عن أي شيء، وقدحة صغيرة غير مرئية تأزم الوضع عندي وتقلبه رأساً على عقب. لا

أستطيع التغلغل في أي جهة اجنبية اولّيها ولم اعهدها إلا بكدّ يأخذ مني فترات طويلة. لو تكاتفت الإعانة من حولي، فلربما استطعت قليلا إعاقة عوق الاتصال عندي مع تجمعات الناس، ولكن كنت وحيداً فحقّت عليّ الوحدة واحاقت بي من كل جانب.

لم اسوّق للانفجار على انه ذريعة احتجب من خلالها عن الكلية، ولكن راج كسبب وحيد معقول لا يباريه علّة أخرى في ترك الدراسة الجامعية لأجل غير مسمى. لم أُبدِ معارضة له؛ إذ احسست أن الانفجار نهض الى صفي ودبّر لي خروجا مشرفاً من هذا الوضع الذي كنت انتظر منه فرجاً، وبدونه -أي الانفجار- لاستقبلني طغيان جارف من اللوم لا املك من حجج لدثره وجزّه، ولهالني ضغط من الاقاويل الناقدة كنت سأعتبرها جريمة شرف ارتكبتها فأتوارى عن الأنظار من الخزي، ولصار الامر مثلبة تستخدم ضدّي لو اختصمت مع شخص، فرضيت بهذا المسوغ، وإن كان هناك ومضة كره خفية له إذ سيجعلني ركيك وهشّ الشخصية في نظر الناس، ولكن كان اهون الشرّين وكالمستجير من الرمضاء بالنار. كيف أقدر على بيان السبب الحقيقي إذا كان ضبابياً وأنا نفسي لا افهمه؟، لا ينفع ابراز نتف ملتبسة لا تزيد المقابل إلا حيرة، والقناعة لدى الناس لا تأتي إلا عن وضوح. وقد رأيت سابقا كيف استخفّوا وهوّنوا من آثار تلك الليلة فاضطررت إلى الكظم. وحتى لو بُحت بما عندي من معطيات متفرقة، فأما ان يُرفض ويُعدّ من ضلال الهوس وادعاء التمارض المجنون، أو بما ان الطبيعة البشرية تمقت المجهول؛

فان البعض سيضع من عنده أسباب سطحية ساذجة تستصغر دور معاناتي في هذا التأثير الهائل على حياتي، فتجعلني أعض أصابع الندم على مصارحتهم. ليس مرض جسدي فأشير إلى كليتي او كبدي او رئتي فيعرف مكمّن الداء ويُفهم ويُأخذ بوجاهة واعتبار، فهو شيء غير منتمي للجسد وليس من قبِيله. ولو كان منه لهان الخطب عندي وانحنى التعاطف معي، ولانْدرَس صمت المعاناة القاتل، وأصبح لها صوتاً يكشف الغطاء عن هذا البلاء.

دائما ما يُلحق سمعي لفظ "النفس" ولا اشعر باستغرابه لذيوع امره بين البشر، إلا ان ما بعد تلك الليلة قد سكبت في مبنى اللفظ معناه الذي وضع لأجله، فنفذت من القشور إلى اللباب، وبعد نسيان وغفلة نُبّهت إلى تخللها وسريانها في كياني، وأوجدت في عقلي لأول مرة ثنائية الجسد والنفس. درست في الثانوية علم الاحياء وبايلوجية الانسان فعرفته مُسهباً من الفم الى القدم، ولكن لماذا غُمط حق النفس ولم يخصص لها مادة تدرّس فتفصح عن كينونتها واجزائها واحوالها وصورتها وآثارها وما يعتريها من التغيّر؟ عرفت ان للنفس آلاما واسقاماً تصيبها وغير معترف بها على الملأ ومن الجوانب المسكوت عنها في المحيط الذي اعيشه. وأن للجسد مستشفياته التي ترعى عِلله ولا يوجد للنفس مثلها فلا يدري من اعتلّ نفسيا اين يوجه بوصلته ليجد الترياق؟ احسست بان الانسان يمارس العنصرية -بشكل لاواعي- بحق نفسه حتى أصبح من الأعراف غير المدونة، الخشية والخجل من ذكر داء النفس!

اذن كان عليّ ان انتدب نفسي لمهمة البحث عنه وايقاد مصابيح التفتيش عن زواياه المظلمة خلال فترة اجازة السنة الدراسة المؤجلة.

الرسالة الرابعة:

سبوح قدوس شهرزاد. عندما اكتب اليكِ فان سلطة التدقيق اللغوي تمارس استبدادها على نصوصي وتضرب بيد من حديد أي خطأ املائي تسول له نفسه الاندساس بين الكلمات وشق الوضع المتسق لها. امتعض من هذا الرقيب اللغوي الغائم فوق ارض مسودتي؛ لأنه يزاحم اقلاع الهام القلم ويقارعه بمطبات جوية تخلخل سيره، فاكبّد خسارة خواطر تغيب في متاهة النسيان لحظة تنقيح خلل لغوي. مرغم على محطات التوقف اللغوي هذه؛ لان من كبائر الاستفزاز عندكِ جرس الخط الأحمر الذي ينبه عليه برنامج word عند حدوث خطأ املائي، او لدى رؤيتكِ ثلمة نحوية تكسر ما ينبغي فَتحه او تضُم ما ينبغي تنوينه. هوس عاينته معكِ اثناء الدردشة وحرصك على التصحيح لا يفارقكِ حتى في اشد لحظاتكِ صعوبة، وكنت أتلقّى توبيخك في حال فاتك خطأ ولم انبّهك عليه. متلازمة التحذلق اللغوي لم تنفع معها توسلاتي بالكف عن غلوائها وعبثاً كان ثنْيكِ عنها. تقتحمين مواطن خاصة للآخرين وترشدين إلى تقويم خطا قد تجديه في كلامهم ولا تبالين بالحرج الناقم او اتهامك بسخرية نتيجة الاهتمام المبالغ فيه. توقفت محاولاتي لاحتواء تفشي ذلك الوسواس بعد علمي انّك مخلوق لغوي لا يتسامح مع أي بلبلة تهدد ترتيب الكلام، ولربما تقعين في غرام رجل يُحسن السلامة اللغوية في أحاديثه! احيانا كُنت أجد ان هذا الحرص نابع من جزءك النظامي الذي يصاب بالقلق لدى رؤية الأشياء في فوضى وانحرافها عن موضعها لدرجة انّي أطلقت عليك لقب "الحاكم بأمر

النظام" وهي خصلة جرّت عليكِ مشاكل من حيث تنوين إصلاحها! وكالعادة أخفق مسعاي في كبح روبن هود لديكِ المصمم على الاخذ بيد العدالة في كل شيء.

ستجرين مسحاً لغوياً قبل التدقيق في معاني الكلمات والتدبّر فيها فاصفحي عنّي ولا تؤاخذيني عندما تقبضين على سقطة منها، فانا غير ضليع ولا املك مهاراتك الاستاذية فيها، واخصّ بالذكر عادتي اللاشعورية في تأنيث النصوص بحركة الكسرة، فكثيراً ما ألفيت نفسي اخاطب ذكراً ثم ألقم الكسرة في مواضع الفتح فتكتسي الجُملة غطاء انثوياً مثل: كيف حالكِ يا خالد؟، فانتبه لذلك بعد ارسال الرسالة وأصاب بالحرج! هي عادة اكتسبتها من تراكم حديثي معكِ حتى على ما يبدوا أصبح اللغة عندي انثى! كأنّ الكسرة تمرد لغوي احتجاجي على محادثة غيركِ، هذه الكسرة التأنيثية هي عيونكِ اراها حاضرة تشهد كل حديث..

******

أتدبر في أسباب حدوث هذا الداء، لعلي أهتدي الى أصوله التي لاتزال مجهولة الهوية ومُبرقعة عن عيون عقلي. لا أعلم حتى بيانات أولية عنه مثل أسمه، كأنه شيء لقيط دُفع لي على حين غرّة مني. يبسط العقل لي زُبدة ما توصل اليه من احتمالات متعددة، هل هو خوف حيّ شرس مكبوت قد نسيته في الماضي ثم كانت حوادث الليلة المفتاح الذي فتح لها قفل الخروج وانفجار اشلاءها بوجهي؟ ام هو رسوخ الاعتقاد بان الموت

الذي رمى بشباكه على جيراني سيطالني، أن لم يكن اليوم فغداً، فاستمر يلاحقني تأهب انتظاره الفزع لا تنقطع أنفاسه عن الجريان وما هذا الخوف الغامض سوى رشحات منسابة عنه؟ لو غيّرت مكاني في تلك الليلة إلى آخر سالم من منايا القدر فهل كنت سأنجو؟ أم كان حدث مقدراً ان يأتي ولو دخلت حِجر ضبّ هرباً منه؟ ربما كانت نفسيتي قارورة هشّة لم تتكلس بالصلابة المنشودة التي تستحمل مطبات عنيفة فكانت جرعة الموت التي تلقيتها تلك الليلة اقوى من وسعي، فانهار شفا الجرف الذي أقف عليه إلى هاوية ما لها من قرار!

أمام تضعضع عقلي حول هذا الالتباس وفشله في فضّ اشتباكه المعقد، قام بتفويض الامر إلى عالم الغيب من الجن والعين الحارقة وإرجاء السبب إلى المسّ والسحر الخفيّ! اقتفيت أثر كثير من الناس في هذا السبب عندما ينوبهم اضطرابات نفسية ويعجزون امامها فلا يجدوا موئلا إلا ارتياد دكاكين الرقى الشرعية، ولكن لا اذكر ان عندي تميزاً على اقراني حتى تمتقع وجوههم بالحسد ويتفقوا مع عيونهم في توجيه وتسديد ضربة تأتي على قواعد بنياني فيخر سقف بنائي من فوقي فاحطّم خرابا في الأرض! ولا املك عداوة او سلبت شيئاً من أحد حتى يتصل بساحر يرسل لي مردة الشياطين ويتناوبوا على ترهيبي! ولا أدرى ماذا يريد جنيّ مني حتى يتلبس بي ويعذبني؟! أتهكم فأقول هل هو جني عاشق لي؟ أخذت هذا السبب بجدية بالغة، فاتفق ذلك ان صارحني اهلي بان

يعرضوني على شيخ تقيّ يتلوا على رأسي آيات الرقى الشرعية تنفض ما علق بي من تلطخ صدمة ما بعد الانفجار بحسب زعمهم.

ذهبت وجلست بمحاذاته، وامسك برأسي يصدع بشكل آلي الآيات القرآنية، وكنت انتظر بقلق ان يحدث لي ما اعرفه من كواليس هذه الأمور، مثل ان اصرع على الأرض مرتعشا وعيناي تدوران في محجريْهما، او يسرق الجني لساني فيتحدث بلهجة معذبة متوسلة للراقي ان يكف عن التلاوة، او تنساب الرغوة من فمي، او يغمى عليّ...؟! لا شيء حدث من ذلك، وبقيت على سكوني الذي شجع ذبابة في ان تحط على كتفي. بعد الانتهاء نظرت في العيون التي كان تنطق بلسان مبين ان لا شيء بي. معدتي تستفز وتتحفز للتقيؤ عندما يراني الناس بخير وداخلي يعيث به الألم طولا وعرضاً، قلت في نفسي: لعل هذا الشيخ دجال ولا تفلح الآيات في مفعولها لو صدرت من شخص دينه به دَخن وعطب. فقررت الاستماع لكبار القراء في العالم الإسلامي آناء الليل وأطراف النهار فواظبت على ذلك أياماً حتى اوقفتني النتائج المحبطة.

يبدوا ان كل محاولة لتعقبّ منصات انطلاق تلك الحالة تبوء بالخذلان وارجع بخُفيّ حنين، هل كتب لي إخفاء منبعه حتى يعايشني ازماناً متطاولة فلم يأتي ليكون سحابة صيف وتنقشع سريعاً؟ استيئست من كل شيء وخلوت نجياً، أفكر ثم نظرت الى ان عقلي غير مؤهل لمعرفة ما يحيط بي، فوظيفته التحليل بناءا على ما يملك من معطيات المعلومات، فإن شحّ منها يبدأ يشطح في بيداء الحيرة او تشييد نتائج مضللة، وان

كانت متسقة ظاهراً في معمارها المنطقي. إذن خلصت إلى ان حاجتي الوحيدة الملّحة هي معلومات لها صلة وطيدة بما لدي، فلم أجد بُدّاً من الاستعانة بالنت كخبير مرجعي اعوض به فقر معلوماتي، فهو اليوم موسوعة العصر الذي يجد الناس ضالّتهم فيه، فحتى لو لم أجد فيه وصفة العقاقير، فحسبي منه شغفي الظامئ لاستبصار ماهية هذا الداء، وهل هو شيء شقّت الحروف مسلكاً للتعبير عنه؟ ام هو عائم في عماء الجهل لا يدرك له وصفاً؟ وهل سأجد أشقاء في هذه المعاناة لاذوا بالنت مثلي ام لا؟ وهل اتخذوا وضع الباحث المتفرج على المعلومات ام زادوا على ذلك بالفضفضة والمكاشفة مع نظرائهم؟

فتحت المتصفح وأخذتُ نفسا عميقاً، وامام مربع البحث قارعني سؤال حائر: ماهي مفاتيح الكلمات التي تطابق او تقارب نتائجها من معاناتي وأنا الذي جئت لأجل معرفة الكلمات الدالة عليها؟ قمت باستقصاء أبرز الاوجاع فوجدتها تنحصر في عدّة كلمات هي "خوف" و "قلق" و" اكتئاب" و "وسواس" و"غربة"، إلا ان الخوف كان هو المتزعم والسائد على البقية، فبسملت وافتتحت البحث بها، وامام طوفان تفاصيل المعلومات المشرعة مصراعيها في المواقع، استجمعت نبذة موجزة اتضحت من خلاله معالم مُجملة من وجعي والمصطلحات الطبية الدّالة عليها. فالخوف أصل في جبلّة الانسان ولاغناء عنه في درأ المخاطر وتجنب المهالك، ولكن استمراره وافراطه يقحمه في تحت مسمى "الخوف المرضي" والذي يتجلى في سياق امراض عصبية مثل

الفوبيا او الرهاب والقلق المرضي والوسواس القهري، ويبلغ احيانا الذروة على هيئة نوبات هلع تأتي في شكل اعراض فسيولوجية كالتي انتابت جسمي في تلك الليلة تماما. اذن كان الامر تضخيم مضلل لفكرة معينة وخروجها على حجمها الطبيعي الصحي، وتورم تأثيرها، وتسخين دورها في تهديد امن وسلامة الشخص. هناك إيثار لأسوأ الاحتمالات وان كانت مشيّدة على أساس واهٍ من المنطق، واستبعاد الاحتمالات السليمة او المنجية وإن كان مسددّة بدعائم من الآيات العقلية البيّنة. هي أفكار مستبّدة تستعمر وتستعبد الإرادة لا يفلح سلطان العقل في ترويضها وتفسيخ تكوينها.

احيانا اتابع تداعي تلك الأفكار القهرية المقلقة وهي تسطو على ذهني بشراسة، فأقوم بهز رأسي من حنق ضغطها كأني بذلك أراه جذع شجرة فأخضه حتى تتساقط هذه الجراثيم الفكرية وتنفض عنه، أو امسك براسي فاعصره كأني بذلك أقوم بتكريره من هذه السموم الفكرية المهرطقة، أو أرطم راسي بالحائط كأني بذلك أهشمه او أدعس وانال من تلك الفضلات الفكرية. اخال رأسي أحيانا قد انساب فيه أطنان من الحديد فيأطّ وحُقّ له ان يأط من فرط حمله.

سابقاً كنت احصر الحرية في الأشياء المادية الخارجية وان العلاقة بينها طردية، فكلما زاد ما ملكه منها أتسع مجرى حريتي وأيّ منع عنها اعدّه استرقاق. الآن بعقلي فقس منحى جديد من الحرية وهي الحرية الفكرية. فبالأشياء تعرف الاضداد. فلولا التسلّط الواضح للفكرة القهرية؛

ما عرفت ان في العقل جانب كفاحي يسعى للتحرر من الافكار الزائغة او القاهرة الموسوسة التي تُردي حياة المرء جحيماً. ثم الأخطر من ذلك اكتشافي ان هناك أفكار مضللة قد تغرز بالشخص منذ نعومة اظافره ويشب على تشربّها، فان لم تضاد بأفكار داحضة لها تتسلط عليها، فسيبقى العقل مقتنع بها ويذود في حراستها، كأنها حقائق مطلقة لا تقبل النقض.

كان كثيرا ما تراودني فكرة أني مجنون ولكن جنون مقنّع لا تدركه الابصار. لو علم الناس حقاً الصورة المُجلاة من ملحمة الأفكار القلقة في ذهني، فلن يتورعوا في سجني فيما يسمى بـ "المصحة العقلية"، ذلك المكان الذي يضم كل من انفجر إطار الوعي لديهم واجتزئ منهم الفوارق والتمييز بين الأشياء وهاموا في هلامية غائمة، فما خطر لهم شيء يفعلوه بلا تقييد او زجر، هل الحرية المطلقة لا وجود لها إلا في عالم المجانين؟ ما عندي هو جنون جزئي لم يُجهز على العقل بعد، فهل استمرار الامر يؤدي إلى تأزمه واستطالته حتى يكتمل قرص الجنون؟ افزعتني هذه الفكرة، فساح خيالي على ضوء نتف المعلومات المستحدثة، فرأيت وهم يأخذوني من البيت الى المصحة وقد رصّت يدي مع بعض، كأني متهم وضعت الاصفاد في رسغ يديه، ولفت الساق بالساق في وثاق عتيد، وألبسوني ملابس بيضاء كأنها كفن يأوي اليه جثة مومياء. أتصور نفسي هناك أقوم بأفعال بلهاء عشوائية، او أصدر قهقهات عالية على لا شيء، او اتبول على نفسي ولا اشعر بالخزي وأهتم بالرائحة النتنة المنبعث من ساقيّ، أو اصرخ في نوبات فجائية تصرعني، فياتي الطبيب

وقد غرس إبرته بشدّة فافقد الوعي، او ارتهن في كرسي كهربائي فيرتج جسدي...! قفز خيالي بغتة الى قصة رجل من ذوي القربى قد صعق ومات من العمود الكهربائي المبلل بماء المطر. تنهّدت بغمّ من سلسلة الخيالات السينمائية هذه، فأوعزت إلى فرملتها فوراً.

لمّا كنت اعي واحيط بشكل عقلاني قلقي المرضي، وعدم اعتقادي بصواب ما تتناسل منه أفكار وتفاهة شأنها، فهذا يعني اندراج دائي ضمن لائحة فهرس "الامراض النفسية"، وبذلك أكون بريء من قائمة "الامراض العقلية" التي يعتقد مواطنيها بجزم وحسم، حصافة ورشد ما تصدر منهم من أفكار فيها إخلال بالثوابت العقلية والاجتماعية وإضرار بأنفسهم ومن حولهم. إلا ان التجاذب بينهما حاصل؛ اذ قد يتطور المرض النفسي الى المرض العقلي، لذا كان لحدس الخيال مسوغاته في جنوحه نحو احتمالية ان المصحة العقلية قد تكون بيتاً اقضي فيه شطرا من عمري او كلّه.

كان من ضمن ما دهشت وانا اتصفح سفر المعلومات الخاصة بالطب النفسي، هو اكتشاف امتلاكي على اضطراب نفسي قد شقيت به في تعاملي مع نفسي والناس إلا انه لم يخسف حياتي ويدمرها بحجارة من سجيل منضود كما فعل اضطراب تلك الليلة. كان ما كشفت التعبير عنه هو "الخجل المرضي" بعد ان كنت من الجاهلين في وصفه واحتواء تقاسيم تفاصيله. هذا الخجل تكدّس واجتاز حداً فاحشاً قد كبّل عجلة الاندفاع داخلي، وخنق قوى التعبير، وحشر نفسه بصفاقة في دوافع فعل

الأشياء التي لها صلة بالناس ويشرف على ما يقبل او يمنع منه او يقوم بتعديلها.

ديكتاتور في قمع متطلبات ذاتي، وخادم متفنن في إرضاء الناس، ولا يأبه بالدهس على إرادتي في تطييب خاطرهم، وحريص على إتمام ما يخصهم، ويستجير بكل طاقاتي في سبيل تحقيقها بأسرع وقت دون وقت استراحة او تلكأ، ويأجج القلق واللوم العنيف لو نتأ تصرف بسيط لا يليق او زلّة غير مقصودة امامهم.

اقصائيّ قاسٍ لا يتسامح مع الأخطاء وكل شيء عنده بمقدار ويسيح بانتظام دقيق. هو ترجمان بليغ عن وسواس المثالية الذي لا يريد سوى بلوغ الكمال من كل شيء ولا يرضى بثغرات النقص والتقصير فيه او الوقوف في منتصفه. يساورني هاجس اقتراف الخطأ عند الشروع بالعمل ويلمّ التأزم بي، ويصب من فوق رأسي حميم العذاب النفسي، ويتعاظم الضغط الذي يبعثر تركيزي ويجمعه في نفس الوقت.

يلوّح الخطأ بيده عند العواقب، فيجعلني أقلب في الامر بشكل جنوني ومتردد، والافراط في تأني اخذ القرار، وكلما شارفت على الاخذ بالقرار الجازم، نكص على عقبيه إلى دائرة الحيرة، وبدا له ان هناك ما هو أصوب، فينبغي تمديد المهلة لاستنباط الاصح او مشاورة العقل في شأن ما توصل اليه من القرار السديد فلعله يكون خاطئاً!

خجلي المريض يجعلني حريص على الالتزام الصارم بقواعد الناس وافكارهم السائدة لا ينحرف عنها قيد انملة، واي محاولة للوثب فوق اسوارها تصد بقوات مكافحة شغب الابداع. اتوجس خيفة من أيّ ابتكار اطرحه أو اجتياح ما درج عليه محيطي، فيأمر بالاتبّاع وعدم الابتداع. واهاب من سخرية الناس إذا ما انبثقت أفكار جديدة في مخيلتي ورجاء عرضها عليهم، فلا أجسر على بيان ما يشير الى مخالفة رأي ما حولي. فترقب النقد اللاذع منهم يجرح المثالية المفرطة عندي ويصيبها بمقتل.

اتخذ سلوكيات حازمة جامدة لا تميل الى التفتح والتعبير عما يجول داخلي من الرقص، او ابداء النكتة، او الدندنة بأغنية، او القيام بحركات بلهاء عفوية لطيفة ونحو ذلك... وحتى العواطف الحميمية وتبادلها مع الاقرباء قد انطوت في اكمامها، ولربما مثالية الخجل - البارعة في اجترار التحقير لذاتي- تراها ثناء لا استحقه، او دوام تواجدها في ظلام الكتم قد جعلها صفتي اللازمة الطبيعية المقبولة لدى نفسي، والتي يكون استخدام عكسها من الابداء هو شيء خارج عن المألوف، والشيء الغير طبيعي لا مكان له بحسب وجهة نظر الخجل، فيرده إلى قطيع الطبيعي فهو الطريق المستقيم.

ينحو بي نحو الإيثار المتطرف الذي يلغي ما تشتهيه النفس وتلذّه، ويتقمص تضحية يسوع المسيح في صلب رغباتي وإرادتي فداءاً للبشرية،

ولا ينزع للراحة إلا بتغلغل يد الناس على شعره ملاطفة له وابتسامة الرضا عنه تُزف اليه!

اراه اب متوحش ومتسلط لا يكف عن التوبيخ وإدانته الدائبة لما أقوم به، وقد يُسرف فيها لدرجة جعلي اطهر من تصبب عرق الزاني وهو يمارس الرذيلة! لا يعرف درب يرسل له نفسي إلا للدرك الأسفل لقعر المهانة، ويجد في ذلك إثبات للذات وفضيلتها وغاية ما يجب ان تتوحد فيه جهودها، ولا سبيل للترقي إذا وضعت رغباتي نُصب عيني! لا يعطي بحبوحة لرغبات النفس للانطلاق وحقّها كحيّز مستقل في الوجود يريد الانفراد والتشبع، ولا يكافئها ويهفوا عليها بالرفق والتخفيف من وطئته.

لذا تفادي الناس وفوبيا القلق الاجتماعي أصبح سمة تشق كثير من سلوكياتي، وكأني احقر من ان تتشرف ذاتي برؤية الناس، وبما إنّ إرضاء الناس غاية لا تدرك فان حتمية تجنّبهم امر لا بد منه، وحتى لا اتلقى ردوداً سلبية. أحيانا قد اغالي واخترع من لدنّي انطباعات تقييمي السلبي، وأقسم اغلظ الايمان انها تذرع مخيلتهم وتمسكهم اللباقة الاجتماعية عن مواجهتي بها. لذا مُنيت بشخصية مجاملة وظيفتها إسكات المشاعر السلبية وابداء ما يخالفها من التجمّل وانتقاء ما يرضي الاخر، ولا مجال للصراحة او استواء الظاهر مع الباطن بوضوح، وبالمحصلة يصبح لسان الحال: ليت بيني وبين الناس جبل من نار لا ينفذون إليّ ولا أنفذ إليهم.

وكان أكثر ما يتجلى على شكل "رهاب اجتماعي"، فلو خالطت جمهرة من الناس الغريبة حولي واتحدت الاعين لسماعي، فاني اشعر لو تكلّمت ان ذاتي انشطرت لنصفين؛ فأما أحدهما يحكي بتلعثم ويصاب باختناق الكلمات وشحّة تواردها ويستغيث بإمداداتها ان تُجيره من رهاب الموقف واحتواء شروده، واما الآخر ينظر للأول باستغراب واندهاش وكأنه منفصل عنه لا كشيء واحد، ويتبرأ منه لا يعرفه، ويتلفّت باحثاً عن مهرب، ويَغيم بعيداً عنه. هو يجعلني ارتعد اضطراباً امام الناس الغرباء وكأني في حضرة الملوك. اسلك الممرات التي لا تقودني إليهم. وإذا ما سمعت اسمي من أحدهم اشعر أني كالسارق الذي قبض عليهم متلبساً بجرم، ولشدّ ما اتعرق خجلاً لو جاء ضيوف ويقتضي الموقف مبادلة التحية لهم، وكأني أتقدم لحسابي العسير ليوم القيامة! ولربما اظلّ مختبئ في جحري لو لبثوا لإيام، وقد يروا ظلال لمحات خاطفة تتنقل من مكان لآخر ويبتسموا على تلك التحركات الشبحية. أما قضاء حاجاتي الاساسية يتعرقل ويُؤخّر وارزأ تحت لوبيات ضغطها، فيختمر صدري بالسخط عليهم والعن مجيئهم الغير مبارك والذي لا يترصد إلا الحاق الضرر بي، وتأتي شتائمي بمثابة شخص ربت على كتفي مواساة لي! اترصد إجلاءهم المكان وشغوره، حتى اركض ألبي حاجتي قبل عودتهم، وحَذراً من مباغتة ان يستوقفني شخص منهم.

وكأيّن من أشياء كنت اتوق وانا في مطلع صباي لإتيانها؛ فجاء حظر الخجل ليُحيل بيني وبينها. من ذلك الرياضة، كانت تسري مجرى

الدم عندي، وتملك مجامع قلبي والجم الغفير من وقتي، إلا ان مرض بُقع بهاق بيضاء كانت في عراك مع لون جلد ساقي الطبيعي، فأخذت دوائر منه تنتشر ببطيء ولم تبلغ مرحلة الانكشاف المقزز، ومن اركان الرياضة لبس ساقيك الشورت وعدم إسدال سروال لغاية قدميك، حتى لا يكبح سرعة انطلاقها او تتلكأ رشاقتها، فكنت أضنّ على الاعين رؤية ذلك المرض الجلدي في كل نادٍ ومحفل رياضي، فالخجل شرس في تخبئه أيّ نقص -ومن ضمنها العيب الخَلقي- يبرز للعيان، وسدّ أيّ فُرجة تثلم في حائط الكمال، وكنت انتحلّ شتّى التبريرات الواهية لامتناعي عن لبس الشورت حتى لا يشعروا بالتقزز حسب اعتقادي، على ان التخمينات لدى الاخرين سلكت مذاهب عدّة تكاد تجمع على انه تشوّه جلدي استره، والبعض يراه خجل المرأة التي تتكفأ عن كشف إبانة ساقيها! وذات مرة ظهرت بقعة خفيفة بحجم اظفر الابهام على قفاي، فحرضني الخجل على اقتراف عادة هز الكتف للأعلى حتى تثابر ياقة اللباس على تغطية تلك البقعة ولا يراها أحد، والكثير لاحظ ذلك وعلّق عليها بتهكم. ونتيجة لذلك ضاعت آفاق رياضية كنت اشتهي ارتيادها بسبب بخس حقوق الاعتراف بالعيب، واعتبارها مهدورة بحسب حكم قاضي الخجل الذي ارتأى ان لا تعامل إلا بالتنكيل.

وعندما يستدعي موقف اشهار الجلافة في الأسلوب، والمحاماة الخشنة عن ذاتي، والمجاهرة بدويّ صوت عالي او تسريب رائحة سلطاني على الاخر؛ فان الخجل بالتخادم مع الضمير يرشقاني بتأنيب لوم

عنيف على اتخاذي العنف والجفاء سبيلا في المعاملة!، فكنت اراها قسمة ضيزى ان يبرحني الخجل بالعنف المعنوي عقاباً، ويؤاخذني في استعمال قساوتي لو رأيت ما يستجوب القصاص لحقي ونفسي او إمضاء شيء رأيته صائباً! لا يؤمن الخجل إلا بالجُنوح السلميّ والحسنى في كافة المعاملات حتى التي لا تستقيم إلا بالقوة، ويريد ان أكون مخلص للمقولة المسيحية: إذا ضربني أحد على خدّي الأيمن فعليّ تقديم خدي الايسر له! وإعمال السبيل الغاندي الذي يستقبل بصدور عارية الرصاص، وانفي عن نفسي القانون الموسوي الشهير: العين بالعين والسن بالسن والبادي أظلم! أن أكون جمعية خيرية تعطي ولا تأخذ وأنذر نفسي لخدمة البشرية! ولو مضى موقف سفكت فيه العنف والغلاظة-وان كان غير مقصود- فان رشح الحسرة يختلج في جنبات نفسي، وأودّ لو أن الزمن عاد حتى أنقّحه بصورة لبقة وعذبة وأنقّي الجو من دخان العنف، او أسفح دموع الاستغفار والاعتذار لمن نالته حدّتي. وأحيانا عندما أرى مشهد حرج لآخر -وما أكثر تطرفي في مسح المواقف بالحرج حتى لو كانت في نفس الامر خاليه منه- فإني أتقمص بكثافة حالته الوجدانية الخجلة وتزيد عما عنده، حتى لكأن الموقف حدث لي وان كنت نائيا عنه، وابتغي اغماءة تفصلني عنه وتغرب بي عن مخالطة مشاعري.

وعندما يكون هناك موقف لاقتناء شيء ومعي آخرين يلتمسونه، فاني تلقائياً اتراجع في قائمة الطابور، ولا اتناطح معهم بالأكتاف ونيل مقاعد الطليعة. وأحيانا لو كنت متقدماً فأني اتراجع للذي جاء متأخراً. وإذا

كان هناك ماراثون منافسة وفيه تفرد الحيازة على شيء، فاني كثيراً ما اتخلى عنه للآخرين. وإذا خيّرت مع اخرين بين عدّة أشياء، فاني اختار الرديء منها واترك النفيس لهم. وإذا إذا كان هناك تجربة شيء جديد مثير مشوق، فاني اتنازل عن أولوية مزاولته لآخرين مشتركين معي، وكف انانية لهفتي. وإذا وقعت في خسارة مشتركة، فإني لا ألوم الاخرين كثيراً واجعل لنفسي القسط الأكبر منها. وإذا وقعت في خطيئة مناصفة مع آخر فاني اجعل نفسي المسؤول عن بدايتها وجذرها. ولو انفردت بشيء فاني تمتعي يتكدر به، ولا يمتلأ بكامل لذته ولا يستطيب لي، إلا لو شاركت فيه آخرين يبصرونه ويبتغونه. واشعر بلوم التأنيب لو انفردت بمتاع خلّاب ولا يملكه اخر متطلع اليه. وما ملكت شيء إلا وتمنيت لمن يفقده بمثله. وأحيانا لو تفوقت بشيء تمنيت لو اهجره لآخر كان يهفوا بشراهة له شفقة عليه. وهذه المشاعر المشفقة والرقيقة بين جوانحي احسب ان مبعثها من إيثار الخجل الصارم ومن قلة تقدير الذات.

وكثيراً ما تنزع نفسي لأشياء تكون متعلقة او فيها اشتراك مع آخرين فأتعفف عن الاقتراب منها او اتيانها، وادعي الاكتفاء الصوري عنها وداخلي يلهج بها، ومع انها أشياء عادية لا تخرم معايير الكياسة في اعراف الناس، إلا ان الوقار الصارم الذي ينص عليه الخجل يلزمني ان أقف حيث انا، وذلك حسب زعمه حتى لا اضايق الاخرين! ولا يجب المبادرة من تلقاء ذاتي ومحاذاة الشيء الذي اريده إلا ان بعد يكتشفها الأخر بحدسه، وخبره فهمه، فيعطي تأشيرة الدعوة والدخول له. وهذا

ديدن الخجل وسوء ظنه بي، وتكهّنه بأحداثي المشاعر المنزعجة في اطواء الاخرين، فيقدم التريث والانتظار على التقدم، وذلك حتى يدلل أحاسيسهم ودرأ تكديرها! وكلها أفعال تنقض غزل ارادتي -مرة تلو أخرى- من بعد قوة انكاثا، وتفوت او تُبطئ الدنو من أشياء ارغبها، فألعن معطف ضعف الخجل الذي لا أستطيع خلعه.

ما كنت اعلم انها تصرفات تُمعن في إذلالي علناً وتنحو باتجاه تصفية شخصيتي وخلق كيان متداعي قد أحالني من "انسان مدني بالطبع" -كما قال الفلاسفة- الى انسان متوحد بالطبع، ولم أجد من استرشد به حتى يزجر هذه التصرفات من تأصيل نفسها بي، وكان الفرق بين السلوك الطبيعي والغير الطبيعي لم يكن متمايز بحدّة او اعلم تبعات تركِتها الثقيلة، كي أحجم عنها. وعادة الاهل عندنا تجهيز الطفل بشهادة توظيف تؤمّن له مستقبله وإدراجه في مؤسسات التعليم لنيلها وايّ تعثر بسيط تنهال عليه عبارات التوبيخ تغرس بداخله تأنيب ضمير وخوف منهم لو تخلّف درجة او درجتين عن العلامة الكاملة في الامتحان! وأما التنشئة النفسية تحظى منهم بإغفال كبير ويكتفون منها بالحد الأدنى -وأحيانا حتى التراخي معه- دون زرع اقتناص المراتب التي تخلع عليهم الحياة الصحية النفسية السليمة، فيشبّ الطفل وهو يعاني من تشوهات وعقد نفسية تجر الشقاء عليه وعليهم. فوقعتُ ضحية انتكاس الركن النفسي وتقدمي في السن والوعي لم يفلح من تطويق الافرازات المتولدة منها، وكل ما افعله هو تقليل الخسائر النفسية، وأما تصفير اسبابها أصبح من

المستحيلات، وانتفاضة ذروة الخجل هذه قد انخفض منسوبها بتقدم العمر إلا انه هبوطها لم يحل هذه الازمة المزمنة نهائيا، وخصوصا أن تأهيلها أعيد بشكل كبير بعد استيطان الامراض عندي.

لم يكن الخجل شراً مطلق عندي. فهناك عوائد منه لامعة تضم إلى فرقة النزاهة الأخلاقية وتعلي من شأنها. فكان ينهى الجسارة من سياقة لساني على انتهاج بذاءة الالفاظ الفاحشة والقبيحة وإن كان مزاحاً، او أن أقتفي ألسنة محيط رفقاء الشارع التي كانت تعج وتتفوه باستساغة غير متحرجة تلك الدناءات الكلامية. وكان يعق لجام هوى الجنس ان يكون مغوار في ترصد او تعقب البنات وإطلاق سراح بصري عليهن، على الرغم من ان خيالي المراهق كان مسرحاً ينتج الأفلام الإباحية ويصبوا إلى استنساخه في الواقع. وأعفاني ان اكون من طينة المشاغبين العدوانيين الذين لا يمر يوم إلا واشتبكوا في صراع عنيف مع آخر، فتاريخي كان خاليا من الشِجار إلا واحدة او اثنتين كانتا طفيفة التأثير. ومنعني من التقدم والالتحاق بحزب المتمردين الذين يرهقون أهلهم بغوغائية تصرفاتهم فصرت آية في الانضباط. وعلى اتخاذ السماحة نبراساً كلما عنّ لي موقف يتطلب التنازل او كفكفة شر يلوح في الأفق. وعلى تجنب رفقاء السوء واعتمادهم إخلاء قد تنتقل عدوى سفالتهم لي ووضع مسافة معهم. وتلافي اجتراء الموبقات الرعناء كشرب الخمر او السيجارة او الحبوب المخدرة. وانتحاء هيئة الجدّية الوقورة التي لا تصخب او تلج الهرج او تلغط بالهذر الكلامي المتدني. ومصادقة

الاحترام والتقدير واللطف للكبير والصغير من قريب او غريب. ولا ازعم ان كل هذه المحاسن الأخلاقية منبتها الحياء إلا ان الحصة الأكبر لها والكادح الأعظم على بعثها، والحياء لا يأتي إلا بخير ويتموضع في سنام شعاب الايمان كما ورد في الآثار الدينية. وصفوة القول ان الخجل لم يجعل سجلي باذخاً بالمخالفات الأخلاقية، وكان ذلك من الأشياء القلائل التي افخر واعتدّ بها ومعادل قلويّ لسطوة آفات الخجل. ولكن هذه الخصلة تتجه إلى التفريط وهو الخجل المرضي الذي استحدث بي.

ربما جذر خجلي هو تورم ضميري لديّ وزيادة ادوار نفوذه، واحتلاله وتدخله الجائر لقطاعات النفس الأخرى المتعلقة بمبادرات النزوع الاستقلالي والرغبات الحرة والإقدام الجموح وشق لوني الخاص، او ربما كثرة اعتكافي في معقل الاعتزال وشحة ملاقاتي للناس جعل الحياء يتطور او يتفرع منه الخجل، وربما تزمّتي الشديد بالحياء أدى إلى بروز التوغل التفتيشي عن كل عيب او مثلبة وعدم قبولها في لائحة النفس، وربما خصلة الحياء كانت فائضة عندي بالوراثة فلم اراقب نفسي واتحصن بالوعي لدرأ خطر انسلاخها إلى خجل.

الرسالة الخامسة:

سُبّوح قدوس شهرزاد. كنت استعرض مخلّفات الآثار التي اقتنصتها منكِ من صُور ومقولات واقتباسات ونقاشات. اسمّيها اقتناص لإنّي اخطفها منكِ خطفاً. فامرأة مثلكِ مع كل خطوة تخطوها؛ ترفع شعار "اسعى كي ينساني الجميع". تمسكين بمنجل الحذف دوماً وتحصدين نتاج ما خلفتهُ معكِ من كلام بكبسة زر!، ثم فوراً تعيدي دورة الكلام على الصفحة البيضاء للدردشة بـ «مرحباً، هل تكلمنا بشيء قبل الآن»؟ مع قهقهة ضحكة! اتنرفز واضرب كفاً بكف من هذا التصرف حتى ألفتهُ وارتضيته. لا أقول إنكِ تطبّقين عليّ قولكِ " شبر لا اثق بالبشر" خصوصا بعد علمي انكِ لا تتركين الأشياء تلعب بذيلها لو نبذتها وراءكِ ونفضتِ يدكِ منها، وانما تزاولين الحذف لتبقى الأشياء سلمية ولا يتحرش الماضي بكِ مستقبلاً. فالحذف لديكِ خير وسيلة لدرأ المخاطر وعقلكِ منظّم وحريص وحذر ويتعشّى بالأشياء قبل ان تتغذى به. وكذا لا تفسحي لذاكرة الحنين بالتكدس حتى لا تتوسع بممارسة سُلطانها عليكِ وانتِ المصابة بداء النستولوجيا. ضاعت أجزاء عملاقة من توثيق تراثي معكِ فلم احفظ من سجلاتها إلا لماماً، وحرصت ان لا اسلب توثيقات دون علمكِ احتراماً لرغبتكِ وكل ما دوّنته عندي تحت عينكِ وبموافقتكِ.

ارجوا ان تُعيدي النظر بما فعلته من تمزيق نتف من مذاكراتكِ، ولا تناكفني بقولكِ ان دائرة الضوء مُهلكة لي، وقد اردتني محطّمة اثناء شهرتي فأصبحت نجاتي وراحتي بالعتمة. اعلم هذا القول كان نواة

شعارك الخاص بالنسيان والتأسيس لعزلتكِ والهرب من تعب البشر الذي اضناكِ، فتاريخ حياتكِ حافل بتجارب ثرية دينية وثقافية وعاطفية واجتماعية ساخنة وخطرة تبز على قوالب حياة البشر العادية. ومع انكِ في باكورة حياتكِ وتبلغين عُمراً عشريني، إلا انه أفرغ فيه عمر كامل لثراء وتنوّع تفاصيله، فلمّا اصغي الى قصصكِ اشعر كأني حفيد امام جدّة في خريف عمرها، وما بقي لها في الحياة سوى ضرع ماضي مكتنز يدّر احداثاً غزيرة تستطيعين ان تؤلّفي منها حبكة مُحكمة مشوّقة بقلمك الاديب الأريب وضمّها بين دفتيّ كتاب.

دخلتُ في حياتكِ عندما أفل جانبكِ الادبيّ واعرضتِ عنه صفحاً لأجل غير معلوم، ولأسباب مرضية افقدتكِ القدرة على استنشاق الثقافة. لم أحظ برحابة ماضي ايامكِ المزدهرة بالقراءة وكتابة النصوص التي انتشرت في آفاق مواقع التواصل الاجتماعيّ، اتحسر كرباً عندما تسردين تلك الفترة الزاهية ولم اواكبها واتفاعل معها. كانت الثقافة معكِ تاريخية في قصّ نتاجك الادبي القديم وسياقات نشره، وردود الأفعال اتجاهه من اعجاب او تقليل شأن او سرقة حقوقه الفكرية ونحو ذلك... أقرضني ذلك شوق عظيم إلى تنسّم مُدارسة ومذاكرة الكُتب واصداراتها معكِ، او كتابة قطع أدبية ومراجعتها بالتنقيح والتعديل، او متابعة خواطر ومقالات الكتّاب المشهورين والتعقيب عليها، وكُنت اعوّل على هذا على النقطة ان تكون مُتعة مشتركة ولا ارجع منها خالي الوفاض، فقليلة جداً المرات التي تبادلتُ فيها معكِ سجالات ثقافية تضاجع فيها عقليْنا بحبور.

أقول هذا لإنّ اشعر بحرمان هائل من جانبكِ المعرفي واتوق منكِ الى استئناف لهفتكِ نحوه، وتعويضي عنه بالشروع في كتابة مذكراتكِ، فاستحقاقها ونصيبها ان تبلغ ضفّة المكتبات لا ان تلقّيها إلى عمود النسيان. ولربما مراسلاتي معكِ بقطع من رسائل حياتي تحفزّك على التأسي بها. عندي مخطوطة في ذاكرتي تحوي مُجمل حياتكِ إلا انّي آليت الحفاظ على الإيفاء بعهدي بالكتم عنها والنهي عن تحريرها كتابياً، فما اكتبه عنكِ هنا هو ظلال انعكاس تأثيركِ في نفسي.

******

أينع التفاؤل في نفسي بعد توافد تلك المعلومات التي كسحت حيرتي، وزودت مخي ببطاقة دونت فيها مقدمة بيانات عامة عن اضطراباتي النفسية. خلت أنى سأتقدم، وأن ايّ اسلاك شائكة من المجهول، ستتحول الى خيوط حريرية من المعلوم اجتازها بسهولة، ولكن ما احبطني واعادني الى نقطة الصفر او المربع الأول؛ هو إنه لمّا علمت ان القلق المرضي استجابة لمثير ينبّهه ويبعثه من سباته؛ فمثلا رهاب الارتفاعات يضطرم بداخل الشخص لو أشرف على قمم عالية ويؤوب الى رباطة جأشه لو نزل عنها!، فما هو الشيء الذي هيّج كمون قلق شخصيتي ونشره من اجداثه؟ ما هو المثير الذي كبس بأصبعه على زر الخوف لديّ فلم يبرحه حتى الان؟ صحيح أنى علمت ان هناك أسباب مجملة لذلك، مثل خلل في النواقل العصبية في الدماغ، او نتيجة جذور في الماضي السحيق وما رافقها من ظروف التنشئة، او مواقف معينة

ارتاعت لها النفس، او عالم السحر والمس، ولكن كانت مفاتيح عامة موجزة تمّهد لك نقطة الدخول حصراً، ثم ما بعدها سرّي غير معروف لا يفضّه إلا خبير نفسي يكون ربّان يتولى ملاحة اكتشاف مضائق الوصول إلى المنبّه الخفي لمخاوفي المختزنة في العقل الباطن، واستنطاقها بطرق التحليل النفسي، ومواجهتها وتفكيك تركيبها في جلسات عدّة وبمعونة هامة للعقاقير الطبية المهدئة. ومنهم من يهمل رحلة الغوص في الجذور المرضية، ويركز على الاعراض المرضية وتعديل افكارها او سلوكها، وترحيله الى الجانب السليم المنطقي وبتقنيات عدّة فيما يعرف بالعلاج المعرفي السلوكي، وكذلك بدعم الادوية الكيماوية.

شعرت ان غمام الظلام تكثف في مساري، فما تسمى بالعيادات النفسية للأطباء النفسيين غير متوفرة في المحيط الذي اقطن به. ومثل هذه المؤسسات الطبية تعتبر ترف ورفاهية وليست ضمن أولويات حاجات المجتمع حتى تكون لها المراكز المخصصة الموزعة التي يمكن غشيانها بسلاسة، فبنظرهم المعاناة النفسية شيء ثانوي ولا تلحق ضرراً إلا بسيطا وعابراً وما يضخم من امره إلا أصحاب الميوعة النفسية، وكلمة "الطبية" هذه تختزل حصراً في عيادات ومستشفيات الأجساد، واليها تسخر كل الإمكانيات لزيادتها وتطويرها، فالبدن عندهم عماد وقوام سعادة الشخص والنفس تابعة له وراحتها من راحته، فلذا له القدح المعلى في العناية والاهتمام. ومن يجعل رزقه وتجارته في عيادات نفسية أهلية يتكسب منها، فان البوار سيصيبها ويقعد ملوما محسوراً؛ لان فضيحة الاختلال

العقلي ستحوم حول كل من يرتادها، والانسان حريص على ابراز سمعته العقلية الراجحة حتى لو أدى إلى كظم المعاناة النفسية التي قد تطيح برشده في نظر الناس.

هذه حقيقة يؤكدها الجميع -وانا علمت بعد سنين- ان مصطلح "المريض النفسي" يوظف للانتقام من عقل الشخص، واطفاء غليل الغضب إذا خرجت محاورة او جدال عن السيطرة! ويستعمل لهجاء الشخص الذي تنتج منه تصرفات مخبولة غير متزنة! ويستخدم في قدح الشخص الذي تخرج منه اخلاقيات مشينة!، حتى الناقل اللغوي الذي من المفترض ان يقوم بإيفاد معاناته بأمانة وحيادية إلى عقول الاخرين ورفع ما استبهم واستعجم فيها؛ قد فشل كوسيط في هذه المهمة لتبقى مستترة في رحم الخفاء لا ترحم، ويُفقد المؤازرة والتكافل الخارجي مع صاحبها، فانقلبت حمولة اللفظ بالضد عليه، وأضحى يشير الى العته العقلي فيخجل ان يقول عن نفسه انه "مريض نفسي"، ويسخط ويعترض ان ينادى به وكأنه شتم فاحش اتجاهه لا يليق به. وحتى حملات التوعية لم تفلح في تنقية وعاء اللفظ من تسيّد هذه المعاني التي لا تمت له بصلة واسترداد اصالته. أحيانا يستحسن لي ان يبقى الداء النفسي بلا عبارة، على استخدام هذا اللفظ الممسوخ الذي يبدد هويته، او يستجدّ له لفظ جديد جامع مانع لا تشاركه فحوى غيره. فالشيء يعتبر مهدور الوجود إن لم تحتضنه لغة دالة عليه. وسيبقى المريض النفسي يناضل في دفع تهمة لوثة الجنون عنه، مع انه قد شاع ان العظماء والاذكياء وعباقرة الفكر لهم علاقة متينة

به. وسيبقى يثابر في فصل المرض النفسي عن الأفعال اللاأخلاقية، مع انه ان قد ذاع ان الحساسية المفرطة للطيبة وصفاء السريرة والتضحية الذاتية من السمات اللازبة بالمريض النفسي.

بعد هذا السفر المفتش في المعلومات النظرية وجدت انها لا تفي بالغرض، لتأطرها في قالب أكاديمي تدريسي. كنت بحاجة إلى اثراء تجارب حيّة يدبّ فيها المرض النفسي ويتنفس، ان اصغي إلى سرد شخص وهو يقص القصص عن رحلة تجربته من الالف الى الياء. من صالح حظي أنى عاصرت بزوغ مواقع التواصل الاجتماعي والتي تمنح مساحات من الحرية الآمنة لا يستطيع الواقع توفيرها؛ لمعاييره المراقبة الحادّة في إسكاتها، وكأن المرض النفسي من الأشياء المغضوب عليها والمحرم تداولها! فما اضيق الواقع لولا فسحة التواصل الالكترونية.

هذه المرة كنت ميسور الحال في امتلاك المفاتيح التي تؤمّن وتذلل البحث عن مجموعة فيسبوكية تؤلّف في حناياها وطن يستأصل غربة الألم النفسي لرفقائه وهم في محيطهم المتنكر له. استجاب البحث فوراً لعُدّة الكلمات التي أثثتها فيه، ورسيت على تجمع يضم عشرات الالاف بعنوان " فضفضة الامراض النفسية وعلاجها"، كان العدد هائلاً وظني ان العدد اقل من ذلك بكثير! ولكن علمت- فيما بعد- ان الأغلبية منهم لا آصرة تجمعهم بالأمراض النفسية، ودخولهم كان لطارئ من تعب نفسي ألمّ بهم، فحسبوه سقم نفسي يحتاج الى دواء قد يجدوه فيها. فالجهل كان مستطير في خلط الحدود الفاصلة بين التعب النفسي العرضي الذي يمر به

كل انسيّ، والمعاناة النفسية المرضية المزمنة. بدأت باستعراض المنشورات هوينا، وانا مبسوط لاكتشافي قبيلة ينحدر عرق افرادها من سلاسة المرض النفسي، فالمريض للمريض عافية ودفئ لا يجدها عند الاصحاء.

قضيت شهوراً طويلة اكتنزت من خلالها حصيلة جمّة من خبرات الاخرين انعكست بعمق في تمشيط وسبر وجعي ودقائقه التي يدق عن فهمها أطباء لو حاولوا استبصار حالتي. وكأيّن من كلام لما قرأته، قُلت هذا الشيء بالفعل موجود عندي! كنت غير مصدق بوجود قناة أستطيع ان اصرّف من خلالها مأساتي جهاراً بلا وجل، واكاشف بها الاخرين من امثالي. كثير من الأشخاص الذين عاشرتهم قد اشادوا بان أكبر نعمة حضوا بها، هي نعمة التلاقي مع آخرين يفهموا عنهم دخيلة مرضهم. وما عظمت تلك النعمة في نظرهم، إلا لكثرة ما قاسوه من انكار واحباط فهِم بيئتهم لهم. هنا حيث وجدوا ما يسدّ نقصهم من التكافل والتضامن والترويح المتبادل بالفضفضة المواسية لبعضهم البعض، فكان المأوى والاسرة التي يكتنفونها كلما اشتدّ عليهم الانهاك.

هذا الشعور الرائع بوجود حالات مشاكلة لما عندي، يقابله جانب دامس متخم بالاكتئاب. فاغلب ما يقع تحت بصري هي شكاوى غير متناهية عن كل نأمة متعبة تجري لديهم، والانغماس في التأشير على آثار مرضهم، فكانت طبقة الجو تجيش بغمامة فاحمة تضاعف من سلبية الوضع. بالكاد تندّ فرحة بيضاء تخرج من كومة الخراب النفسي المنتشر.

وكان الكثير ممن يلمس في نفسه تحسّن، يخرج من المجموعة بصمت، فلا يؤذّن في الناس امر ابتهاج مزاجه، او يروي حكاية هجران الامه، كي ينفخ روح الامل في افئدة المكلومين او يساعد من فيض تجربته العلاجية! وإذا ما انتكس تارة أخرى، تجدّه يغرق الناس بتغريداته المستنجدة بهم. ولا أدري إن كانت هذه انانية أخلاقية في هذا التعامل الانتقائي الذي ينسى اخوانه في السراء، ويطلب تفقدهم له في الضراءّ؟ أحيانا اهب لهم العذر، فلربما يُهدّ تماثلهم للشفاء لو بقوا يسيحون في سيل الحالات المستحدثة، فيرسب تأثيرها سوءاً على نقاهة وضعهم الذي خرج لتوه من أسر البأساء. قلائل معدودين ممن تطوّعوا خيراً، فواظبوا ان يكونوا نجوما يراها المرضى علامات يهتدون بها في ظلمات الحاجة لمن يرشدهم او يخفف لوعتهم، وان أدت مخالطتهم تلك في نخر عافيتهم الهشّة.

كان من أقذع الأشياء التي رايتها هو الوقوع في غّي تفسير الحالات المرضية او علاجها والتي تحتاج افتاء متخصص، فيرزأ المستفسر عن امره في تيه أكثر، او يقتبس فعل يضره ويحسب انه يحسن صُنعا. صحيح ان كثرة تبادل التجارب بين الأعضاء قد أفادتهم في اتساع علمهم واغنتهم في تنوير أنفسهم، فكانوا أطباء لها او حتى غيرهم، وسعيهم كان مشكورا في تدعيم حالات جمّة، إلا ان تجربتهم لم تكُن تؤهلهم ليتقصموا مهنة الطبيب النفسي. الكثير من العلوم الطبية النفسية كانت عازبة عن ادمغتهم ولا يفسح نيلها إلا من سبيل جامعي رسمي،

فوقع الكثير منهم في وهم قدرة الاكتفاء المعرفي بهذا المجال المتشعب الأطراف، فضلّوا وأضلّوا كثيرا عن استقامة توضيح الحالة النفسية وعلاجها. وداء التعالم هذا مما رسخ بين الناس ولا يزجرهم عنه رادع وهم قد لقنّوا الحكمة التراثية "رحم الله امرئ عرف قدر نفسه"، فلم تكن اجابتهم على قدر علمهم. وانا كنت قد ترأست زمام قيادة المجموعة سريعاً، فكنت انبّهم على الدقّة الوافية والمحيطة بالآية الكريمة " ولا تقْفُ ما ليس لك به علم إنّ السمعَ والبصرَ والفؤادَ كُلّ أولئكَ كان عنهُ مسئولا"، التي تنهى عن القول بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير حتى لا يقع في طائلة الآثمين المؤاخذين.

ولكن الوقوع في هذه الزلات شر لا بدّ منه، فهذا التجمع الافتراضي كان منبته اجتهاد شخصي من عدّة افراد يتعاونون على قدر وسعهم، وليس مصحة حكومية منظمة يقوم عليها إشراف طبي بأجر مالي؛ لذا كان من أبرز المشاكل هو الافتقاد المتعطش للأخصائي او الطبيب النفسي. فلو حاولنا الاتيان بهم ليساندوا المرضى، تعللوا بان المكان الالكتروني لا يصلح للتقصّي والمتابعة العلاجية، فلا وجود لعيادة تدعم وتشفي إلا على ارض الواقع. وقولهم كان فيه مبالغة وتجنّي يتنافى مع ثورة الاتصال التي وسعت من امكانيات التواصل لفئات الاعمال العديدة ومنها الطب، ولكن تحت غشاء مبررهم هذا نية مضمرة لا تقدم مساعدة إلا بمثوبة مالية، فرهط منهم كان يطلب مئات الدولارات المقبوضة نظيرا لتقديم عدّة خدمات جلسات علاجية! فكان هذا البخل

موضع تنديد بقساوة الدكاترة الذين لا همّ لهم إلا استلاب أموال المرضى بكشفيات غالية الثمن، والحال ان هذه المهنّة هي إنسانية بالدرجة الأولى وتتطلب تواضع في الأجور المطلوبة، او التنازل طوعاً في تقديم خدمات مجانية للغير قادرين. وكنت أرى دفاع شديد من المعالجين النفسيين عن انفسهم ضد هذه الهجمة الشرسة، وان ما يطلبوه من مال بذخ يتناسب مع جهدهم الجهيد، وما طلبات المرضى إلا مثالية واقتصاص لحقوقهم جائر بغير حق، علاوة على انهم نذروا أنفسهم للعمل الطبي لوقت محدد من ساعات اليوم، ويقاسموا بقية وقتهم في مشاغل حياتهم الأخرى، فلا يريدوا ان يرجعوا من عملهم الاصلي واستئنافه على النت؛ فذلك امر مضجر تنبوا عنه النفس البشرية التي تبتغي الترويح في التنويع، وخصوصا انهم عملهم يعرضهم لحالات أليمة تجعل من نفوسهم تنشد الراحة بعيدا عن ضوضاء الشكاوي النفسية. ليسوا سواء، كان هناك زمرة تسعف وتساعد على أغراض شتى، فمنهم من كان يقتصر بأرسال معلومات باهتة مطولة نظرية لا يملك العضو النفس الطويل على قراءتها او يرى فيها ثقافة عالية لم يدرب عقله على فك مغاليقها واستيعابها، لذا كان يريدون من يتابع حالتهم شخصيا اول بأول ويطلعهم على آخر تطوراتهم، وهذا أحد الأسباب الذي كان يمنع المعالج النفسي من تقديم خدماته، لأن الأشخاص المصابين كثيرين وسيرهق فوق طاقته لو تابعهم. ومنهم من كان يعمل لوجه الله لا يريد جزاءا او شكوراً فلا يتجاوزون أصابع اليد. ومنهم كان ينشر نبذة تعريفية عنه وألقابه الرنانة، او يعطي نصائح توجيهية موجزة ويتخذها دعاية لنفسه، فيراسلوه الناس على

صندوق رسائله الخاص طمعاً بدعمه، فيكون جوابه الموّحد ان لا استقبال إلا في عيادته ويرفق لهم عنوانها. وأخطر الأصناف من كان يستغل الهشاشة النفسية للنساء وحاجة المريض منهم إلى الاحتواء، فيطلبوا منهن تسليم ناصيتهن لهم بذريعة العلاج واستدراجهن إلى أشياء مخلّة. ودور الطبيب النفساني كان مرتعا خصبا-بالإضافة الى كسب المال- لان ينتحل البعض دور المعالج وما هم بشيء، ويقصدوا إلى استنساخ المواضيع الطبية من النت امام المرضى لبيان طول باعهم في هذا المجال.

كان من أفظع ما رأيت حتى أصبح من العادات المألوفات، هو تردد كلمات الانتحار عند الكثير الذين استنفذوا اسباب العلاج، فلم يقدروا في انهاء الركوع امام المرض، او صعوبة التكيف مع ماجريات الحياة والاخفاق في استئنافها الطبيعي، او الضغوط الرهيبة في تحمل مسؤولياتهم الاعتيادية، او تضخم الألم بما لا يسعه الصبر ونحو ذلك.. حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فوّلوا مدبرين الى التفكير بالانتحار. كانوا يعلمون بحرمته، وانه من كبائر الذنوب التي تحجز مكانا في النار، ولكن بدا لهم الألم الآني أحدّ عذاباً من سعير الآخرة. خلصوا إلى ان ازهاق الروح الحل القطعي لبتر هذه الآلام، وقد يشتط البعض فينصح المقبلين على اخذ العلاج إلى اليأس منه، وانه لا يقدّم او يؤخر شيئا، او انهم خسروا الدنيا ولا يصلح العطار ما افسده المرض النفسي من جماليتها، او يتحايلون بان الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، لذا سيتغمد انتحارنا رحمته، ولن تشوى جلودنا بالنار، وقد رفع القلم عن ألمنا؛ لأنه

مما لا يحتمله انس ولا جان، او قد يشككوا بعقوبة الانتحار الشرعية وانها من خزعبلات رجال الدين، او يجتهدوا من عند انفسهم في إضفاء الشرعية الدينية عليه، او قد يراوغ البعض في الاستفسار عن طريقة لقتل النفس لا تصنف على انها انتحار! رأيت الكثير يدعوا الله تعالى ان يقبضهم عاجلاً غير آجلا حتى لا يضطروا الى سموم الانتحار. كنت اعلم ان اغلبها اقوال غير جدّية لا يملكوا الجرأة عليها، وماهي إلا تنفيس عن مبلغ الإحباط الذي وصلوه وسرعان ما ينكصوا عنه. وكثير منهم يقدم فكرة الانتحار مع كل تعب يأتيه، او استعماله لتحشيد تعاطف الناس حوله ومساعدته. وكأيّن من الناس أعدّوا الجهوزية التامة للانتحار، فلما أرادوا التنفيذ وضغطوا الزناد؛ تراخت أيديهم وفشلوا من فرط مهابة الموت، او خشية توريث الفضيحة لعوائلهم واستنزال اللعنات عليهم، او حرصا على عواطفهم من وجع فقدانهم. والنفوس المريضة بالكاد تتمسك برمق الحياة، فكانت تلك الافكار الانتحارية جراثيم خطرة قد تتلقفها العقول الموسوسة لتضعها على اجندة التنفيذ! ولطالما تساءلت هل سيبلغ السيل الزبى عندي وابتلع جرعات زائدة من ادوية مهدئة واقضي على نفسي؟ كان وسواس الموت يأتي جوابا قاطعاً يعصمني من هذا المصير، فمن المحال الاستعانة بالموت لدحض الخوف منه!

كلنا يعلم ظاهرة جدلية الدين والعلم في عصرنا الحديث، فانتقل صراعهما إلى قطاع المرض النفسي، فكان هناك فئة تدين بمعتقد ان تفشي الامراض النفسية سببها ضعف الايمان ولا نحر لها إلا بالاستقامة

الشرعية، وذكر الله كثيراً، والكف عن المعاصي، وستعود النفس سوية وستفنى هذه الوساوس الشيطانية المرضية، ونتيجة لذلك؛ يصاب الكثير بتأنيب الضمير، وأن المرض عقوبة إلهية على ما فرطوا في جنب الله، فيشيع بين جوانحهم القنوط من رعاية السماء. ولكن كان هناك رأي مضاد له، بان المرض شيء حيادي لا يتعلق بالأيمان او الكفر كما هو ملاحظ من تشخيص أنواع المرضى الذي بيّن ان المتديّن مرشح للإصابة به. وقد يكون ابتلاء اصطفاء وقرب من الله تعالى، ورفع الدرجات في الجنان كما روت الأحاديث النبوية في ذلك، إلا ان هناك معذّبين كان يطعنون بسند هذه الأحاديث ويعتبروها افتراءاً على رسول الله، فبزعمهم ان الله تعالى لا يعذب من يحبّه، او يرقّي العبد اليه من طريق الشقاء. ودور الربّ في المرض النفسي كان مدخل يسهل من خلاله استزلال القلوب وبث وسواس العقيدة فيها، فتنزلق إلى السؤال الشهير" لماذا نتعذب في هذا العالم والله مطلق الرحمة"؟، وهذا كان أخطر الوساوس التي تشرخ الرأس لأنه يتعلق بفصل المقال بين الجنة والنار، وقد يودي بالمرء الى انكار الأديان او الالحاد. لذا كنّا احوج الناس للثقافة الدينية في تدعيم قلعة العقيدة من مهاترات الوسواس وتحرشها بصلابة الايمان.

ما يزيد الطين بلّة تدخّل ما يسمى "بالمعالج الروحاني" فيجعل من عالم الجنّ القيوّم على إثارة المرض النفسي، فيجد تجاوبا كبيرا معه؛ لان سوقه رائج في الطب الشعبي، وهناك تداخل واسع بين اعراض المرض النفسي والروحي ويصعب كثيرا فض التفرقة بينهما، فيحدث

لذلك؛ جدلا مستعرا مع أنصار الطب العلمي الذين ينكرون تلبس الجن بالأنس. ولكثرة الخرافة والسحر والغموض في "الطب الروحاني"، فقد جعله هذا بؤرة للدجل والريب في مدى وثاقة صحته، فيطالب الكثير بتنقية المجموعة من الأشخاص الذين يدّعون العلاج به وما أكثر الفجرة فيه، ولكن منهم فضلاء وأصحاب ديانة، يستعينون بالرقى الشرعية القرآنية في ترويع الجن وطرده من الجسم حسب رأيهم.

كان هناك رأيا عاما ان المرض النفسي إذا ما قورن بغيره من الالام، فستميل الكفة اليه وتشهد بفداحة امره، ويبز على أعتى الامراض العضوية مثل السرطان، وآية ذلك ان الجسدّ يتجاوب ويخضع للإنهاك النفسي، فتبدأ تظهر به اعراض جسمية مجهولة السبب، فظهر لذلك مصطلح الامراض "النفسجمية". وكنت أرى ان الألم في اي قطاع يهطل فيه، يكون على درجات متفاوتة لا شيء موحدّ النسبّة، وما تكون نسبته عالية يتوج بهرم الألم.. ولا يوجد ميزان يقيس درجاته، فكان الامر نسبيا يصعب البتّ فيه، ولكن باهظ المعاناة النفسية جعل هناك نرجسية عند البعض يستحقر الالام الأخرى، وربما يمارس الازدراء على اوجاع لا ينتسب اليها، ويستغرب نفاذ صبرهم عليها والنحيب حولها.

يمتد تأثير الألم النفسي ليقرض قدرة الشخص مع عالمه الخارجي. فكثيرة هي الأسئلة التي اراها تتساءل عن قدرة المريض النفسي في إتيان أشياء طبيعة تكون قدرة الاصحاء بديهية في غشيانها. فمنهم من يتساءل عن مدى صلاحية نجاحه في العمل او الزواج او

الاختلاط في مكان عام او الدراسة!، لذا القدرة عندهم ابداً مشكوك في امرها، ومفقود الثقة في الاعتماد عليها، فتصبح كائن مربك تضيع منك البرمجة العصبية لسلوكياتك، ولا تأتي الأشياء مثل السابق وانت مغمض العينين، تحسب سلوكياتك كأنها شمعة معرضة للنار ابدا فتسيل وتسيخ فلا يجمعها ثبات يجعلك تستحضرها بسلاسة كلما اردت الشدّ على يدها ونيلها، لذا راق للبعض تصنيف امرنا ضمن فئام العاهات المستديمة الذين لا يستطيعون إدارة حكم نفسهم، ويحتاجون إلى تدخل مجتمعي فوري رؤوف رحيم ينتشلهم من عجزهم.

كان الفرد منهم حريص على طمس آثار الرمال الدالة على هويته الحقيقية حتى لا يتلبس من قبل معارفه واصدقاءه وهو يمارس حقه في التعبير عن مرضه! ولو كشف في وكر دعارة لكان اهون عليه من القبض عليه يفضفض عن جراحه النفسية! فالكثير يدخل بحسابات وهمية ولا أحد منهم مستعد للتحدي السافر والاصطدام معهم في سجالات نهايتها الانسداد العقيم ويخرج منها مثخن بشحنات سلبية، وهو في أمس الحاجة إلى سلام مع محيطه وغلق كل جبهة لا يجتني منها ثمرة، حتى يتكرس لمجابهة هذا الداء العملاق. هناك معمعة ونزال ضروس مع المرض، فتنهل كميات كثّة من الطاقة اثناء ذلك، لذا كان التحاشي في التفاعل الاجتماعي او "المشي جنب الحيط" سمة أساسية تعزز الانطواء لديه حتى يسخر كل قطرة طاقة في احتمال المرض. هناك حرص في ادخار الجهد، فلا أحد منهم يناقش ويعاند ويتشاجر على رأيه ورغبته او يبذل

خالص قدرته على شيء حتى يكسبه. النجاح مسلك ينهش القوى بنهم، فيضعف صدّ المرض ويستقوي، فيذلل بذلك طريق تعقب الفشل كل انتصار تصبوا اليه في الحياة ويحيله إلى رماد. يذبل الحس الاجتماعي ويصفي كل ميل نحو قضايا عامة تعبث براحة باله من مناصرة حزب او مخاصمة فلان، او سماع الاخبار الكئيبة، او تدخل ينهب معين سكينته، استسلام شبه عام امام اللامبالاة لما يحدث خارجا، فلا شيء سوى المرور في طريق الحياد بين الأطراف فلا ينصر حقا، ولا يبطل باطلا، ولا ميل إلا لنفسه المعذبة. فالحرب الكبرى داخله والضرورة القصوى منحنية اليه، وكل ما عداه هامشي لا يجب تفريغ الجهد له، وإن علا بنظر الناس.

من خلال المعاشرة والاستقراء المطول اكتشفت ان اغلبية الامراض النفسية مزمنة والشفاء التام لا يتحقق إلا لثلّة، وكل ما تفعله من سعي في شتى اقطار العلاج هو لأجل خفض التصعيد المرضي وكبح استشراءه. لا ترياق يبيد عن بكرة ابيه بواعث استمرار حيوية المرض، ولا تستطيع عمل تدخل جراحي لاجتثاث آفة البيوض التي تفقس منها جراثيم المرض. الأسباب غالبا ما تكون غامضة في العقل الباطن، وينشق فعلها عن ارادتك فيكون كأن لها مخ مستقل يفعل ما يشاء بمعزل عن وحدة تحكم إرادة عقلك الواعي. شيء محبط ألا تستطيع قلع هذا التسوس الذي يفتك بنفسيتك، يلتحم في اجزائك فيكون كالدغل المضر الذي يتطفل على النباتات المفيدة ويضيق الخناق على موارد نموها الزاهر. أن تقضي عمرك في ثنائية ملحمية منغلقة متبادلة معه، فتهدر وقتك وجهدك في

إزاحته، فيخلفك عظما ناشفاً متعباً أمام طموحاتك لا تملك يداً قوية لتحقيقها. أن تتضاءل إلى دودة أرض مختبئة في جوف الظلام تتجنب الاحتكاك بالناس. كان على الشخص ان يتعايش معه ويفهم أساليبه الملتوية والمراوغة الذكية معها، ومعرفة الأسباب التي تهيّج بلبلته والقياس عليها حتى يتجنبها. أن يبني السدود التي تحمي البنية النفسية من طوفانه المدمر. أن يكتسب الخبرات السلوكية التي تطوّق عتوّه وتحتويه قدر الإمكان. أن يكذب ويخادع ويحتال على نفسه حتى يعرف كيف يتملص منه إذا وفد عليه واشتد. أن تتدرب على مجموعة تمرينات علاجية لتعرف ردّة الفعل المناسبة اتجاهه بدون ارتباك، مع الاستعانة بحفنة عقاقير تعقر كثيرا من زخم هجمات المرض. وأنا كنت انتهج هذا الطريق، فتغلغلت في عالم الكتب حتى أتزود وأضيف إلى عقلي عقل اخصائي نفسي بعد ان عرفت عسر وطأ اوكارهم، وان كثيرا منهم- من خلال مطالعة تجارب المرضى معهم - لا يملك صبر طويل، وتمكّن عالي، وعاطفة حانية، وفهماً مخترقاً في تشخيص المريض والتعامل الاحتوائي الإنساني معه، بل يكتفي بمعلومات سطحية سريعة، ويملأ ورقة الوصفة بقائمة من الادوية، فيتّكل عليها بشكل أساسي وينتكس دونها، لذا كنت متزعزع الثقة في كفاءتهم، او أنى سأتماثل على يدهم الى الحياة القديمة الهادئة. لا انتقص من مقامهم، ولكن من الصعوبة انتخاب الطبيب النفيس الذي تستطيع التناغي والتناجي معه بأريحية، فتصل يده وتتناهى الى أشياء بداخلي لا تستطيع نفسي ان تبصرها، فالظروف غير مهيأة لتقدّم مباشرة وبلا عناء الطبيب الماسي، ولا أريد ان أكون فأر

تجارب بين أطباء يُمْلون، أو يلقون على مسامعي أشياء اعرفها سلفاً، أو لا يضيفون لي شيئاً. أجبرتني ظروف المرض أن أرتفق على نفسي، واتدارك كل ثغرة تعوزني الى آخر، والاحتساء من ذات المصدر العلمي الذي يتعاطاه الأطباء، حتى لا أكون كفيفاً لا يبصر خطواته التالية لو باغتني المرض بحملاته المكررة.

العوائد التي ربحتها من رحلة البحث هذه حسّنت نسبياً من وضعي النفسي، وتحولت من حالة الاستسلام لهراوات المرض إلى امتلاك آليات دفاعية تقاومه وتخسأ من شوكته. وصلت الى المرحلة الأخيرة من مراحل الصدمة النفسية حسب نموذج " كيوبلر روس" وهو الإذعان او التأقلم. كان لا بدّ من التعايش وجعله كجزء ولد معي، ومن مسلّمات ذاتي التي لا يمكن المحيص عنها، لإن إنكار وجوده والكفر به، يعني دفع ثمن باهض وغير ناجع من طاقتي النفسية. أن ابدأ تقويم حياتي لحظة ولادة المرض ودفن كل حنين او لهاث إلى ما قبله، وترصيع قالب جديد أرتب به حياتي مجدداً، وإعادة بلورة حياتي وفق إطار المرض، وان لا أكلف نفسي ما لا طاقة لي خارجه حتى لو كان مطلوباً في تقاليد الناس. انسحبت كثير من الاعراض المرضية أو قلّلت من مواعيد خروجها لي، وما كان مستمراً معي من عرض، أصبح الان يتذبذب في مجيئه، وأبرزها انحسار مثابرة عيادة الخوف وقلّة المامه بي فيما لو انفردت لوحدي عندما انام. أُبدي مزاولة الثبات الانفعالي اتجاهها، كالشخص القاطن في بلد معتادة على الزلازل يُربّي نفسه على الصمود

ضد طيش فزع احتمالات أرتطامه بقطعة صلبة تائهة فيما لو اهتزت الأرض من تحته.

الرسالة السادسة:

سُبّوح قدوس شهرزاد. أصابتني الليلة وعكة شوق اليكِ، وطفقت أبحث عن صورتكِ الوحيدة التي احتفظ بها أرطب بها جدب غيابكِ. عندما أسرح النظر في لقطة الصورة التي تضم عينكِ فقط، فإن قافلة الثقل تبرَك على نفسي، أذرف انحناءاً نحو الأسفل وتحلقين فيها صُعداً نحو الفضاء، تنبثق مسافة؛ فكلما ركضت فيها نحوكِ، زاد ابتعادكِ مع كل خطوة. سور القُرب الذي أحيطك به، يتمزق وتهربين منه إلى بيداء الجفاء. تنطلقين بسرعة جنونية وسُدى أحاول اللحاق ومجاراتكِ. ولا اعلم شيء اتصاغر فيه امامكِ مثل لقطة العين هذه. يطل من محجرها التحجّر القاسي، وتمارس استبداد غير منظور على نفسي، تقرع طبول الهيبة بهذيانٍ مسعور كعين القرصان وتمثّل فزّاعة مريعة لي. ليست عين تشع بشاعة وعوراء الهيئة ومعوجة الخِلقة، فهي آية في الجمال المتين، ولا اشعر بالغربة امامها وكأني امام شخص آخر، بل كل ما في الامر ان نسبة جلالها طغى وتجلّى كأقصى ما يكون. تستنفر اقصى ما في اسم شهرزاد قوة وتجلّة. هزمت أمام ساديتها الصامتة بلا معركة اخوضها معها. لا أعلم لماذا انتجبت ونفذت من منخل فرز الصور وانحازت إلى معسكر آثارك دوناً عن البقيّة؟ ربما لو حسبتُ حسابها في مستقبل الذاكرة وتأثيرها الطاغي بعد غيابكِ، لاستطعت كبح نفاذها واستبدالها بأخرى توازن بين الجمال والإجلال، فلا يغلب أحدهما الآخر. فأنا امقت الصور التي تستعمر فيها اللقطة جمالكِ، فتبرز ضعفكِ الذي يُطمع الابصار،

وأحب خلطها بنكهة الرزانة والوقار لتخلق مسافة تحدّ من الاقتراب، وتنهر النيات الجشعة في مهدها لو فكّرت بالاتصال.

فترة بقائي معكِ قصيرة، فأخذتُ الأشياء منكِ بلا انتقاء وكيفما اتفق. شاغل جيوب الذاكرة منصّب على كرع مقتنياتكِ دون مراعاة لجودتها وتميز أدناها من أعلاها، فلا عجب لو استأثرت بميراث منكِ متطرف كلقطة العين هذه. تذكرين مرّة عندما طلبتُ منكِ دقيقة صمت، فلمّا اتممْتِها سألتني عن سببها؟ فقلتُ: «هذه الدقيقة في ميزان الناس يبدوا ذهابها عادياً لا يثير حسرة الفوات، بينما عندي ستكون لوعة اتحسر عليها مستقبلاً عندما تتوق نفسي إلى حديثكِ فلا اجدكِ»! كُنت اعاشركِ في محطة القطارات وعلى أهبة الرحيل وحقائب الفراق، التهم صحون الوقت بشراهة لا ابقي أيّ فتات شارد منه. ضاعت أشياء كثيرة كُنت أتمنى اتيانها معكِ، فضاقت سعة الوقت في تحقيقها. أحرزت مكاسب قليلة من آثاركِ وربحٌ بخس من منبعكِ. ذاكرتي تعيش في فاقة جائعة اليكِ ولا تني تترجى عودتكِ. هذه الغنيمة المتواضعة جعل من صورتكِ الثقيلة أثمن صوركِ التي لم ارها، وأحلاها على قلبي. أعيش معكِ على قيد القمار فلا أدري هل سيكون هذا غياب مؤقت، ثم يستأنف بجولات أخرى ام ختام مؤبد؟

******

جُلّ ما أفعله في عطلة السنة المؤجلة هو التنقيب في عالم المرض النفسي ومعاشرة ضحاياه. أما عامة اهتماماتي الأخرى فقد شهدت تحولات واسعة جعلتني أُعرض صفحاً عنها. فلقد كنت مولع بأشياء وحبال تربطني بهذا العالم، وبئر تجارب تنعكس على عقلي، وملتقى يجمعني بالناس قبل حلول نكبتي، فأصبحت فاقد الشغف بها.

فهذه كرة القدم التي استولت على مجامع قلبي، والفائزة الأولى بوقتي، ومحظية اهتمامي بلا منازع، ورفيقي الأوحد والمفضلة حتى على بني البشر، حملني حُبها على الاستمتاع بها في قيظ الحرارة اللاهب، وزمهرير الجو القارص، واحتمال رائحة العرق الكريهة، واوضار الغبار الملتصقة، واستسهال تجشم عناء اصطكاك قدمي الحافية بأرضية الملعب الرديئة المتناثر فيها أشياء حادّة تحترف ثقب الجروح الدامية فيها. أما الان قد نالها الضمور والخمود في داخلي، وتراجع الهيام بها إلى ان استسخفْتها وعددتّها من عَتَه أساطير حياتي الأوليّة! امرّ بجانب الملاعب وهي تعج بضرب الاقدام للأرض، فلا تتحرك عاطفة فوّارة لأن اقبع في وسطهم واركض معهم. أحاول أحيانا ان أُكره نفسي فألعب، كجزء من عملية الالتئام بأشيائي القديمة المتعلق بها، فأعالج- عن طريق التمسك بالقديم- انتشار أعراض المرض ودثرها على رِسل. ولكن أشعر بترهل عضلاتي لو لعبت كأني ما لعبتها يوماً. قد أُفرغت من حُبّها نهائياً. علمت أن مهارات الجسد ليست عملية ميكانيكية تضغط فيها على زر فيعمل باقتدار، وإنّما الحالة المزاجية للنفس مساعد أساس في استنفارها او عصا

تعرقل انطلاقها. وهكذا بعد ان كنت النجم الذي تتسارع الفرق لضمّها معه، والسلاح الصاعق لسحق الخصوم، أصبحت ذلك المبتدئ الذي إذا وصل ساحة الملعب؛ لم يعد يسمع نداء الافواه المتوسلة للانضواء اليها. صرت عملة قديمة مهترئة غير قابلة للتداول، وصدق عندما قِيل " قيمة كل امرئ بما يُحسنه".

كنت أرابط عند التلفاز اشاهد بث المباريات المباشرة والمسجّلة، حتى دوريات الدرجة الثانية المُتدنيّة والمُملّة. اما الان اشيح بوجهي عنها، ولا أتحمس أو أشعر بإغواء ومشاعر انجذاب لها كباقي الشباب الذي يشاهدون مباريات فرقهم العالمية ومنتخباتهم الوطنية فيرقصون فرحاً بالفوز ويتنهدون الحسرات عند الخسارة. وكانت مجالسي تلهج بأخبار اللاعبين ودوريات الفرق وتحليل أدائهم، والان أراها من اللغو المنفّر الذي ضل سبيل التسلية والترفيه عن نفسي. كان هذا أول عشق حقيقي يتلاشى في حياتي. اكتشفت معه ان لا يوجد حب مطلق متعالي يسير بوتيرة واحدة وإنما ينكمش وينتعش حسب مجريات الظروف.

كذلك كنت أحب السباحة وانتشي بجزيئات الماء، كأنها انامل حوريات البحر تدلّك جسدي بمساج ناعم. كثيراً ما يتأكسد جسدي ويجمد ويتلكأ في حركته، فتأتي السباحة تفلّ كل ماران عليه من يبوسة، فاشعر كأنه برشاقة وخفّة راقصة الباليه، أو عجينة تمدد كما تشتهي وعصية على التصلّد. كانت السباحة عندي تحدّي ضد كبرياء البحر وامواجه والطفو فوق سطحه دعس على جبروته الذي ارهب الانسان القديم

فنصّبوه إلهاً لهم. بالسباحة أغلق فمه المتأهب للابتلاع والتحطيم، فأجعله كطريق بريّ اتمشى عليه ولا ينبأ بخطر. يمدّني انتصار السباحة عليه بقوة في منافحة هذا العالم. اما الان لو رأيته اشعر بمهابة واسعة أمامه، لا أقدر كالسابق على رمي نفسي به وأنا اصرخ بحماس لذيذ. يهيأ لي لو وضعت قدمي على جرفه فان يداً من ظلماته ستسحبها مع جسمي وتتعمد اغراقي فيه، كأنها تنتقم من الماضي الذي كنت أجري فيه مزهواً لا اخشاه. تحول خط الخطو فيه عمودياً إلى قعره بعد ان كنت أتحدى جاذبية البحر فامرّ عليه افقياً. الماء الذي كان صديقاً لي قد تنكّر وجحدني إلى عدو يرمقني بتوعد لو فكّرت في ملامسته. يابستي الأخرى التي الوذ بها لو ضقت من يابسة التراب قد نفضت نفسها عني. لم تستطع خطط البحر الحثيثة في اغراقي به، ولكن المرض قد أغرق مهارة السباحة في قعره، وأنهى متعة من مَتاع حياتي العظيمة. عاد رماداً باهتاً كل ما انكببت عليه ولهاً ذات زمان، وأصبح ايماني يتصدع بالارتياب إذا ما خفق خاطري بأمل بقاء الأشياء النضرة، وبرمجت تعلقي على الهشاشة إذا ما اغتبطت بشيء.

تكالب الرهاب الاجتماعي مع نزعة المرض الانعزالية في تقييد حركتي حتى أصبح يطلق عليّ لقب "البيتوتي" لا أغادره إلا للضرورة، وكأني أصبحت المخاطب بالآية "وقَرْنَ فِي بِيُوتِكنّ"! فحُببّ لي من دنيايّ العزلة وصار من زينة الحياة الدنيا. لم أعد من عشاق المساحة، واختصرت في غرفتي كأنها سجن ولكن من خمس نجوم، فان سألتني عن

أكثر شيء اعرفه تفاصيله أجبتك بغرفتي؛ من فرط معاينتي لها. أجد في جدرانها الجنود البواسل الساهرين على أمني من ذلك الخوف الذي صبغ عالمي الخارجي. أحياناً اشعر بالامتنان لمن اخترع فكرة الجدران وحشر البشر في بينها. ربما كان كائن بدائي خائف-مثلي- من الحيوانات المفترسة أو من قصف الرعد أو من غضب آلهته انْ اجترح اثماً! يخيّل لي أني لو عشت في باكورة بداية نشوء تجمعات البشر مع خوفي هذا، لابتدعت فكرة عبادة الجدار وجعلت له قرابين وطقوس! ربما سيرمى عقلي بالسفاهة لو أبديت استغرابي من ضجر المساجين في سجنهم، وانتظارهم اليوم تلو الاخر للتحرر منه! الجدران يجب ان تصنف من عجائب الدنيا السبع، وفي قمم الاختراعات البشرية التي أحدثت تغييرات تاريخية! ربما فكرة الوطن والاستقرار بدأت عندما نشأ الجدار وليس كما يُشاع عندما عرف الانسان الزراعة! أحيانا اتعصب لغرفتي واغضب ان وجدت فيها شخبطة قلم في الجدار، أو فُتات متناثر على ارضيته. ليس الوطن رقعة جغرافية تُحدد سلفاً عند مولدك او مكان يحدد تعريفه الفلاسفة وقوانين المجتمع الدولي، وانما هو شيء يحميك ويضمك بصمت وبلا اجر حيث لا تجد حماية في غيره وهذا ما وجدته في الغرفة. هذه القساوة التي تكسو الجدران أراها رحمة تشيع الأمان الداخلي، وتُقدّم حضن حاني لا تستطيع رخاوة أحضان البشر ان تمنحها لي وتعطيها مُخلصة وخالصة من أغراضهم. من قال ان الحب يقتصر على كل ذي قلب حي؟ أحيانا يعطي الجماد من العاطفة السرية ما يعجز عنه كثير من البشر! الجدار معلم مكدس بأشياء حكيمة ولا يمنح دروسه المضمرة إلا

بالمعاشرة والتأمل له. فمنه تعلّمت الوقوف الشامخ الفولاذي الذي لا ينحني بسهولة، وسكونه الذي يعلّمك الإنصات والإصغاء إلى كل المخلوقات. أحيانا اشتهي تقلّيد الجدار واقف بجواره مطرقاً استمد من هدوءه ما يصفي القلق بداخلي. الانغمار في خضم الحياة البشرية يحجب الانسان عن مُلاحظة أشقاءه من أمم الخلق ويكرس نسيانها. وحدها العزلة تُعيد انتباهك إلى تفاصيل المخلوقات المشاركة لنا في الكون وتقوية الحميمية معها.

الأمور لا تجري بهذه الرومانسية والوفاق مع الغرفة دائما. فكثيرا ما تتشاجر غريزتي الحركية معي، وتطلب إيفاء حقّها المهضوم والمساواة مع خصمها المُناقض من السكون. فإذا ما حزّمت أمري للخروج وسكب شوق الحركة الى معانقة الشوارع والارصفة والمباني، فإني اشعر أن حشد المخاوف ينمّل ساقاي كلما شرعت قُدماً، مصيبة ستلحق بي لو وضعت قدمي خارج باب البيت. لو كنت في سجن اقضي عقوبة فلا داعي لوضع سجّان يراقبني، ولو كان بابه مفتوح فلن اجرؤ على الهروب منه.

لا أستطيع الخروج إلا لو كنت تحت ضغط ضرورة تستدعي تجنيد كل الطاقة بي. كما يحدث لو أن إنسان مريض مُمدد على فراشه لا يستطيع القيام عنه، فلو شَبّ حريق بجانبه سيشعر تحت ضرورة دفع الأذى عن نفسه إلى استدعاء كافة طاقته فيشعر بقدرة على المشي لا يجدها لو كان خاليا من الضرورة المحتمة عليه. لذا كان أكثر عزمي يبوء

بالفشل لو خرجت للفسحة والترفيه عن ذاتي. ولولا نعمة الضرورات الحياتية، لانحاز جسدي الى الهمود الكامل المخيف، وأصبحت مشلولا بلا مرض يتلف الجهاز العصبي عندي. كل انسان يبدأ بهموده بالرحم وينتهي بسكونه في القبر، وما بينهما يتحرك ويسعى، ولكن يبدوا أن السكون سيستمر بسيادته على حياتي.

القُطبّ الذي ترتكز عليه سعادة الشباب هو الجسدّ، وأغلب لذاته مرتكزة على الحركة الدؤوبة، فبدأ عندي أفول المتع المراقة منه تبعاً لحالة سكوني التي أودعته في قفصها. جسم تكمن فيه الملذات ولا يد للحركة تمتد لتحلبها من باطن ضرعها مدراراً، كيف تستفيد من كِنانة الأسهم إن لم تملك قوساً يطلقها؟ فقدت ذلك القسط الواسع من لذة الاستراحة الذي يأتي بعد اعياء الحركة، فالتقيّد-مثلا- منع التعب من تلقيحه في نومي، فخسر مقدار وارف من لذته. ضاعت كثير من الأشياء التي بحركة نفسك تقوم بها، ثم تنظر إلى نتائج آثار يدك مبتهجاً. ذلك العرق المالح الذي يفرزه سعيك، والذي يستنكفه الناس ويسدّوا بأنوفهم عليه، أصبحتُ اشتاق عليه، وأنّه عطر الحياة الحقيقي لو يعلمون! لو باليد حيلة لقاسمت نصفي الشبابي المعطل إلى اخر يعوزه بدلا من ذهابه هباء منثوراً. لا عجب ان كان الترهيب سلاحاً فعالاً في التحكم، لما يحدثه من سلاسل غير مرئية تشلّ اوصال الجسد وتخضعه. لا أدرى كيف اهدّئ من غيرة اطرافي الجسدية، وهي تشتهي الانفلات من عِقالها عندما ترى أقرانها تمشي كما تهوى. أحيانا اعتذر على وجودها لديّ واشتهي لو

لتبرح عني إلى آخر غيري. أشعر بفداحتها وبِعتبها الناقم إذ أخفقت في تحريكها. لو كانت الأطراف مبتورة لبَرَكت إلى راحة اليأس، ولكن جمودها يثير الاستفزاز المهين كالأحمق الذي يملك عقلا ويتجاوزه. وجودها يجعلني في صراع بين الخوف القامع وشبابها المتحفز. مذ هذه النكبة ونفسي صارت حلبة ملاكمة تشهد صراعا تلو الاخر، ما إن يخمد منها صراعا حتى يسلم الراية لغيرها.

خلوت من الأصدقاء نهائيا. اشتاق ان اقلّب في الهاتف قائمة جهات الاتصال وأن يكون لي فيها صديق او أكثر يتصلون بي. اتوق الى دقّة باب، فينادي شخص من البيت بان صديقك ينتظرك عنده. أن نتلاقى في مطعم فيكون وجوده لي طعاما ثانياً اقضم معه الكلمات باشتهاء. أن نقف عند ناصية الطريق، وينادي لي بالنظر إلى تلك الفتاة الجميلة وتضاريسها المرتفعة! ان تتناوب افواهنا على نرجيلة ونحن نخوض في الحديث الفكه، ان نذهب الى السوق واستشيره في ذوق الملبس الذي انوي شراءه، ان اشدّ به عضدي على نوائب الدهر واهزمها معه، وأشياء أُخر.. ولكن أنى للصداقة ان توقعّ بقلمها في حياتي وتشق مجراها لي، والوحدة تُسفر بضباعها على أمري وأهوى افتراسها لي؟ ماذا افعل امام نفس ترى امانها الوحيد في خلوة تخلو من البشر؟ أن اصادق الوحدة والتوحد بها، او اعاقب بالخوف على عربدة مصاحبة شخص!

كيف تجثو الصداقة بين يدي، ومن يحملق بي يرى ان الكآبة قد حُشرت بي، بحيث لو قُسّمت على سبعين من اهل مدينة لوسعتهم؟! أو

كأني خارج للتو من قبضة الموت أو كأنّ الكُروب تصافحني بُكراً واصيلا! لدي فاقة في الظرافة، ومنظر لا يشجع على تسرية الروح واخلاءها من الهم، ولا يستطيع مواساة الاخر.

لو شكي لي أحد، فلا أقدر على إهدائه الكلمات الإيجابية -التي أمقتها- او بما يبشّر بانقشاع شدّته قريبا، لا ازيد على كلامه سوى ان دأب الحياة هو بثّ بُغضها في الناس، وأن قانونها صدّ السعادة عن سبيلهم، فلا تذهب نفسك حسرات عليها. هذه هي السلبية التي تترعرع بها كلماتي. لديّ بضاعة زاخرة من الكلمات المحفزّة، ولكن يحدث لبعض الكلمات ان تمرض بفقدان التذوق لها، وتُحال إلى لغو لغوي لا يستطعمها عقلك وقلبك فتنفى إلى مستودع الكراكيب المنتهية صلاحيتها. لذا لو هممت بالأفراج عنها، استشعر أني كمن يضع اصبعه في فمه لكي يتقيأ.

شطب مني ذلك التطفل لتلقائية الضحك وهي تحشر نفسها كثيراً في الكلام، فتُفضي على اللقاء اريحية. لا أستطيع ابرام صفقة مع وجهي للتجمّل بالبشاشة والتبسّم حتى أقوّي الاخر على الانخراط معي، لان فاقد الشيء لا يعطي. الناس تريد شخص يخصّهم بخفّة تلتهم فيهم ثقل الحياة، لا ان يكون ملح على جروح همومهم بكلامه السلبي أو تجاوبه البارد.

كثرة صمتي أطاح بقدرة لساني على التقاط الكلمات ورميها خارجاً، فلم يعد يتلقفها بسلاسة او تنقاد له بليونة. أحاول ان أصف الكلمات بانتظام واحدة تلو الأخرى وتخرج متجانسة لتكوّن قلادة الجملة

الحاوية للفكرة، ولكن سرعان ما ينفرط عقدها وأتلكأ، فلا يكتمل إيضاح مقصدي الذي يبزغ جنينا مشوهاً غير مكتمل في هيكله. ادفع الكلام دفعة واحدة، فتتطاير المفردات وأستعصي على جمعها في نسق مفهوم. تنساب الأفكار بسهولة ولا تستطيع الكلمات مجاراتها واللحاق بها والانسجام معها آنيا دون تخلف. كثيرا ما يشقّ على افكاري ان تتعبئ في كيس الكلمات. خبرة ممارسة لساني للكلام تجهش بالرثاء والبكاء لعدم تواجد إحماء مستدام للحديث مع الناس. لذا تقاعست الكلمات وانتابها التباطؤ، لإن لساني لا يتمرن ويأخذ حقه اليومي من النشاط، ولم يعدّ يسعف افكاري ويعبّد طريق جريانها للخروج، كأنّ الصمت شرطي يرى الكلمات كمجرمين فيقبض عليهم كلما حاولوا الهروب من سجن الفمّ!

كيف للناس بعد ذلك أن ينكبوا للكلام ويلتمسوا الرفقة مني؟ وقد تقاعد عندي الكلام والصمت دخل معي في قبلة ابدية مع فمي فلا يفارقه! كيف لصديق أن يسرد مرثية حطامه او إذا ما مسّه الضرّ، ثم أوجز ردي بالصمت فقط؟ ألن يقوم عقله بتأويله بلامبالاتي له ويستشيط وجدانه بمشاعر الاحتقار؟ هو الذي كان يتوقع ان امنحه الشعور بالرأفة عليه؟ كيف لي أن افهمه ان قلبي ليس أعجميا وقد اتسع لفهم ألمه وانثلم له؟ وربما قلبي كان أكثر انفعالا من شخص يواسيه بالكلمات وقلبه غافل عن ذكر المه! ألا إن من العذاب المبين أنك لا تستطيع نقل عذابك للآخرين! اعلم ان الصمت يملك لغته في ترجمة مشاعر القلب وينوب عن الكلام باقتدار أحيانا، ولكنها لغة يكتنفها عدم الوضوح، ولا يلقّى مُعجمها إلا

خبراء النفوس وقليل ماهم. هذا الصمت سيجعلني مادة دسمة لاتهام مشاعري بالجمود، وينقل عني نسخة مزورة عن قلبي لا تمثلني. وهذا القلب سيعدمه الناس، ويختزلوه إلى مضخة للدم إذا اختفى اللسان عنه.

من أين للناس ان يتمسكوا بي وتفلح لي صداقة، ويدي مقطوعة لا تستطيع ان تمد يدّ المساعدة إذا طلبوها. ألا تقوم العلاقة على البذل المتبادل، فكيف لي ان اوثّقها مع شخص وقد استحكم عجزي؟ لو أردنا أردت اختبار مقدار صداقتنا لشخص، فلننظر ماذا نقدم له، ويقيناً ان مقدار صداقتي لشخص سوف ترسب صفراً. لا ينكبّ الناس على علاقة من طرف واحد، يهدر فيها الطرف الاخر حقوقها. سأتُهم الانانية والمصلحة وتُنهى سريعا أي علاقة لو كنت ثاني اثنين فيها.

ومن هذا الذي يروم عقد علاقة مع شخص معقدّ لا يمكن اجراء معه المعاملات المعتادة في الصداقة؟ الصحبة تنبض وتعتاش على السراح خارج البيت حصراً، فمن هذا الذي يستحمل ان يتسول دائما بشخص بان يرافقه في شتى الامكنة فلا يستجيب له؟ ما لذة المنادمة إن لم يتنقلوا سوياً في تشاركية تفاعلية مع العالم؟

انا شيء رخو غير صالح للاتكاء، وخذلاني يسبق أي حاجة يُرجى مني قضاءها. لست شيء يُفخر بصداقته، وتنشد الاشعار في منشور على الفيس بوك يشيد بنفاستي ووفائي ومضافرتي له. سيجدني من يلتمس رفقتي، متفرجاً على مساحة مشاركاته معي، ولا انصاع

لتفاعل قوي وحقيقي معها. سيضيق ضجراً وتململاً من مساحة الأشياء البخيلة التي امنحها له. سيدبّ الملل في اوصاله، ولن تطفوا لذة المعاشرة الى السطح او يجد إقبال واستطابة للكلام معي، فخزائني أصبحت خالية الوفاض ولا تفيض بآخر اخبار الناس أو بتفاصيل حياتي اليومية التي يستأنس بها الناس لكثرة مرابطتي العزلة. أتمنى لو أصحو من النوم وتقدم لي وجبة كلام جاهزة إلى دماغي أستطيع بها ان أجد ما أحادث به الاخرين. سيستحي من مرافقتي له بالشارع، أو يقدمني الى معارفه مادامت أميل للملابس الرديئة والاناقة الضّحِلة. سيزهد بهذه الشخصية الضامرة، والضعيفة، والخالية من اغراء التميّز.

استحوذت عليّ نظرة تشاؤمية. فإذا مررت بشيء ما، تخيّرت منه جانبه الأسود، فإذا رأيت لاعباً يقفز بالهواء فرحاً بهدفه، قلت: لماذا يحتفل؟ فلربما يخسر المباراة في نهاية المطاف، او إذا رأيت انثى تغتبط بحملها، قلت: ربما يسقط منك او يخرج مشوهاً فينقلب عليك الامر هماً ابديا! أصبح الاسود هو اللون المفضل لعيني. انتهى عندي ترف الاختيار بين الأبيض والأسود، كل ما بي ينحاز للأسود ويحسم الأمور لصالحه. ماذا أفعل للأبيض وهناك اجماع بداخلي يُصوّت بلا تفكير للأسود. حتى لو انبثق شيء من التفاؤل، انبرى السواد كأنه يملك عقل ارسطو ليفنّد -بزعمه- سفسطائية الامل، فاذعن مُرغماً لقوّة منطقه. الريشة التي كانت ترسم البياض المشرق في حياتي قد حطّمت. أحيانا عندما استيقظ في الفجر للصلاة وارى بياضه الصادق في السماء، اقول: من يعيد لي روعة

الإحساس به وهو يحقن النفوس الناظرة له بالأمل؟ ذلك الإحساس المتفائل الذي تجده عند مجيء العطلة الصيفية بعد الدراسة المنهكة، وعند قبض الراتب بعد خواء الخزنة، وعندما يأتي لك أقرباء احباء بعد طول غياب.

أشياء مميزة ومبهجة في حياة البشر اقتدت بنكهة الأيام العادية ولم تعد تؤلب السعادة الآملة بداخلي. تداعت كثيرا من جاذبية الأشياء ولم تعد نقطة نهاية السطر التي تستوقفني عندها. ربما لأني افرغت من جاذبية نفسي فحدث تأثير الدومينو وازاح ألق الوجود. الأشياء الصغيرة التافهة التي كنت أعرض عنها، أصبحت استنجد بها لعلها تخفف من وحشة الشحوب المحيط بي. اعترف أني خسرت حياتي وكل ما افعله هو تقليل الخسارة.

الرسالة السابعة:

سُبّوح قُدوس شهرزاد. إذا كان للناس أسماء للأنوثة يجدون فيها النموذج التام لها مثل فاطمة أو مريم أو بلقيس، فإن اسم شهرزاد عندي هو المفضّل والمُجتبى، ومعناه يحوي كمال المرأة. كنت احلم بأنثى تأتي من صلبي تحمله، وارفقه متباهياً كوردة في جيب اسمي. البعض يحلو له ان يناديني باسم أبو شهرزاد لِعلمه بعِظم مكانته عندي، وبعد ان عرفتكِ تمنيت ان يرفق في خانة اسم الزوجة في بطاقة هويتي. عرفت اناث يتسِمنَ به، فما وجدتُّ واحدة قديرة بحمله، وكل هذا قبل اعرفكِ، حتى وجدتكِ الكفؤ للدلالة عليه، والعاهل الوحيد الذي يستحق ان يُلبس تاجه، ولربما لو كنت رئيس دولة فسأدخل في مجانين التاريخ عندما أصدر قراراً يحظر على كل انثى ان تُسمّى به، فإذا كان لا يجوز للإنسان ان يتسمّى باسم الله -تعالى-، فكذا لا احبذ ان ينازعكِ في الاسم انسانٌ يُسمى باسمكِ؛ لاعتقادي انه تشبّه بما لا يستطاع التشبه بمثله! أمتعض من كل أنثى تحمل هذا الاسم وتشاركك فيه، وقد اجري فحصاً مقارناً بينها وبينكِ في جدارته فأجدكِ الفائزة فيها دائماً. اقوم بحظر كل انثى تحمل اسمكِ، إذا وجدت منها ابتذالاً ورخصاً وتفاهة في سلوكها. أحياناً امقت شخصية شهرزاد في ألف ليلة وليلة، وأتمنى لو كُنتِ صاحبة السبق والبيضة الأولى في استهلال اسمها فتحذوا النساء من بعدكِ في التسمّي به. لا أعلم للان السرّ الآخذ والاعجاب الآسر بهذا الاسم، أهي تركيبة حروفه البديعة

ومذاق نطقه الحلو في فمي؟ او لإني أرى فيكِ النسخة العصرية لشهرزاد ألف ليلة وليلة في حنكتها ونبوغها وفطنتها؟

اختم حديثي بعقيدة اسطورية حول بغداد، وجدتها في احدى مخطوطات القرون القديمة وأجريت تحويلاً عليها يخص الاسم.. فذات مرة نظرت بغداد في المرآة فأحبطها فراغ ملامحها منها. عضّت شفتيّ كرامتها غيظاً على غياب تجسّدها مرئية. جثت على ركبتيها تندب جرحها النرجسي وانطماس سِماتها. وبقيت حيناً من الدهر وكُحل دمعِها يسيل على خدّها حزناً. وحدث أن كانت عين بغداد تمشّط سكّانها ورعيتها، فلمحت انثى ازْدانت بِزُبدة الجمال ولُباب العقل وعَباءة التعالي، كان اسمها شهرزاد.. تلألأت نفسها بالجذل وجرى الرواء في غضونها، ومن فورها اتخذتها انعكاسٍ لكسوة ذاتها، وبوصلة السبابة لمن يريد الإشارة لها، فهبطت بلوح محفوظ على الناس مكتوبٍ فيه: من أراد الاهتداء إلى معالم بغداد، ويستملح رؤيتها في نصبِ نحتٍ ملموس، فليتأمل شهرزاد، فعندها وضعتُ عُصارة إرث روحي. فأخذ الناس يُسّلمون اللوح لذراريهم جيلٌ بعد جيل، وجرى العُرف على اقتران بغداد باسم شهرزاد لا ينافسها اسم، ويكون لكل موكب جيل بغداديّ، قُطب شهرزاد خاص بهم! وفي عصرنا، استبصر القدر في عيد ميلادكِ ارهاصات انثى بغداد الموعودة، فنفث في روعِ أمّكِ رعرعة اذنكِ على اسم شهرزاد، فتقلّدتِ بجدارة سُدّة سيّدة بغداد.

******

العام المؤجل أوشك على النهاية، وذكرى فشل السنة الماضية تجتاحني بقوة ورهبة. أفكر هل ستعاد الكرّة ويكون عامي الجديد ورقة كاربون تتأسى بما حدث سابقاً؟ أم التحسن النفسي سيكون بالمرصاد لصدّ كل قلق مرضي يريد أن يقهرني ويقهقرني الى شرنقة البيت؟ هل التحسّن بقادر على دمجي في الناس مجدداً أم نجاحه محدود في أشياء معينة؟ وهل سيكون دمج أريحي أم آتيه على مضض؟ وهل سيكون دمج دائم أم ستفحم قواي واطلب الانفصال الى وحدتي؟ لا توجد إجابة حاسمة يطمئن لها قلبي، فهذا التحسن لم اختبره حتى اعرف ما يدخل فيه ويخرج، وإذا ما نجح التحسّن في دوره، فهل ستخرج عوامل أخرى غيره تعجف من قيمته فافشل مرة أخرى؟

من ضمن الأشياء التي استعادت عافيتها تدريجيا الرغبة في الدراسة، ولكن مكان الدراسة والانصهار به هو عقدة المشكلة التي اتوجس منها! لو ان هناك شقّ يكون من خلاله التعليم عن بُعد أو الكتروني عبر النت، فذلك امر يخنس الوساوس التي تكب بانهمار في دماغي لو انتدبت نفسي لشيء له علاقة بالناس. تداعت تلك المباشرة مع البشر، واتحجم تقزماً امامهم فلا أستطيع مواكبتهم بعفوية. نفسي انسلخت إلى شيء آخر انحل عن اللحمة البشرية، ولكن بقي هيكل جسدي الذي يقنعهم كذبا أنّي منهم. من يكون في غير جماعته التي ينتمي لها يشعر بالتهديد الخفي، فهل هناك غير جنس البشر أجد فيه ملاذاً يساوق نفسي الغريبة هذه؟ لا اشعر براحة مجاورة ومجاراة البشر إلا وبيني وبينهم

حجاب، او شيء وسيط يكون أداة للتبادل معهم فلا أراهم ويروني، ولا تستقر حياتي إلا بالشروع في تطبيق مبدأ "عن بعد" معهم، ولا يمكن العيش في جموعهم والمسافات تكاد تنغلق معهم، أهوى الاعتصام بالمسافات البعيدة عنهم، انتظر بفارغ الصبر تقدم التكنلوجيا لتقبض من النشاط الحركي للبشر والركون في معاملاتهم وحاجاتهم وتيسيرها على الفضاء الالكتروني دون الاضطرار للاحتكاك المباشر مع بعضهم البعض. ضمرت عندي تلك الحلاوة الحميمية التي تخضب وجدان البشر لو تلاقوا وتصافحوا. اتفسخ تدريجيا عن عالم البشر وسأتدحرج الى نقطة استبشع وجودهم قاطبة. تربكني حركات لغة جسدهم وكلامهم المسهب، اشعر معها انهم يقومون بأشياء خارقة للعادة لا قِبل لي بها، واراني معهم في ضغط كأني احشر في غرفة طولها لا يتجاوز نصف طولي وعرضها لا يتسع أكثر من خصري او يزيد. لو التقيت بالغرباء منهم، ولكي أبدى سلوك عادي لوهلة أولى لا يثير استغراباً من جانبهم؛ فاني أخفق! يلزمني إعادة مشهد الالتقاء عدّة مرات حتى أنتج سلوك طبيعيا لا يوحي للآخر انه امام شخص غريب الاطوار وضعيف الثقة بشخصيته، وفي النهاية قد يفسد اخراج التصرف المنشود واقع في اسر التلبك المحرج! أنّى للحياة الواقعية ان تتيح خلق هذا التعدد في إعادة صناعة المشهد كما في الأفلام والمسلسلات. اشعر أحيانا أني من مخلوق من طينة رجال الظل الذين يتقنون إخفاء افعالهم عن نظر البشر. لذلك صرت من عشاق الكتابة في الاتصال مع العالم الخارجي لأنها تجعلني غير مرئي امام المقابل وتخفي ملامحه، وتمنح لي الثبات الانفعالي في إدارة الكلام معه، وترشق خوفي

المرتبك معهم بالإبادة، وتسنح لدماغي صفاء ان يتروى في الردّ ويقدم النص بالشكل المحسّن بعد عمليات التهذيب والتقليم له، ولذا كان من حُسن حظي أن واكبت بزوغ تطبيقات المراسلات الكتابية الالكترونية، فأجد فيها أحيانا متنفس اجتماعي محدود أستطيع من خلاله الحديث بتلقائية لا أنشغل معه بانزعاج مشاعري المضطربة كما يحدث في الواقع.

من الإجراءات التي شددت بها ازر نفسي، خطة نقل إلى كلية أخرى باختصاص الزراعة -وقاية النبات-، والتي يتواجد بها ابي كأستاذ جامعي يدرّس فيها. خطوة لا بد منها لأقضي بها على هشاشة الوحدة المرضية التي قد تخرب كل ما شيّدته من تقوية وضعي النفسي، ولا أفضل من الاب كفيتامين بشري تتعكز عليه في مقاسمته مشقتك، وهي خطوة ساهمت في رفع منسوب التفاؤل بالنجاح. كان هذا الاختصاص الجامعي لا يروق لنفسي على الاطلاق وهيهات ان اقبع مستقبلي فيه، عقلي لا يستملح العلوم التقنية والعملية التي لها صلة بعمل اليد ومواقعة عالم الطبيعة، ولكن الامر كان عندي هو تحدي إعادة استمرارية حياتي الطبيعية والاندراج فيها على قدر مقبول، وإعادة تأهيل لشخصيتي المنهارة وبناءها من جديد على مهل بدلاً من التفرج على اعتقال المرض لها. اخترت هذا المكان ليكون مختبر يختبر قدرتي الحقيقية على مواجهة العالم في أجواء المرض، وضحيت بالرغبة الدراسية التي ارنوا اليها في سبيل ترميم ذاتي. صراع محموم في استرداد كثير من توازن وانتظام

نفسي او تجهش الى قعر البوار. منازلة انا المنشطر فيها الى طرفيّ صراع، وجزء مني يجب ان ينتصر ويهزم اخر منه، وانا الوحيد الشاهد على حماوتها والسامع لقعقعة اشتباكها. مَنيّت النفس ان لو حصل لها الإصلاح المعافى المرضي نسبيا، فسأقوم بترك الدراسة في هذا الاختصاص الزراعي نحو ما تصبوا اليه من كلية علمية. كنت اعوّل على الصمود الراسخ في الأيام الأولى من الدوام، لأنها القاعدة التي ستحدد مستقبل بقائي فيما يلي بعدها. رفعت من مستوى الاحترازات والاحتياطات، فاستعنت مؤقتاً بجرعات مخففة وبسيطة من مضادات القلق هندست اخذها بمقدار منضبط، ومؤسسة على استقصاء علمي تُقصي خطر اخذها العشوائي، او ما قد تجره الى ادمان شره. وافرغت جهدي وامليت إلى الإعداد كل ما توافر وتذلل لي. مضيت العزم وتوكلت على الحيّ القيوم في بداية موفقة انهي به هذا التيه والتنكّب عن مسايرة الحياة ومساورتها، هكذا كانت تحدوني روح الامل الحذر وانتظار انتهاء العد التنازلي بداية العام الدراسي الجديد، والذي ما بقي منه إلا شهر ونصف.

في ثنايا ذلك، وقع ما شرد عن الحسبان ان يضعه في احتمالاته. بدأ الامر عندما أنهى النوم احكام سيطرته على الوعي، وفتحتُ عيني لأجد الصباح يستقبلني بأوجاع تجري في اوصال العظام، ودبيب تنميل يسري في الياف الاعصاب، وخمول يشدني الى للالتصاق بالفراش، وشيئا من ضيق التنفس يخربش في صدري، وراسي لا يكاد يستقيم

منتصباً، وأشياء أخرى.. أرسلت تأوهات خفيفة واعقبتها بأنين الخوف الذي أصبح يُزجي وقته ويخرج كلّما عنّ لي الم ما. واستمررت على ذلك وذهني القلق طفق يشرع لي قائمة احتمالاته عن هذا الوافد المستحدث، هل هي وعكة عابرة مثل الانفلونزا؟ أم شيء مقيم سيخض حياتي ويشفعها بخراب آخر لا أطيقه؟ ربما هي رواسب نوبة هلع حدثت اثناء نومي. وسواسي القلق غير عادل في ترجيح الاحتمالات وفق المنطق، ويميل إلى اجتباء أشرّها فانتفض ذعراً، وادراكي بألم جسدي يحتدّ عن السابق. اكافح بعقلي لقطع هذا الجزم القطعي القهري للوسواس باختياره كفة الامراض المستعصية، ويبث عقلي بعسر نشرة التروي بان أوان الحسم لم يحن بعدُ، وهذا شيء مما يبت به التحليلات المختبرية والطبيب! إذا بقيت لوحدي مع هذا الهوس سأجن، واستدرج منجراً إلى القناعة السوداء بنظرته غير المبرهنة، واحتجازي لرأيه تحت تأثير تكراره. وفي غمرة المشاحنة الذهنية ترفقت الذاكرة بحالي، واومضت برقية من الماضي حول مرض فقر دم بسيط ألمّ بي واعراضه مما تشابه اعراضي الحالية، واستبشر عقلي بهذه الذكرى وشكر الذاكرة عليها، واستطاع بها ان يثقل من معيار كفته، ويقرص اذن قلقي المتطرف، ويكبح من إرادة هيمنته المطلقة، وتحرير احتمالات إيجابية كأن يكون الامر "سوء تغذية" ناتج عن قلّة طعامي الذي انبلج عقب نكبة تلك الليلة.

استمر السجال في عقلي الذي بات ارجوحة بين التوتر والامل، ولكي تضع الحرب اوزارها فيه، أعلمت اهلي بما حصل حتى أخذ موعداً

مع طبيب يحق الحقّ بكلماته، ويمحق دابر النزاع، وأقف على كُنْه وجع جسدي. كلما اقتربت سيارة الأجرة من العيادة يتضخم خوفي، ولمّا لاحت لي من بعيد، شعرت ان قلبي أصبح كرة تتحرك بعشوائية سريعة في جميع جهات قفصي صدري، وكأنه يريد ان يحطم اضلاعه ويثب هارباً منه. زرت فيما سلف من حياتي العيادات الطبية بثقة وهدوء ولم أكن اراها كنظرتي لها حالياً. اجتزت عتبة بابها وكأني ادخل الى مشرحة جثث يحفظ فيها الموتى، وبداخلي اتشوق الى نفحة رباطة جأش ضد شرر الوسواس الذي صار هواء يصعب مصادرته والسيطرة عليه. جلست على مقعد والتظاهر بالثبات اشبه بمسك شجرة صبار في يدي. لا أستطيع الشكوى مما يلم بي من انحلال أعصابي، فذاك مما ينافي كبريائي وكرامتي. في خضم هذا الاحتدام، نكصت الذاكرة الى الماضي السحيق وادلت لي بحادثة عملية جراحية بسيطة كنت أجريتها طفلاً، واسترجعت لحظات خطوّي الثابتة لوحدي الى صالة العمليات دون ان تعوي العيون بالبكاء او أصاب بهلع يجعلني أحجم عن تأديتها والتعلق بأذيال عائلتي، الان جزئي الرجولي الخائف يستغيث بشجاعة جزئي الطفولي أن يرجع ويمنحه تمالك نفسه! انقلبت الأدوار وكأن نموي النفسي يجري عكس سنة الحياة! اسرح النظر في المكان والاحظ اللون الأبيض المنتشر فيه لغرض ارسال دلالة الصفاء والاشراق المنبثة منه إلى قلوب المرضى الناظرين اليه، إلا إنّه لم يستطع ان يربط على فؤادي بشيء يخفف من لهثه الواجف. الايحاءات التي يهيجها المكان في وجداني يعطيني انطباع بانه الجزء الثاني من المقابر! أتطلع الى القابعين من حولي، ويستوقفني رقبة

شخص فيها انتفاخ من جانبها الأيمن، ابلع ريقي واتحسس بكفّي جوانب رقبتي إذا ما كان فيها برعم انتفاخ خارج لتوّه، فلربما لدي مثل الذي عنده، فوجدت سطح جلد رقبتي مستويا ضمن حدّه الطبيعي ولا نتوء بارز منها، فتنفست الصعداء! أمعن في كثير من الوجوه المتهالكة، منها من يستنفر كافة شهيقه، ويعلو صدره ببطيء شديد بالكاد يناوش الاوكسجين الذي يقطّر عليه تقطيراً، وآخر جالس على كرسيه المقعد وقد اختفى اللحم الواقع بين جلده وعظمه من الهزال المروع وغيرهم... كانت حالاتهم المرضية يتلقفها الوسواس بتوحش ويعيد صناعتها بخلق تقمّص وجداني بي وكأني في أجسادهم السقيمة أعاني منها، أو مجمع ينصب فيه حالاتهم وأدركها بعمق وكأني المصاب بها حصراً وليس هم، أو أن ما أعانيه من الم جسدي سيتبلور إلى هذه الاشكال التي اراها امامي. افطن الى نشوء وسواس فرعي هو "الوسواس المرضي" الذي يجعلني قابلا لامتثال أي صورة مرضية أراها في آخر، ولا يبرء الشك منها حتى احصل دليل براءة الفحص وخلوها مني! هذا القلق الوسواسي يحشر انفه ويزيد من ترهلات الألم عن حجمها الأصلي. امتعض تأففاً من هذا الحال الذي لا أدري هل اركز فيه على المي الجسدي؟، أم على الوسواس الذي يضع من عنده احتمالات شرّ ما خلق الربّ من امراض؟ المرافق الذي معي يلاحظ حيرتي ويقول لي: «بيك شيء»؟ فأقول: لا...!

اخرجني من هذه الدوامة وصول دوري في الكشف ودخولي على الطبيب الذي بدأ يفحص ويُمعن النظر في جسدي عن طريق ادواته

وفضحت سمّاعته الطبية خفقات قلبي المتوترة، ثم طلب ان اجري فحوصات مختبرية شاملة للجسم. غرس موظف المختبر الابرة في وريدي لغرض اخذ عينة الدم، فلما جاوز المسحوب منه 10 % من حجم انبوبة الابرة استنفر قلقي، وطلبت ان يكفّ ويكتفي بهذه الكمية ولا يملأها عن بكرة ابيها، لاحتمال ان يكون ما لديّ فقر دم، وجرّ دفقات عالية منه قد يزيد حالي انحطاطاً! اجابني بابتسامة.. فقهت منها سذاجة طلبي وحشوي الموضوع بشطحات لا تسترعي كل هذا التهويل، فخجلت من نفسي وكرهت تلاعب الوسواس كما يشاء بي. عندما تسلّمت ورقة النتائج وشرع الدكتور بقراءتها صامتاً، كنت أراقب معالم وجهه وأستشف مما قد يندّ عنه من ايماءة، أعرف منها غيباً مدى خطورة وجعي دون الحاجة لتلاوتها مفصلاً على سمعي، إلا انه كان محايداً لا يشي بشيء. اعصابي وصلت الى اوْج التوتر والانشداد، وتخشّب جسمي من وقْع انتظار النطق النهائي من قِبل الطبيب، داخلي يتوسل ويبتهل بان تتلو شفاهه شيئاً غير مجلجل وبالأخص فقر الدم.. هيّا قُلها، ونِذراً إن تفوهّت بها أن اتصدق بكل ما املك من مال. فجاء جوابه: «ما عندك شيء»! كان دماغي مغلقاً ودوغمائي على تعليق الامر بشيء خطيراً او بسيطاً، ولم يعلق بباله ان يحال الامر إلى لا شيء! شددت بغيظ على مقبض الكرسي امتعاضاً على تقريره النهائي، جنحت بتفكيري غير مصدّق ما قاله ومتسائلاً، هل أتوّهم كل هذا الوجع؟ هل بدأت اعاني الانفصام؟ لا يمكن ان اكذّب إشارات اعصابي التي تنذرني بوجود خلل في جسدي قد ظهر وبدأ بالانتشار. التقط كلمات من حديث الطبيب، وأقول بداخلي: هذا يهرف بما لا يعرف!

وأتهب للرد ولكن الخجل يزع لساني من مناظرته، وصرفه عن وجهة نظره، وشتمته في سريرتي إذ كنتُ بحاجة ماسّة الى الاعتراض والرغبة بإخراس ذلك الفم الذي يهب منه عجاج اوكسجين يضاعف من حرائق غضبي. المكان صار عبأ خانق على نفسي، وكأني معبئ في انبوب قَمْع السوائل من فرط الإحباط الغاضب الذي ارزح تحته. رأيت الطبيب ينتهي من كتابة وصفة ادوية للمقويّات ويختم حديثه بتمنياته العاجلة للشفاء، سخرت بسرّي وقلت: ألم تصدر حكمك بان لا شيء عندي، فكيف تتمنى الشفاء وانا معافى حسب زعمك؟ نسيت ان المنطق لا يسري سلطانه على كلمات المجاملة.

خرجت من العيادة لأتشرب بحبوحة المكان خارجها فاستروحت قليلاً، ولكن سرعان ما فترت هذه القِلّة عندما سمعت مرافقي يهاتف اهلي بالبُشرى: بان لا شيء بي! فبدأت تتشاجر شرائط القولون بداخلي وتوسعني الماً من بدء نشوء تواطئ عام يُنكر ألمي. لا يجب ان ادع الأمور تزيغ إلى استنساخ معاناة المرض النفسي، وطيّها في دخيلة نفسي أتجرعها صاغراً صامتا بلا إسناد خارجي يُشايعني في تفويت الفرصة على هذا الألم الذي يريد الفتك بعنفوان جسدي. لن اترك الوضع على عواهنه يمضي كيفما اتفق، واجمع على نفسي مرضيْن وأبطش على نصف الحياة النابض في عافية جسدي. لن اقيّد الفاعل لهذا الألم في غياهب الغموض من اول محاولة. جسدي بدأ يتقوّض وبعض امكانياته طفقت تتفسخ، والتعب يهرول اليه أسرع مما كان. هناك تغيّر ملموس إذا

لم أبطله وهو برعم غضّ، فانه سيصبح جائحة تُرْدي جسدي إلى مهاوي الردى، ولن ينفع وقتئذ ندم أو علاج. بالكاد طاقتي تُقاسي الألم النفسي فكيف لها أن تسع مرض آخر؟ قضاء مُبرم ساحق على حياتي لو حصل ذلك. هو ليس مرض نفسي حتى اضطر الى السكوت واتجشم لوحدي تعنّته المُهلك، لا بد ان أجد أسباب لهذا الألم الجسدي حتى اكتسب التعاطف او المبررات المقبولة فيما لو اتيت او امتنعت عن شيء بسببه. ضرورية هذه الاسباب لأسكت بها افواه قد تلوك الكلام السيء بحقي جراء القيام بأفعال نابعة من هذا الألم الجديد. ولربما كان هذا الطبيب مخطئ في تقديره، بل اكيد ان الصواب جانبه ولم يوفق اليه، ولا يمكن ان اضع حالتي رهن رأي واحد يقرر مصيرها، وانما عرضه على اثنين او ثلاثة حتى يُكمل او يبرز ما قد يقصر او يغفل عنه آخر. لذا اصررت امام اهلي بان عيد كرّة الفحص عند طبيب غيره. وافقوا مُرغمين بعد سجال وممانعة منهم، وردود عنيفة وعاطفة منفعلة اتجاههم. فعرجت الى طبيب موصى به وذا صِيت وحنكة في ممارسته، فوجدت ان شفاه الطبيب الأول هي من تتحدث وتُعيد الادلاء بذات التصوّر حول جسدي وخلوه من اختلال فيه! انفعلت وفقدت رشدي. وذهبت ملثّماً إلى ثالث من وراء الجميع...

هذا الخفاء كبّدني خسائر فادحة، أعلن عداءه اتجاهي، يشتهي طمر الامي في اقبية الظلام حيث لا تطالها الابصار! تحريت الاطباء واجريت الكشوفات ونقبّوا في منجم الجسم، فما استطاعوا ان ينتزعوه الى

مسرح الابصار يُرى ويُسمع، تواترت أقوالهم على عدم وجود سُقم حقيقي في بدني. احالوا فشلهم الذريع في اكتناه سبب التوعك الى توهّمي او أني أغالي في تقدير أوجاعي، وانّ ما بي هي اشياء بسيطة ممكن ازالتها ببعض الحلول التي ستقودني وترتد بي الى سيرتي الاولى من السلامة الجسدية، ولكني اسميتها حلول ترقيعية او رتوش يحاول بها الطبيب التغطية على عجزه. هل في محله اتهامي مهارة الاطباء بالضعف، وأنّ علمهم هزيل لا طاقة له على الاحاطة الدقيقة بالمرض، وأنّ قدرتهم التحقيقية ضئيلة في كشف المرض متلبساً بجريمة سرقة الصحة؟ أم ان مرضي نادر لم تسجّله قواميس الامراض، فجهله الطبيب؟ تطور العلم وعمل المعجزات، ووصل الى الفضاء الشاسع فصال وجال فيه، وانتهى الى اكتشاف كائنات دقيقة لا ترى بالعين المجردة، ولكن عجز عن اتخاذ التدابير في كشف مرضي!، هل مرضي بارع في التخفي ويحترف لعبة الغميضة؟ من يخبره انه قد أفرط في الاختفاء وان الباحثين عنه اصيبوا بالضجر! أين يقع التلف في جسدي؟ السؤال الذي لا ينفك عن زيارة ذهني يومياً، هل أضع اعلاناً في الجرائد وجائزة مُجزية لمن يعثر على مكانه ويسلمني اياه؟ يبدوا ان قارة المرض في عالم جسدي تحتاج رجل فذّ من طراز الرحّالة كولمبوس لاكتشافها! لدينا عيون خارجية لأدراك اشياء الكون، فلماذا ليس لدينا عيون داخلية تستوعب ببصرها كل بقعة داخل الجسد، ومن ضمنها تلفي؟ اخترع الانسان عيون صناعية تستطيع ان تنفذ وتشاهد كل شيء في الجسد هي الادوات المختبرية، وعلى ما يبدوا انها كانت حاذقة في كشف خرائط جسمي السليمة وأصيبت بالغباء أو ربما

بالعمى في تلمس الاشياء التالفة فيه، او لنلتمس سبعين عذراً لها ونوعز الامر الى ظُلم سوء استخدامها بطريقة لا تؤدي الى العثور على ضالتِه وهو التلف! او ربما تلفي يحتاج الى اختراع أداة جديدة ليُزاح الخمار المسدل على وجوده! يظهر ان البحث عن المكان التالف في جسدي كالبحث اليآس عن اسطورة قارة أطلنطس لا جدوى من إعمال الجهد فيه...!

أيام اعيشها في ضنك حالك، وكل شيء امسكه قد انفرط وخرج عن سيطرتي، لا قِبل لي بفعل أي شيء من اعياء التفكير واجتماع عاهلي الى ذلك المرض الجديد وما سأفعل حياله. الوسواس القهري يستثمر الوضع، ويملأ فقر المعلومات تجاه هذا المجهول وينصّب من عنده الامراض الفاقرة، فمثلا أرى بقعة حمراء صغيرة فافزع وأظنها "سرطان جلد"، ثم لا تلبث ان تتوارى واكتشف ان اللون جاء نتيجة كبس الجلد بقوة على شيء ما. دوامة من الاحتمالات تتردد في ذهني ولا املك لها ايقافاً. اريد ان اعيّن أيّ مرض واجزم به حتى لو كان كذباً، لأنهاء سلسلة تدافع احتلال عنوان مرضي. الاستقرار على داء وإن كان خطيراً، خيراً من الانتقال المبلبل المتوجس بين احتمال وآخر، فيلعب بعدّاد نفسيتي صعوداً وهبوطاً. أفكر في خطورة هذا البعبع الملغز، هل سيبقى في هذا المنسوب ولا يتزحزح؟ أم سيمضي رويداً ليتعمّق ويجتاح قوى جسدي ويطرحني على الفراش لا ابرحه؟ أمل واهٍ كنت متعلق به قد قطع، بعد الانتهاء الكامل من ابتلاع أقراص المقويات التي لم تنته إلى فائدة، وما قضمته من

حلوى التحسّن النفسي الذي انتشيت به، قد آل الى اندثار لا أعول عليه في إقامة حياتي بعد ان تهشّمت قوائمه جراء خذلان الجسد له.

برقت خاطرة ان استعين تارة أخرى في البحث بعلّامة الدنيا وجهبذ عصرنا "جوجل"، لعلّي أجد في نتائج بحثه ما يحاكي حالتي، فكما انه يخلق من الشبه اربعين، فلربما أجد أربعين اخرى بمثل حالتي تماما لا تختلف عنها بصغير أو كبير! فمن غير المعقول ان اكون منفرداً من بين الخلائق بهذا المرض، فلا بد من شركاء يقاسموني فيه، ولربما تنقاد لي المعلومة كما المرض النفسي. ولكن هذه المرّة كان الامر مختلفاً وغير سهلا ولا بمسلك سديد، إذ كانت الامراض العضوية محيط أكثر شمولاً وتنوعاً وعدداً، ويعسر غربلتها واستخلاص مرضي من بينها، والتفتيش فيها لم يزدني إلا ضياعاً، وهي صحيح أنها تتباين ولكن يوجد فيما بينها مشتركات واسعة في الاعراض، فيؤدي هذا التشابه الى تلبس وضلال في التفسير، وأظن متوهماً أن أعراض مرض معيّن هي نفسها ما عندي، وجسدي واقعاً في حِلّ منها، وان هناك اختلافات دقيقة خفية فيما بينها، تحتاج حاذق ليجد الافتراق الذي يَقي من الوقوع في فخ الاشتباه الظاهري. وكذلك فان بعض الرُواة المستعرضين حالاتهم المرضية لا يملكون إجادة في التعبير، ويضيفون الى حالتهم ما ليس فيها، أو يغفلون عن ذكر بعضها. كانت محصلة تجربة البحث كارثية، إذ نسبتُ الى نفسي امراضاً واعتقدّتُ بها أياماً أفكر في علاجها، ومنها ما كان يجعلني اقضم اظافري من خطورتها، ثم يتبيّن عماية عقلي في عُزوها الى جسدي

فأسارع الى التبرؤ منها، والارتداد لحيرة مستعصية عن الإقلاع. بصيص منفذ أمل كنت اعول ان يكون فتحاً مبيناً، فاثبت عدم غناه ووعورة وطئه.

جاء القدر بنازلة تعصف بحياتي تارة أخرى، وسانوء بما يزيد عن الألم السابق، وانطمس وضعي سوءاً فوق سوء. كنت اظن أني قد أفرغت وافقرت من الالام، فلن اتعاطى منه حُزم أخرى، أو قد استوفيت نصيبي منها فلا يملك صبري ان يحجز له مكاناً شاغراً. سكنت إلى ان الحياة ستكون رحيمة بي وتتوقف إلى هذا الحد من ارسال قسوتها. خُدعت ولدغت في جحري باعتقادي الساذج ان الحياة عادلة في قسمة الألم على الشخص، وضُللت ببلاهة ان الحياة منصفة، إذ بعد هذا الألم ربما ستكافئني بسعادة توازي قيمته لا أن تشتط فيه! الان انقلب تفكيري: بأن الحياة تقبض وتبسط يدها بعشوائية، فلا استغرب أن تختصني مستقبلاً بألم آخر أشدّ نكالاً من أسلافه. أن أكفّ عن الاستفهام بـ لم وكيف ولماذا يحدث كل هذا لي بالذات دون غيري. إذا كان ما ألاحظه ان الظلم يكاد يكون هو الأصل في الكون، فلماذا اطرح أسئلة العدالة التي تظل تجوب في الفضاء ولا تستقر على يابسة الإجابة؟ ليس من الضروري ان أُسوّى مثل غيري مادام عمرنا قصير لا يتأبّد.

أستكين الى وحِدة عاصفة تزداد تنوعاً في حياتي، وحدة يدي الممدودة التي لا يد أخرى تشبكها، وحدة مشاعري وعجزها عن بلوغ مشاعر أخرى تَحدب عليها، وحدة ألمي الذي لا يجد من يثرثر له، وحدة رغباتي التي لا أجد من يشاركني فيها، وحدة حاجاتي التي لا أجد من

يقضيها، وحدة روحي التي لا تجد مرآة روح أخرى تنعكس فيها، وحدة أجوبتي التي تنتظر الأسئلة لتخرج وتفضفض، وحدة ذاتي المخفية التي تنتظر من يكشفها، وحدة دموع ولا مناديل أصابع حانية لتمسحها، وحدة أفكاري التي تترقب من يلتقطها بسنارته ويشاطرها عقله.

ما كنت أخططه لأجل الجامعة كان خطى رمل قد عفت عليه رياح هذه القارعة الجديدة، وأصبح وضعي يميل نحو مزيد من الشذوذ الذي يسد مناحي الانخراط في الحياة ولو من خُرم. نكصت الى دائرة صفرية شددُت فيها على ذاتي بالإنكار، وطمست وعي عنها بالشرود الى اقاصيّ بعيدة تُقصي الاعتبار والنظر إليها، واعتبارها -ايّ ذاتي- شيء مستأجر حُزمت اليها قهراً فلا اعتبرها شيء ولدّت معها بالطبيعة. أن افكّك الاهتمام بها حتى يَبطل التفكير المكثف المرهق فيها. أقوم بتسوية جميع الأشياء في قبضة كفّي، وقذفها الى العدم المحض حيث السكون المطلق الذي كان صفة الوجود قبل الانفجار العظيم. كل ما هو صحو ويقظ أقوم بالضرب على آذانه، فيخلد الى سبات يعفّ عن الاحتكاك مع غيره. أُسّ الألم تجاذب الأشياء نحو بعضها فتستمر المأساة، فأوقع بذهني بينها التفريق والعزل، فتذبل كورقة محترقة تتناقص أطرافها الى ان تصير لاشي. الكون بحسب قانون الفيزياء يتمدد في سرعة رهيبة وبوعييّ يعود ادراجه بعجلة الى الانكماش والانكفاء. إرادة الموت طشّت واستوثقت بي وكنت اراها ممثّل الخير الأعلى في الكون التي تريد للبشر خلاصهم ونجاتهم، فهم زُجّو في عالم مصاب بالنقص والآفات التي تكيد

بهم إيلاماً لا يُعرف له انقطاعاً، وكلّما هزموا ألم خرج لهم اخر من صلبه لا يتوقعونه، ولا يصفوا لهم يوم إلا وتتابعت أياماً طويلة بالكدر والتعس. قاسٍ هذا العالم الذي لا يرعوي عن دعس أنفسهم الهشّة، يضحك على كفاحهم من اجل ترويضه، ولهُنينة يستسلم طوعاً لهم، ويستمتع لاهياً بغرورهم المزهو بالسيطرة عليه، وإذا به يفك الوثاق عن سجنهم المزيف له، ويُعْمل فيهم العذاب الأليم الذي يمزّقهم من الضعف والخوف!

إرادة الموت هي ما يعيد لهذا الانسان كرامته المهدورة التي تستباح حتى من أخيه الانسان، الذي لا يفتأ يتسلق عليه لأجل مآربه الخاصة، ولا يأبه إذا ما كُسر عموده الفقري وانشلّت حياته تماماً. بين البشر صراع محموم غير عادل ولا متكافئ بالقوة فيفوز الأقوى وهو يحسب أن ذلك بمجهوده، ويغفل متعمداً الظروف التي انحازت لصالحه، ولا يدري لماذا اصطفته دون غريمه الذي لو كانت معه لانقلبت موازين القوى.. إرادة الموت هي العدالة التي تسوّي بين الكل وتنهي هذا الظلم الأصيل الذي يرفع اقواما ويخفض آخرين حسب اهواءه ويبّدل ادوارهم بعشوائية غير مفهومة.. قد اجمعوا على وجود غريزة "حب البقاء" وانا اسميها حب العذاب، فكل لحظة متجددة تهب للعذاب وقوده ليمارس مهامه بحق الانسان، وهذا العقل الذي يحسبوه مفخرة، وبه نالوا قصب السبق على بقية الموجودات، ما هو إلا أداة تضليل بيّد تلك الغريزة ليساهم في تعزيزها وترجيح هوى الانسان ليقع في غرامها ابداً. أداة تُغطي على الضعف الإنساني عن طريق انشاء بعض الإنجازات البراقة لنحسب

بعدها ان قدرة الانسان بلا حدود، ويتغلب على بعض الأشياء المعضلة فيستطير فرحاً بانه الجالس على كرسي الكون متفرداً، ويخترع بعض الأشياء الرفاهية ليبشر بأيديولوجيات الفردوس الأرضي القادم لا محالة، وكل ذلك تكذيب آفك على حقيقة وهن الانسان العاجز الذي يُراد له ان يكابد في سراب، ليثبت ذاته وأحقيته واهميّته في الحياة وقدرته على استنباع السعادة فيها، أما الحقيقة فان مقاس رداء العالم أكبر من حجمه بكثير ولا يلائمه.. هي إرادة الموت يجب ان تنتشر وتصحح غلطة تاريخ طويل من خداع إرادة الحياة وحب البقاء للإنسان الذي يريد تشيد بناءه على شيء يلْفِظه باستمرار ولا يقبله، هذه الروح الساكنة في اجوافنا بلاء عظيم ويحسبوها شيئا سامياً راقياً، وانتزاعها بإرادة الموت هي ما يستأصل شأفة الألم ويزجر عن اقحام الانسان في خسارة الحياة. العدم هو المكان اللائق بنا نحن الأنس وإرادة الموت وسيلتنا لذلك. وعلى امل ان يستوعبنا وجود آخر يناسب قدرتنا، فلا تصدقوا زعم من يقول بإمكاننا توسيع قوتنا ونوازن قوة هذا العالم، هيهات هيهات لما توعدون. انظروا إلى الجمادات من حولكم كم هي مرتاحة، فلو تحوّلت او مزّقت او ضربت او أي شيء يُفعل بها فلا تشعر بشيء، لأن الموت بداخلها هو المنتصر والذي جنّبها مصير الحياة..

بدأت الاحظ ان ملذات جسدي تمارس انحدارها وغيابها والتملص مني، أطراف الحركة التي كانت تشجب تقييدها وتعطيلها بفعل انطوائي، قد بدأ ينهال عليها التعب وتستلم طوعاً إلى السكون الذي ارتضيته لها.

المسافات الطويلة التي كنت اقضيها في الجري صارت من مخلفات الماضي، فما عُدت اجاري الجري وتنقطع انفاسي واحني ظهري واضع يدي رُكبي سريعا إذا حاولت الركض، عافت الحركة أفقها المديد عندي واختزلت الى المشي فقط. الاكياس الثقيلة ودّعت تحميلها الى الابد فلا قدرة لعضلاتي التي بدأ يصيبها الضمور بالقدرة على نقلها من مكان لآخر. ولربما اقضي وقتا ابحث عن شيء وهو بقربي لتنامي قلّة تركيزي. معدتي تكتفي بالكفاف والقليل من زاد الطعام كأنها معدة الناسكين الذين يروضون معدتهم على الخلاء من الغذاء. وعندما اتحرك لفترة ليست بالكبيرة، فان هناك شيء يشدني الى الارتخاء على السرير او الجلوس في أي مكان، التمدد احبّ إليّ من الوقوف الذي لو اجتزت به شوطاً فاني احسه عقوبة من كثرة ما ينالني من تعب. اصبت بلون جديد من التحاشي مع الناس حتى لا اضطر لان يكلفني أحد بعمل قوامه الجسد فاعتذر له واتعلل بمرضي، فلا اريد ان اسمع كلمات الأسف والأسى والرثاء على الشباب الضائع مبكراً. قد انطق كلمة "مرضي" لو كنت طفلاً او شيخاً عجوزاً، ولكن لا أستطيع ان انطقها وكأني أقدّم طبق شبابي حاملاً عليه ضعفي بدلا من جوهرة حيويتي. هناك هجرة تجري على قدم وساق بداخلي ومن غير أمر مني، هجرة كثير من الأشياء التي تعتبر رأس مال الشباب وألقه في الحياة، وهناك أشياء رثّة وبائسة استوردها من شيخوخة لم يأتِ زمانها بعد. الاحظ أشياء جميلة تخلّت عن حاضرها معي وتقبّلت بحفاوة ان تنتمي للماضي. جسد كنت ارتجي منه إعالة على إجرام مرضي النفسي بحقي، والتكفّل بحفظ اشياء من متاع الدنيا تسترزق منها

سعادتي المترنحة؛ قد اضحى شحّاذ لاهثاً يتضرع ويفتقر إلى ركن شديد لينتصب واقفاً على قدميه. بقعة الضنك تنتشر في حياتي وأشعر بأني قذفت إلى عالم غير مهيأ له على الاطلاق، أقول يا ربّ ليتني جزء من السماوات أو الأرض التي عرضت عليهم الأمانة فامتنعن عنها اشفاقاً من وطأها الثقيل، فارتاح من عبأ تكليف الانسان! تهرسني قساوة مفرطة حتى ان كثير من الخبثاء قد يتوّرعون عن توليد مثلها، أو قد لا يعاقب القدر افعالهم الشريرة بمثل هذه القسوة. يقولون لي دائما: أنّي شخص طيّب، فإذن ما جزاء الطيبة إلا الطيب، فلماذا لا اتلقى إلا الألم يعقبه الألم؟ ربما انا لقيط ملعون وجد في الشارع وانظر الى المرآة لأتأكد من شبهي لوالدَيّ! لا أجد إلا الفراغ يلطمني عندما اسأل عن أسباب كل هذا التوحش؟ يبدوا ان الجواب من عالم الغيب ويحتاج وحياً منزلاً حتى اعلمه ولا املك رفيقا كالعبد الصالح الخضر حتى يجيبني كما أجاب موسى -ع- عن أسئلة الالام غير المنطقية والتي لا يدركها ألمع العقول.

عندما يظهر مرض للإنسان فان أول ما يفعله هو البحث عن علاجه، إلا أنا تدنّى سقف مطامحي الى المطالبة بحق الاعتراف بوجوده وكأنّ علامات الوصول اليه قد طمست! ولا توجد نقابة مرضى اشكو إليها المطالبة بحق الوجود لمرضي! هذا ما شغل بالي مع الدُنْو الوشيك للعام الدراسي المقبل، وبعد أن وأدت رغبة العودة للانخراط اليه. كان لا بد انتزاع هذا الحق حتى أريح جسمي ونفسي من مصاعب غفيرة كانت ستنتظري لو التحقت بالجامعة، فبادرت الى استخدام لساني في الإفصاح

عن ألمي الجسدي، ولكن أراهم ينظرون لي وهم لا يسمعون إلى حسيس مأساتي المسفوحة شرارتها في حديثي. ألم يخلق الربّ اللسان كترجمان عما في الداخل فلماذا فشل في الاقناع؟ هل لأني لا أملك البلاغة الكافية او هل تراءى للآخر أني أتكلم من جُعبة الأوهام؟ أو أني أتكلم بأشياء صعبة التصديق؟ ألْحد الناس بمرضي، لأنه لم يتجسم لهم ملموساً وكأنه شيء غيبي، ولا املك معجزة نبيّ حتى أُرغمهم على الإيمان به! أو قدرة قلْب باطني حتى يصبح ظاهراً للعيان! أو رشوة المرض حتى يتكتّل في ظاهري! وخلصت إلى أن نقل اوجاعي على الملأ لا يعد دليلاً على وجودها حتى تشفع بشهادة طبيب، فلو أتيت الناس بكل آية على أنّي عليل ما صدقوا كلامي، ولو ادلى الطبيب بدلوه ولو بحجة واهية على أني معافى هرعوا الى تصديقه! فالألقاب العلمية الفخمة يذعن لها الناس بسهولة، والطبيب عالم وله سلطة الاقناع وتسليم الناس له، ولربما لو املك شهادة الطب وعندي لوحة العيادات التي تسرد اختصاص الاطباء في بعض اجزاء الجسد، فوقتها قد يُؤمن الناس بانّي مريض! وما زاد الطين بلّة وتشكيكاً بكلامي، هو قدرتي الفائقة على كتم الاضطرابات المرضية التي تموج بداخلي واخمادها من الظهور على العلن، كانت قشرتي سميكة يتوقف عندها ممشى الاعين الناظرة، ولا يتجاوزها الى ما دونها من طبقات وحتى لبّها، افتعل عن عنْوة الانكشاف بصورة صحية ولا أستطيع ابداء الشحوب المرضي على بشرة ذاتي، تفلت الشكوى من لساني ويتلكأ في تهجي لغتها المريرة امام الناس، لا أستطيع المواظبة على تكرار شكوايّ وطرحها على الآذان في كل وقت وحين، واستغلال

سطوة التكرار في اعتقال العقول على الإذعان. صحيح أني لا أحب بالبزوغ إلا ثابت الجِنان، ولكن على النقيض هناك ألم يريد ان يسطّر نفسه في كتاب كل امرئ، ويشق دفنه في التربة ويتفرع طليقا في الهواء يراه الجميع. أحسد كثيراً من الناس -وخصوصا النساء- قدرتهم الفذّة في تشريح ألمهم والاستماتة في إثباته ومراجعته والاستفراد بكل شخص حتى يُعلمه، ويكون على بيّنة منه، ويغنموا من قوته ما يريقوها على ضعف وجعهم ليقل تأثيره. اعترف أني فاشل في الترويج الدعائي لمعاناتي ولا املك مؤهلات لسان قوية للدفاع عن ذاتي، وعقد تحالفات وطيدة مع العالم الخارجي -حتى عائلتي- كيّ انهل من قوته التي تمكّن من قوتي. انا الذي كثيرا ما اتُهمّت بالتمارض أقوم برمي العباءة على "مرضي الحقيقي".

فكرت ان أزور طبيباً آخر، ولكن صرت استقبح الدخول إليهم وحرمت على نفسي النزول في بقاعهم. أراها أمكنة مزودة بآلات تعذيب تُحدث مجزرة وساوس واكتئاب في نفسي. هناك اثمل بذكر الموت حتى النخاع واحدس انه يكمن بي من حيث لا أراه، وانّي لو دخلت فسأخرج منها الى المقبرة لا الى البيت! لن أسمع فيها إلا الانباء القاتلة والتي أفضل ان أجهلها ولا اتعذب بمعرفتها، وإذا ما رأيت إشارة او لافتة تدل عليها فاني أغض بصري عنها سريعاً حتى لا تقلق بالي، لا اريد ان ادخلها إلا وانا معافى تماماً او لتغرب عن وجهي. لكَم ارغب أحيانا لو ان الربّ يرفع من سجل البلاء على بني ادم وجود المرض ولوازمه! هناك في تلك الأماكن استبشع رؤية أُناس مثلي يعانون، وأبغض اقترابي من نظائري

من النسخ المرضية، وأحيانا اود لو أني المريض الوحيد على وجه هذه البَسيطة. العيادات تثير بي انفعالات متناقضة، فلو رأيت أحد يبتسم وهو خارج من الطبيب اشاطره بفرحة وأحمد الرب على سلامته، وقد يزاحم تلك الفرحة وحشة وغربة ألمي. تبلْور مستقبلاً وبمرور السنين مشاعر غُبْن غاشم فيما لو ذهبت الى مختبر التحليلات والإتيان بنتيجة تخص قريب لي، او دخلت عيادة لإحجز له، فإنّي أرى نفسي الأحق بفحصها من بين الجميع، ويقودني هوس بأن بقية أمراض الآخرين يجب ان تتوقف عن التفتيش عنها إلى ان يجدّوا حلّا نهائيا لاكتشاف مرضي! ما عندي خطير جداً ويجب أن يقدّم على غيره قبل ان يأتي بحتْفي! لا يجب ان أكون حامل وناقل لغيري، اسعى على امراضهم بأي شكل من الاشكال، وانما يجب ان يكون مرضي هو بؤرة تنصهر وتُنسى فيها بقية أمراض الاخرين إلى أن أجد منه الخلاص النهائي!

الرسالة الثامنة:

سُبّوح قدوس شهرزاد. كان تعرّفي عليك هو موعد للتعرّف على عظمة الانسان وإكبار قدرة الربّ على صنعه هذه الآية العظمى. لو ان الملائكة اطلعوا على بديع تكوينكِ يا شهرزاد، لتراجعوا فوراً عن قولهم إن الانسان كتلة من الفساد وسفك الدماء، ولعلموا ان فيهم جوانب مجيدة تجعلهم يُقرّون أن منهم بشر يعلون بمزاياهم عليهم. أستعرض هذه الايام الاحداث العظيمة التي اتعبت النسيان وحجزت لها وجوداً في تاريخ الثامن من نوفمبر، وتخيّرت منها ذكرى صعود جورج كيندي لحكم أمريكا وأحد أعظم رؤساءها، فأقرنته بذاتِ رقم يوم تعرّفي عليكِ وارتقاءك سُدّة وعِمادة حكم قلبي، رغبت ان اؤرخ ميعاد لقائي الأول بكِ بشيء فخم سَنيّ خالد.

أتذكر لحظتي الأولى معكِ عندما أنزلتِ نص ادبيّ خاص بكِ على صفحة الرسائل العامة في تطبيق الشات الذي التقينا به. فُص نصّ مُحكم الصنعة لفت انتباهي إليكِ، ولؤلؤة وسط خِرق الرسائل البالية التافهة التي تذكرني بالحوارات الضحلة لرواية "فهرنهايت 541" التي تَروي سطحية العقول عندما تفرغ بيد طغاتها. وعندما علمتُ بعد السؤال إنّه لكِ، قُلت: «لا تُهيني عزّة نصوصك في بيئة تُلحد بجمال الثقافة وتسفّه أصحابها، وتقضم من تفاحة الكلام جزء الدود الناخر فيها»! فأجبتني: «إنما هذه النصوص طُعم صيد استقطب بها امثالك من متذوقي الكلام

الرفيع»! فأُسقطت في يدي ولم أحر جواباً. كان الادب من "وفّق رأسينا بالحلال" وصدفة القدر في تقاطع طريقي بطريقكِ.

توالى بيننا الحديث الذي أحدث الدهشة المتوالية في قلبي، مأخوذاً بما تقولين وأبكم، فما اجرؤ في كثير من الأحيان أنّ أُبادلكِ بكلمة. كُنت أعيش في العصر الجليدي المتصلب البارد حتى حدث انقلاب مناخي بمجيئكِ فتصدعت ذاتي وذابت قطعي الثلجية، وما استطعت أمام ذهولي المستمر ان اعاملكِ بمسافة ندّية متساوية. أتحرى متابعتكِ مهووساً بكل كبيرة وصغيرة تفعلينها، وتنْشط ذاكرتي الكليلة المريضة لتسجيل ما يخصكِ لا أغفل عنها، وانّكِ لتعجبين أحيانا من حفظي وتذكّري لها لو استرجعناه لاحقاً، حقاً تفوقت ذاكرتي في ادخار اشياءكِ أكثر من ايّ شخص آخر. أتوخى تواجدكِ المستمر إلى حدّ ان البعض لاحظ ان اسمكِ في أيّ قائمة أسماء في غُرف الدردشة لا يخلو من وجود اسمي، فإذا أرادوا معرفة مكانكِ بحثوا عن مكاني، لعلمهم انّي معكِ، والعكس صحيح. وشبّهني أحدهم باني مفتاح في حلقة مفاتيحكِ لا ابرحها.

كثيرا ما يجافيني النوم بالتفرج عليكِ او الكلام معكِ، وكتبت منشوراً ذات مرة " يقال ان النوم سلطان، فلماذا فقد قهره اتجاهي"؟ وكُنت أعنيكِ به. اتقلب في سريري واتململ عندما أفكر بالإخلاد الى النوم فارجع ناكصاً اليكِ، لا أرتاح إلى اغفائه جفن حتى اتأكد من خروجكِ. أغرق في تقّمصكِ واشتهي نسج عباءة تشبهكِ ارتديها.

يردد لساني أحيانا أجزاء من مقولاتكِ بشكل لا ارادي، احبّ ان أُنْحت على يدكِ، فتصنعين لي زخرفة اسم حسابي او ترتيب معلوماته على ذوقكِ أو اطلب منكِ اختيار صورة لي. اذكر أني مرة قلت لك: لولا انهم سيعتبرونني خنيثاً لوضعتُ صورتكِ الشخصية صورة لي! أميل دوماً إلى اختياراتكِ، فاخذ رأيكِ في أمر او كتاباً من انتقاءكِ او ما هي الطريقة المناسبة للرد على فلان.. في هذه الفترة معكِ نسيت وجودي وأصبحتِ الحاكم بأمري، ولربما لو نادى شخصاً باسم شهرزاد لألتفت إليه ظناً أنّه يقصدني...!

******

تلافيت سبيل الإقناع بعد فشل كل مفاوضاته في جلب إقبال الاخرين إليه وقبولهم به، وبدا ان الامر اشبه باليأس من اقناع ابليس بالسجود إلى ربه، فلم ألْو جُهداً مجدداً في ترغيبهم إلى كلامي والرضوخ له. أخليت الوضع على هواه ونحيت مشيئة التخطيط لأيّ شيء أُقدم عليه، والتويتُ الى جانب العشوائية تسيّرني قادم الايام كيفما اتفق. تزعزعت ثقتي بحرية الانسان وما إذا كانت وهماً او حقيقة. التفكير لا ينجب لي شيء ينقذني من هذا الانغلاق، والإمعان فيه ما يزيدني إلا تشعباً في مسارات مظلمة لا متناهية. وإذا بدأ الدوام فسأمارس الاضراب عنه ببساطة. وإذا ما سألوني عنه فإن الصمت سيقدم نفسه جواباً بعد كل علامة استفهام يلقونها لي، أو ضغطٍ شرس يزاولونه لدفعي للذهاب ومباشرة الجامعة. فكرت بعمل ابتزاز عاطفي والتهديد بالانتحار، إذا ما

كان تيار شحنات كلامهم يصعق نفسي بما لا تحتمله، ولكن كان الخجل والوسواس كوابت بالمرصاد والتصدي لهذه الرعونة ولو تمثيلاً. وفكرت بالهرب، ولكن أيّ ارض تقلّني وايّ سماء تظلّني، وانا المنكفئ الذي لا يملك مضائف أصدقاء يلوذ بها عند المضائق، والوجِل الخجول الذي باتت جرأته في مهب الريح، ولا تجاري مغامراتها المتنقلة التي لا تعرف حدوداً تُحجر فيها. سُقت نفسي الى نكث كل التزام بفعل ايّ شيء للخروج من المأزق، حتى لا انساق الى ضغط إيجاد حل لن يلوح، وأقع في مصيدة اغتيال صبري واستنفاذه وأنا في أمسّ الحاجة اليه. الاستسلام احيانا مفيد، يحافظ على السعرات الحرارية النفسية اللازمة للتماسك من التشتت بلا طائل.

من سخريات القدر إن المرض كان هو ما يريد ايقافي عن الدوام، ولكن سيرغمني على وصله ايضاُ، فكيف ذلك؟ حدث أن اشتريْت كيساً من الفستق ولم اتنبه الى نهاية صلاحيته، فلمّا كُنت آكل منه، جاءت امي وغَرفت منه غرفة بيدها وأكلته، وبعد برهة زمن قصيرة شكت من بطنها وجعاً وبدأت تنتفخ وتعلو ومال وجهها الى الأزرق، وهُرع بها الى أرقي المستشفيات، واكتشف أن بها مرضا خبيثاً كان يُتلف كبدها على مُكث، وبسرية على مدى اعوامها السابقة، وكان هذا الفستق الفاسد الوسيلة الذي طفح به كيل جسمها والقشة التي كسرت ظهر حياتها وإدبارها عنها، والحبل الذي ازاح الستارة عن العمل الختامي للفيروس الذي شارف على تلييف كافة كبدها. هكذا على حين غرّة تفجّرت التراكمات، وناهزت

روحها على المغادرة، والانظار المهتمّة والمتوجسة كّلها يمّمت شطرها. وانغمرت في حيال هذه الازمة المستجدّة، وانتظار ما تسفر علاجاتها من تحجيم مرضها الذي استحكم في كافة جسدها. لذا لم يكن والحال هذه ان أُظهر نيتي العازمة على الركود في البيت وضرب الدوام بعرض الحائط، فهناك رأس العائلة يراوح الموت فوقه، ويجب توفير كل اشكال العناية من تنقية الأجواء براحة البال، وعدم الزج بمشاكل وهموم أخرى جانبية تعكره، فشدّ الاعصاب في الاسرة بلغ منتهاه، ولا يحتمل مقدار نواة فوق جِباههم المُنحنية غماً، فمن عنده مشكلة يقوم إما بكبتها او يؤجلها الى حين الانفراج، ولِزاماً على الجميع ان ينكر ذاته ويندمج في الأم. وأنا سرت في عربة الركب العام واتخذت موضع المتفرج الذي لا يجد لنفسه حقاً او وجوداً مُعبراً امام هذا الكُربة العظمى، وانثنيت عما أوكلت به تصميمي من القعود ونبذ أي نشاط تعليمي، واضطررت الى انتحال الحياة الاعتيادية حتى لا أقلق بال أمي وارفق لها هماً هي في غنى عنه. وقتها كانت تشعر بطلوع فجر البرزخ ولا شيء أسر على قلبها من ان أولادها بخير لا تتوارثهم ضرّاء الدنيا. أيام نحسات انشطر فيها اشتغال نفسي الى قلقين، مسايرة الحياة تارة أخرى، وحول صحة أمي. أحيانا يأتي هم يصغّر من شأن همٍ غيره، وعُسر يُيسر من عُسر آخر. فكان من ضوء تلك الازمة ان جرفت كثيرا من النظر لذاتي والانغماس فيها، ونبهتني الى العالم مرة أخرى من بوابة الالتهاء بأمي، نبع في نفسي طاقات الطوارئ التي تخرج في الأيام الحرجة جداً، كمثل شخص تناسى لسع الحرق في

جلده وهو منشغل في اخماد الحرائق التي وقعت في بيته وإنقاذ ما تبقى منه.

كان هناك تشاكل جزئي بين مرضيْنا قد فطنت اليه من خلال المقارنة. فهي كانت تشكو من اعراض مرضية طيلة السنين السابقة، وترتاد الأطباء فلا يعطوا لها تشخيصا دقيقاً، ومنهم لفّق لها مرض تبيّن بطلانه فيما بعد. وأستمر الموضوع غامضاً حتى أيقن اقرباءها بسلامتها من الآفات الجسدية، ووجهوا لها انتقادات على اعتيادها الروتيني لزيارة الأطباء وبعثرة المال في جيوبهم، وهي معافاة، وما عندها سوى هرطقات أوهام. وقد بلغ مسمعي ذات مرة ان نشب حادّ صراع مع اخوها حول ذلك، لدرجة أني تشجنت غضباً الى جانبها، وقد امسكت الذاكرة بهذا المشهد بالرغم من ان لا شيء غير مألوف فيه يدعو لحفظه، وكأنها باختزانها له تمتلك رؤية استشرافية وتنبؤ سيعيد فيه التاريخ نفسه معي، وتستحضره الى يوم الميعاد حيث سأعاني من خفاء مرضي! زهقت تصورات الناس وثبت صدق شكوى امي المتكررة التي نفر منها الكثير، والتي منها بادي للعيان مثل سواد غير طبيعي في بشرة ظاهر الكف وشرايينها، وعندما اسألها عن هذا اللون الشاحب الذي يخالف بياض جسدها العام، تردّ: «من كُثر غسل المواعين»! ومن الطرائف المخيبة التي تحزّ في داخلي -بعد مرور فترة طويلة من الان- انّه لما كنت التمس الاعتراف منها بمرضي تقوم تهوين امره، وتميل كثيراً إلى جحوده، واعتباره ابتداع مضخم من نفسي، وإن افصحت أحيانا عن تعاطف

أمومي مع تعبي الذي تضع له أسباباً سطحية غير خطرة، فلا تكاد تستبين منها إلا التذبذب معي. وكنت اظن انها أسرع تصديقاً لحالتي، ولكن على ما يبدوا ليس شرط ان من يَمر بِمثل حالتك يُتقن تفهمك، فالتجربة الأليمة قد تبقى حبيسة لدى الفرد ولا يشتق منها شيء عام تكون جسراً يلمح بها صنف الألم الذي عايشه لدى الآخرين، وليس شرط ان قُربة الدم والنسب من اعلاها إلى ادناها تكون الأقرب إليك والاكثر وعياً بحالك.

هذا التدابر في الفهم قد زاد من غلّة القطيعة الكبرى مع هذا العالم، واستشرى ليصل حتى عائلتي التي من المفترض ان تكون الملاذ المخفف من وحشة الكون، إذ حدث انسحاب شاسع من الحياة العاطفية والحميمية معهم، وتصدعت العلاقة وانشقت إلى برودة سطحية، ولا اجتماع إلا على أمور عامة ومشتركات لا بدّ منها، والتي لولاها لانقطعت الرابطة بهم، قد أساهم في جلب غرض خاص بالطبخ مثل معجون الطماطم، ولكن عادة التجمع إلى مائدة الطعام ومشاطرة الاهل، والشعور بالألفة الحاصلة في اثناءها، ومطارحة الكلام التي تزيد الاكل متعة؛ أقول هذه عادة قد حُذفت فلم يعد يصفوا لي طعام إلا على انفراد. صرت أول من يبادر إلى فض محتوى الطبخ، حتى أنهي أكلي قبل ان يجتمعوا معاً، وأقفل طعامي سريعا بلا تؤدة، واحشره مضغوطاً لا اعطي فسحة استراحة بين لقمة وأخرى لأجل مضغها وضرسها على مكث، حتى لأني كثيرا ما اختنق من تتالي حشر الطعام بصورة غير صحية، وهي عجلة اكتسبتها من الوحدة التي لا أجد فيها من يقطع بكلامه هذا الإسراع

واقاسمه تركيزي، علاوة على ضعف الشهية التي جعلتني اودّ لو ان وجبات اليوم تختزل الى حبّة آكلها فيأخذ الجسم كفايته من العناصر الغذائية، انكمشت معدتي وقُصّت مساحاتها كأنها معدة عصفور فلا تستقبل إلا القليل منه. انقلاب حصل حتى في ذوقي، فأفخر الآكلات اراها عادية لا اقبل عليها بنهم وكأنها طعام اهل الجنة! وأكلات عادية او طعام الفقير يرتقي لمستوى يناجز الآكلات الفاخرة! عندما أدخل مطعماً فإن المُقبّلات الخفيفة لوحدها تقنع جوعي طوال اليوم بالكفّ عن الجأر وإحلال الشبع محلّه. أستغرب كثيراً من الناس وهم يجرفون بيدهم الطعام بلا هوادة ويزيدون بنوافل منه فوق الوجبات الأساسية. ما أكثر الأشياء العادية لدى جموع الناس وقد أصبحت عندي في حكم الاستغراب! أتمنى أن تكون لي شهيتهم الفارعة حتى أنسي بكثرة الأكل همومي وألمي. أحيانا يقولون لي لماذا لا تسمن مع أنّك تأكل الأطعمة المسمّنة مثل الخبز والرز؟ أو أن البعض من النساء تغبطني على نحافتي الرشيقة! فأجيب في نفسي: تمرضوا وستأتيكم النحافة بلا جهد، او تبذير المال في شراء علب المنحّفات أو قاعات الجيم...! اتهم بالبخل لو امسكت عن إنفاق مدخراتي حول الأطعمة ولا اشتري منها إلا النزر اليسير، ولا أدري كيف افهمهم ان الطعام الذي يشكل محور رئيسي للمتعة في حياة الانسان قد انقبض إلى شيء فرعي آكله بحكم الواجب الذي يقتضي حفظ حياتي من الفناء وليس لأجل اللذة كما كان في السابق، فلو تركت الموضوع على عواهنه لأمضيت آيام لا آكل، ولربما سيحسدني الزهّاد الذي يعانون في قمع غريزة الطعام! وما أكثر ما اسمع أنى أبخس حق نفسي، وأحطم بناء

جسدي، واحرمها متعة الطعام وبطر نعمة الربّ عندما امتنع عن اكل بعض الأطعمة، او عندما اكتفي بكمية بسيطة منه، ولا أعلم كيف أقنعهم انهم يتكلمون من منظور معداتهم المعافاة التي لا تعاف الاكل مثل السقيمة. اضيق عندما اجتمع معهم على مائدة، وقد اترك نسبة من حصتي وانا اشتهي أكلها، حتى انفض سريعاً عنهم بسبب هذا الانفصال الشعوري الواسع. وعندما انصرم اسمع قعقعات الصحون والملاعق والأحاديث تتعالى، ويطول أمدهم حتى يستمتعوا بلذة بطيء أكله، فاشعر أحيانا بالنبذ.

جاء اليوم الموعود للدوام، واستيقظت وهمّتي فاترة تفتقر للجواذب التي تنهض بها، لا شيء يغريني لإزاحة اللحاف وامتطاء متن التهيؤ. أفكر متأففاً لماذا يتعيّن أن أركب التعب وأصلى سعيره بلا نائل منه؟ اتذمر من إرادتي الضعيفة التي لم تعطِ نفس طويل في الدفاع عن معاناتي، وموضعتها في عالم الوجود كشيء محقق بذاته لا يثبت بتصديق الناس او توريته بتكذيبهم. أمقت نشوب شخصيتي على هذه الهشاشة والتضحية غير المشروطة للناس. أفكر بأن آخرين يستعدّون على قدم وساق للتأنق بحُليّهم، يسوقهم إلى ذلك روح مُقبلة للانغماس في رفاهية الجامعة. لشدّ أنّي مُحتاج إلى قبس من تلك الشعلة الأولمبية الناضحة بحيوية الرياضيين. النعاس يغطّي عيني ويخدّر تفكيري بانه ليس من الضروري أن أذهب اليوم، وكاد ان يبتلعني لولا نداء منبّه من صوت أمي يدعوني للتحضر. كانت أمي قد عادت ادراجها من شفير الموت بعد ان قيّض الله لها طبيباً ألمعيّ قد جاء للبلد مؤقتاً، ذهبت إليه واعطاءها من

الادوية ما أوقف الفيروس في استعماره وجمّد فعاليته وأحدث فيه الإبادة التي قللت من اعداده المليونية، غير أن صحتها بقيّ فيها اعتلال جعلها طريحة البيت لا تملك نشاط الانسان العادي لان الكبد قد تآكل في معظمه وبقيت قطعة منه تفي بالحد الأدنى في استيفاء الوظائف المهمة، وكان هذا التحسّن مدعاة لتنفس الصعداء بداخلي، وأشاح بشيء غير قليل من غاشية القتامة.

الجانب الذي يحفز الانسان للتجمّل وإسالة النضارة على نفسه قد ضمر عندي، فبالي قلق جدا في سيناريو مخطط اليوم، ومقاساة التمثيل كإنسان عادي وضنى جسدي الذي ليس بفتوته المرجوة، وهذا ما دعاني الى إنهاء ارتداء ملابسي بسرعة، وتصفيف الشعر بصورة مُجملة دون العناية المدققة بالتفاصيل، أو إضافة لوازم نافلة من الزينة. هذه العجلة جعلت مواضع مني غير متناسقة قد نبّهتني أمي عليها، مثل تعديل الياقة او شُعيرات متطايرة من الخلف لم اكبسها في تساوق مع زميلاتها! ابتلعت نصف قرص مهدئ حتى ادرأ أي مضاعفات سلبية قد تهرش ذهني بأفكار مزرية. وانصرفت عن الطعام الذي قد يعسر هضمه، ويُثقل على المعدة وتختل وظيفتها تحت طرقات القلق فأصاب بالغثيان، وبكل حال وجبة الإفطار قد نسيتها من زمن واندحرت، فلم يعد يروق للمعدة ان تستقبل طعاما صباحيا، وتعامله بتقاعس غير مرحب به كأني ابتلع أشياء صلبة متينة تقف الانزيمات المحللة والماصة مكتوفة الايدي امامها. أنظر مرة أخرى للمرآة وانظر إلى إن ملابسي لا يكاد يفرق شكلها التقليدي عن أيام

المدرسة الإعدادية، وكأني ذاهب إليها وليس إلى مبنى تعليمي مُغاير تتغير معه جذرياً أصناف الألبسة. تعرضت إلى انتقاد من أُمي على هذا اللبس المتواضع، ولكن كالعادة لا أملك الأدلة الكافية لإقناعها او غيرها، انه لماذا اتخذ أمثال هذه التصرفات وفي وسعي اختيار بديل أحسن منها؟

انتظر بتوجس رنين الهاتف ان يدقّ معلناً وصول خط السيارة الذي سيقلّني، وأذرع المكان جيئة وإيابا وذكرى الإخفاق السابق تلهب التوتر، وفي احتمالية ان تُعاد الكرّة وانسحب رافعاً الراية البيضاء من اول يوم. أتلهف لو أن غشاء الغيب يتمزق لأعرف الأمور السيئة التي ستحدث فأتجنبها وأدير يومي بأريحية. أكره الان حرية الاختيار التي أُكرمت بها، غير مؤهل لامتلاكها وغرسها بي. عنف من الخيارات تتضارب بداخلي في آن واحد، لا أدرى كيف اتصرف بالشكل الذي ينبغي، عاجز في قيادة نفسي وعوق في التفكير بسبب الوسواس المرضي يجعلني مشوش ومضطرب في إتيان الأفعال. اريد ان أكون روبوت تدخل بي البيانات فأسير وفقها بلا تعذيب في التفكير. انا صالح لإن أكون جماد مسخّر للآخرين، او حتى بهيمة بلا وعي وليس انسان يملك ويتحكم. أحيانا أتمنى لو انّي ضرير فلا تثير رؤية الناس ألف فكرة وفكرة متلاطمة تزعزع سلوكي، يقودني شخص من مكان لآخر وانا مُسلّم له، ومستريح أن انظر في جميع الجهات فلا يطعّم ذهني بوجوه البشر من حولي. ماذا لو كان لثام البدوي جزء من ذوق الملابس المتحضر فألبسه بلا استحياء؟ اللعنة على العنصرية والازدراء الساخر الموجه اتجاه لبس

البدوي من قبل أهل الحضر! فكرة نقاب يحجب وجهي بدت لي رائعة وإخلاء كبير من همّ رؤية البشر، ما المانع ان يلبسه رجل عند الضرورة؟ أليس هناك أمم في افريقيا يلبس رجالها تنورات نسائية؟ هوس الاحتجاب عندي يولد أفكار جنونية ستؤدي إلى ادانتي بالاستخناث! الحرية عبئ يأتي بالوبال المعذب فلا طاقة لي بالترجيح أو حتى التوفيق بين التفكير المنطقي المتسق مع توجهات الناس، وأفكار قلقية تريد بي مسلك آخر مغاير. عندما يضعف الانسان يميل إلى إباحة ذاته ليفعل بها الاخر ما يشاء. أستقبح وأستكره ان يدفع عصف الأفكار إلى ضعف مُذل يقصم كبرياء ذاتي. انظر إلى بخار يخرج من ابريق الشاي فحسدته على ان لا شيء يعذبه.

يخرجني من سلسلة الأفكار رنين الهاتف، أعقبه زعيق بوق السيارة في الخارج، إذن السيارة وصلت وخفق قلبي لذلك. طلعت من البيت ورمقتها واقفة، ورأيت المقاعد ممتلئة والانظار مصوّبة بفضول نحو هذا الوافد الجديد. اخفضت رأسي وكرهت أن أكون آخر من يلتقطه السائق في دورته التي تنتشل زبائنه الثابتين، أحب ان يكون اول من يأخذني فارتاح إلى فراغ سيارته وأسلم من النظرات. فكرت في لو أني لبست جاكيت بغطاء رأس حتى لا تستبين لهم ملامح وجهي! كان الجو في آواخر الخريف وساهم تأخر طلوع الشمس في تظليل شكلي. انطلقت السيارة نحو الجامعة والغربة تزيد من مخاوفي، إلا أن خاطري فاء إلى

ظِل أن والدي سينتظرني عند باب الكلية قد هدّأ من روْعي قليلا، فهو يقطن في مُجمّع سكني وينزل أيام الاجازات إلى بيتنا.

وصلت السيارة الجامعة، وودِدت لو انّي بجانب الباب وانزل اولاً من فرط اعيائي وحاجتي الملحة الى بحبوحة من الخلاء النقي من اكتظاظ البشر. مرات كثيرة استخدمت كلمة "وددت" والتي هي سيناريوهات متخيّلة رائعة لم أستطع تقمصها بدلا من المشاهد الواقعية المروعة. ستبقى كلمة حاضرة تحفّ ذهني وتمثل الفردوس المفقود من حياة كنت أبتغي عيشها، وجانب آخر مخفيّ يرويه الخيال ويقدم نفسه مقابلاً كلّما استشكلت وعورة الواقع. عندما يتخلّى الواقع عن صفّنا ونجد أنفسنا عرايا بلا طوْل اتجاهه، يأتي الخيال منقذاً ومنحازاً لنا ويجمّل التشوهات والندبات ويلطف تلك الوخمة التي ترزح بها حياتنا.

وحتى لا تتغلغل الوساوس وتطوّح بي وتفقدني اتزاني، باغتها بضربة استباقية فاتصلت بأبي أُعلمه بقدومي، فأبلغني بانتظاره عند باب الكلية. توقف إقلاع سرب القلق وما بقي منه إلا شذرات تعابثني. أتحسس انعزالي الشاذ وكل فرد في فلك من جماعة مؤتلف بها يدور. ليس عندي مبادرة اشبك بها خيطي مع خيوط الاخرين في تفاعل. اتحرق الى سلام عابر او تساؤل او أيّ كلمة تنبّه إلى وجودي وانهاء شعور "الدخيل" الذي اعانيه. حبّة المهدئ قد آتت اكلها في تقليل الانبعاثات الضارة المخيفة من الناس والمربكة لي. هذه الوحدة تشعرني أن عيون الآخرين حوّلت التفاتها لي، وبدأت بتشريح منظري الى قطع غيار على حدّة وانتقاد العوج فيها

والسخرية منها. تصاعدت عندي حاسة الهروب الى مكان اختلي به من هذا الجمع الغفير الذي أراه قطيع ذئاب يتربص بي. أسترجع ما تعلّمته من مهارات نفسية لأضبط الإيقاع الآيل للخلل بقوة. أحتال على نفسي وأجادلها بان لو رآني شخص فسرعان ما سينساني لو اماط بنظره عني، لا شيء مميز بي يستدعي التوقف عنده، لست كمقام إبراهيم ينقطع عنده حجيج الطلاب مؤقتا. خرب تسلسل تلك الأفكار الإيجابية عندما لاحظت ان موظف الامن يرمقني بثبات لا يتردد، وكلّما نكصت بنظري عنه ثم أغرت لرؤيته وجدته يتفحصني! لا أدرى هل في منظري ما يدل على نيات إرهابي يعزم القيام بعملية استشهادية تتطاير معها الجثث؟ أو مسجّل خطر على لوائح المطلوبين؟ انزعجت عندما بدأ يسير نحوي وعيني تتلجلج بينه وبين لافتة مكتوب عليها "الجامعة ترحب بطلابها مُتمنّية لهم دوام النجاح والتوفيق". ربما دوام وقوفي أثار ريبته فانبجس عنده غريزة المفتش الأمني. طلب مني هوية تثبت انتسابي فقلت له: «أنا طالب جديد وابن الدكتور خليل» فعرفه على الفور. على ما يبدوا فان معالجات جهازه الدماغي لم تقتنع بملامح المشاكلة بين الابن والوالد، فظل يتفرس بوجهي ولاذ بطلب بطاقتي الوطنية كي ينهي تحقيقه وريثما يتأكد من مجاورة اسمي لأسمه، لا أدرى كم من المجادلة التي كنت سأستغرقها في اثبات براءة نيتي وانحداري من جينات أبي، لولا هذا الإنجاز المبتكر للحضارة الحديثة. عاينت الوضع حولي فضغنت من توالي عدّة طلبة عن كبح سيرهم وفضولهم انبرى صوبي لمعرفة ما يدور لهذا الوافد المغمور، لو أن فضولهم كان بنفس الفعالية اتجاه موادهم الدراسية لوجدت كلمة

"امتياز" تلازم أي مادة في شهادة نتائج اختباراتهم. انزعجت من هذا التحديق وكأني مُنْدس يحاول زُوراً الدخول للكلية، وأحسست بنفس حدس الصرصر عندما يستشعر بوجود غرباء فانه يهرع إلى البالوعة للاختباء. شتمت في سري هذا الموظف الذي أعاد لي البطاقة واطمئن قلبه واعتذر متأسفاً، وعرض مجاملة خدماته أو تيْسير أيّ معضلة تعترضني. هذه بركات أن تكون ابن أستاذ جامعي فكأنك تحصل على اشتراك ذهبي مدفوع مقابل الحصول على امتيازات لا يحظى بها الطالب العادي. تذكرت الدلال الذي كان يمتلكه ابن المدير عندما كنت في المدرسة وكيف إن المدرّسين ينقلبون كالتلاميذ امامه، ويعاملوه بلطف مترف لا تقاربه صفات الحزم والخشونة والاستعلاء التي تقارن عادة بهم. كلما تمر الدقائق يزيد بداخلي حراجة بقائي هنا، افتح كاميرة الهاتف واتفحص وجهي ان طرأ عليه شيء غير طبيعي، رأيتُ ذات حُفنة الشعيرات اللائي عدلّتهن في البيت قد تمردن مرة أخرى! أحاول دهسن بقوّة حتى لا يعبثن بنظام التسريحة فيعاودن الانتصاب! لا يوجد ماء يساهم في إتمام هذه العملية، فاضطررت لوضع كفي فوق فمي وتبليل إصبعي بلعابي، ثم رطبت بها تلك المشاكسات، فخضعن بالنهاية للرجوع نحو القطيع! لا بد أن أحلق شعري بما لا يجبرني إلى التدخل المهوس كل قليل لتعديل ما أختل منه، وليأخذ الشيطان جمالية الشعر، فأنا شرطي يرّحل كل مسؤولية عرضية قد تستجد على أرضي، حتى أركز عنايتي وادخر طاقتي في تطويق استهتار امراضي. تضايقت من التعب الجسدي الذي طالني من جراء الوقوف، رأسي يرغب بالطأطأة نحو صدري وأنا أتكلف انتصابه

شامخا. لا أستطيع ان اجلس على الرصيف حتى لا اجذب الانتباه، ولا يليق -بحسب زعم هذا المجتمع- بطالب كلية ان يتّخذ وضعية الرعاع ومعدمي المال، وحتى لا يتسخ بنطالي بالأتربة التي تخدش اعين المتأنقين.

يأتي أبي أخيراً لينقذني من سفاهة الموقف الذي أرهقني. ادخل معه باب الكلية الواسع دون أن أدخل من الباب الجانبي الصغير المخصص لدخول الطلاب لغرض تفتيشهم على يد الامن من الأشياء المحظور دخولها. هذه الامتيازات ضخت بي جرعة امل حذرة من أني سأتلقى الدعم الكافي الذي سيدرأ بعض المتاعب، ولكن افراز الخجل يبزّ ويذكرني ان الناس سواسية كأسنان المشط فلا تشتط في هذا الاستغلال غير المتكافئ. طالعني ابي بنظراته فانتقد هندامي الذي لا يرقى لمستوى المكان، مُذكراً إيايّ أنّي لم أعد في الثانوية حتى يطيب لك اللبس كما تريد. كالعادة أخوض صراعاً مع أمور هامشية تعتبر مركزية في نظرهم. امتعض لتلك النصائح وكأني دخلت في حفلة ملكية يغشاها طبقة النبلاء المترفين! احاول بعقلي تسخيف تلك الأمور ومنع تصديرها إلى برمجة سلوكي حتى لا احتقن بانفجار قلقي. ربما لو رسبت هنا مرّات عديدة، فلن يضيرك في شيء ولا يعتبر عيباً مُؤاخذاً عليه، ولكن الثبور لك لو لاحظ أحد أن بياض اصبعك يلوّثه ذرة سواد، او نتوء في قميصك نسيت المكواة ان تبلّطه وتساويه! انزل برفقة أبي وأتمشى معه الى مبنى اقسام الكلية ومكاتب زملائه حيث يتلقاهم بالتسليم والتعريف بي.

لا أدرى كيف عزب عن بالي أني سأكون في بؤرة الاحتكاك بكبار الشخصيات في الكلية وأنا الذي اسعى لدثر ذكري عن الناس ما استطعت لذلك؟ نافورة التوتر طفحت عندي وأنا أبادل مجاملتهم وأسئلتهم بإجابات مقتضبة ومتلكئة غير مستجلية بوضوح. بدا لي المكان وشخوصه مُهيب وعملاق ولا أستطيع مقارعته، أو استحق النزول عنده برفقة ابي. أشعر بكوني شخصية غير برّاقة في كلامها ومظهرها يفتخر بها أبي في سرّه أمامهم، وأنّه في ورطة ومأزق معي، وينْدب حظه، ويعتذر لأول مرة أنّي ابناً له، ولست بمستوى الطموح المأمول! كيف فاتني أن الامتيازات يرافقها آثار جانبية مظلمة لم أدركها سابقا أو بالأحرى مسؤوليات لم افطن إليها، فبما أن من يملك لقب الأستاذ يعتبر شخصية مرموقة مُنيرة يُشار لها بالبنان، ويمتد هذا الجلباب البهي ليشمل ابنه، وتلقائيا تتولد التزامات عليّ القيام بها، كأن لا اظهر سلوكيات غريبة الأطوار، أو حتى تفريغ ضغوطات "مرضي النفسي" ومعاداتها بالكبت، حتى لا أنسج حولي كلمات من قبيل الجنون او الخبل؛ لأن ما يكون في الابن ينعكس ببساطه على سُمعة الاب، فكأنما قِيلت هذه الكلمات بحقه شخصياً. كذلك ان لا أعرض تلك السمعة الحسنة بما يثلبها من رعونات طائشة ترتد بالحرج عليه وسواد الوجه، فكأنما لو أتيت بالوقاحات الأخلاقية، فإنما هي نتيجة لسوء التربية من الأب، لذا كان من جانب آخر أن اظهر بنموذج القدوة المثالي الذي يجب ان يرفع رأسه، وكذا إبراز التفوق الدراسي وتَزعم الدفعة فيها، حتى اؤدي امانة استحقاق وواجب أنّي ابن أستاذ جامعي والذي لا يليق إلا ان ينجب النجباء والنبهاء من

الأولاد! تعّهد غير مدون ولكن تواطأت عليه الأعراف للنهوض به، كان استعدادي غير مهيأ لكل هذه الالتزامات التي لا قِبل لي بها. انا تمسّحت بوجود والدي حتى يكون لي القدمين التي استمر بالجري اعتيادياً كباقي الطلاب، ولأجل رفع الأغلال وليس بزيادة غِلّتها والاجهاد منها، وكذا التماسك أمام الناس والتخفف منهم، وليس أن أكون نجم تتراءى الاعين حوله. جئت هنا للتظاهر بالدراسة وتسجيل الحضور، وتصنّع الانخراط في الجو الجامعي حتى اخدع امي -وعائلتي عموما- بأني على ما يرام، وربما أيام معدودات ويتصدّع صمودي من نقرات المرض المتدافعة. بدأت أكره هذا الامتياز الذي بدا أن ضرره أكبر من نفعه، وبعد ان قدّرت بشكل يقيني ان وجود ابي مُربح لي، الآن صرت أشكك وأتساءل هل أخطأت العواقب الوخيمة عندما اخترت هذه الكلية الموجود فيها؟

أخذت الجدول الدراسي، وذهبت إلى القاعة الدراسية لحضور المحاضرة الأولى، واتخذت مقعداً في ذيل المقاعد حتى اقلص الأنظار نحوي، ويتنسى لي المشاهدة عن بُعد. ألقى التحيّة شخص يُحاذي مقعدي ويريد التعرف على اسمي فآنست منه نسمة ألفة واخطرته باسمي واني ابن الدكتور خليل. لا اعلم لماذا لساني-بلا وعي- أضاف تلك الزيادة على أسمي، وكان هو المطلوب فقط بلا الحاق الأب؟ ربما هي فلتات الزهو الخفيّ التي تحدث عند التعارف لإظهار أحسن ما فينا، أو اتخذت من وجاهة ابي سبيلاً لتعبئة قيمتي التي طواها الانعزال في ركن باهت. لدغني الخجل على هذا الغرور غير المبرر. فردّ عليّ هذا «اامورك

معدّلة»! كان هذا اشعار ضمنيّ بأني مستقبلي قد رُسم سلفاً من جانب الناس، فعندما دخل الأستاذ وبدأ بسرد قائمة الحضور، استوقفه اسمي وقال لي: «ان شاء الله تكمل رسالة الوالد»! بزوغ ملامح بلورة خميرة فكرة عامة بأني ما اخترت هذه الجامعة إلا للاستفادة والتوسل من اللقب العلمي لأبي، والذي يمنح ابنه فرصة كبيرة للتوظيف هنا، والتسلق على درجات ظلاله وتأمين مستقبلي المهني، وإكمال الدراسات العليا، والترقي في المراتب العلمية حتى أصل إلى قمتها، كأنها عملية توريث للمُلك وانا ولي العهد المرتقب لوالدي بعد ان يُحال للتقاعد! عملية إعداد استنساخ لمسيرة الاب فلا يجب ان يبتر أثره وابنه موجود. هكذا يقرّرون بدون علمك ولا استشارة لك ولا اهتمام برغباتك. امضاء نافذ مثلما يقررون أسمك ودينك وعشيرتك دون إعلامك. وهل هناك أفضل من هذه الفرصة النادرة التي يحلم بها عشرات الطلاب، ولا يملكونها لمجرد ان اباءهم ليسوا أستاذة. هذه مثل صفقة العمر ولا يفوتها إلا غبيّ لا يدرك شحّة الوظائف في هذا المجال الزراعي، وركود مئات الطلاب المتخرجين في العطالة.

هذه الفكرة التي ما فتأت تكبر وتتضخّم بمرور الأيام وطيلة تواجدي، حتى صار أمر جاري التنفيذ، ومحسوماً لا مردّ له. ولا أستطيع بالطبع البوح بالباعث الحقيقي لاختياري هذا المكان، وإنْ جهرت به فلن أجد إلا تشكيكا شاملاً لا يرتقي للمنطق المعقول. وحتى إن كانوا مثقفين ليفهموا هذه الأمور "النفسية المرضية" فسينظرون أن هذه مراوغة مني

"وإبعاد العين"، وانتحال سبب للتغطية على "مادية" انتخابي لهذا الموقع. انا الذي لا يهمني الرسوب او النجاح، واشعر ان الموت يقف لي عند ناصية كل يوم، وان مرضي الجسدي سياتي لي بالقاضية قريباً، وعجزي عن الانسجام في جماعات الناس؛ كيف لي ان أفكر بالمستقبل والطمع براتب حكومي محترم؟ أجد نفسي محملا بعبء كتبه لي الاخرين ويعتبر التنصل عنه سفاهة عقل تجلب لك العار. إن حاولت الدفاع عن نفسي واعتبار انه فساد محرّم لا ترضاه الشريعة، أجابوا أن الوساطة يفعلها الناس جميعا وصار عُرف مقبول غير مستنكر ولا مستكره، وأكبر المنافذ الرئيسية للحصول على الوظائف الحكومية وما عليّ إلا اتباع هذا السبيل. أعجب من الدنيا التي تمنح لي شيء لا اريده، ويطمع به العشرات من غيري ويحسدوني عليه! تمنيت لو أن غيري يأخذ كرسي التوظيف المنتظر، أو أهبه عن طيب خاطر. لا اجده إلا شيء يجب ان يُعطى للأصحاء ومعالم مستقبلهم معروف، ولا يستحقه شخص معتل مثلي لا يستطيع القيام بإمره على الاطلاق.

الرسالة التاسعة:

سُبّوح قُدوس شهرزاد. أكثر شيء غرس المعاناة معكِ هو فوبيا الفقد. اناجيكِ قُرباً وداخلي مشتاق إليكِ، كأنّي سأضيعكِ بعد هذه اللحظات. ترفدين هذه الفوبيا بمقولتكِ "جئت لأرحل". كُنت مهرة جموح صعبة الترويض والامتلاك، وطاقة متفجرة بالحيوية، وعصيّ على العصا ان توضع في عجلة انطلاقكِ. حاولت ان أكون سدّاً لمجرى نهركِ المتدفق وسدى كان تطويقه، ومرهق مصادرة نجمة حرة في السماء وزجّها في السجن. كرهت اشعاع هالتكِ الكاريزمية الذي يجعلكِ نواة مركزية تدور حولها الكترونات المعجبين والطامعة في استرقاق نظرتكِ، وعشقت في ذات الوقت جاذبية شخصيتكِ الملكية، فمأساتي المزدوجة انّك نسر محلق معجب بطيرانه المُهيب، وابتغي ان احيلك عصفورة مهيضة الجناح في قفصٍ!

اترصد بعيون متفحصة حديثكِ مع الاخرين، واودّ لو اخسف الأرض بهم عندما تتجاوبين باسترسال معهم، وعندما تكلمين شخص بعمق، أقول بنفسي هذا الشخص سيسرقك مني، وسأصبح عما قريب ديناصوراً منقرضاً في حياتكِ، فلا يهنأ لي بال حتى تنقطعي عنه او تقلّلي من أهميته لديكِ. أتجمّل بابتسامة موافقة على كلامكِ، واتظاهر بالأدب الرصين إذا اعجبكِ خصلة ما في شخص، وداخلي يتمزق إرباً من الغيرة. أحيانا أبدي الغيرة بشكل معتدل ارستقراطي مهذب لكِ، وهي ترسل شواظ من نار في احشائي وتبغي معاقبتكِ! بداخلي نضال ضدّ الناس

الذين يريدون ان يصبحوا ضمن خواصكِ. أتمنى دائما ان أرى قائمة أصدقائكِ مصفّرة إلا مني. اراكِ دائماً تسيرين في صحراء شاسعة ذات زمان قديم وأخشى ان يخطفكِ منّي قطّاع الطرق.

أعيش دائما معكِ في حالة اثبات ذات واستنفر طاقتي البلاغية، ويتعرق عقلي في انتاج التراكيب الفصيحة المتفننة، للعب على وتر نقطة ضعفكِ امام اللغة. أقدم على فعل أشياء ما كُنت لأفعلها سابقاً، او أبتدع أشياء لم تخطر ببالي ان افعلها، في سبيل أن أُبهركِ وابيد الملل من مناخ شخصيتي. أتمرد على شخصيتي الكلاسيكية حتى لا تتمرد شخصيتكِ بعيدا عني، واتزلف الى الصمتِ ان ينهي سباته الشتوي معي كيّ لا يجعلني شخصية ضجرة ومُتلقّي سلبي.

في نهاية اليوم اطرح على نفسي سؤالاً هل أنا شخصيّة مرضيّة لكِ ام لا؟ أقوم بافتعال الاختبارات الخفية وأرسل إشارات الابتعاد؛ لأتفقد مدى تلهفكِ وصبوتكِ لي. تعلمين أني لما اردت تجربة القهوة لأول مرة في حياتي ارتشفت نصفها على مضض، وسكبت النصف الاخر في التراب، ومن ذلك الحين تولدت كراهية مذاق اتجاهها واستعجاب من عولمتها عالمياً وحيازتها على الرضا الإنساني قاطبة. هذه الكراهية زادت لما علمت عشقك المتفاني لها، وما تفعله بكِ من جنون تركيز اعجازي وسرعة فهد هائلة، تتنزع السيطرة والاعجاب في ايّ مكان تصيبه سهم ارجلكِ، فتنشغلين بهذا وذاك عنّي، واشعر بانّي واحد منهم لا اتميز عنهم في شيء. لربما تنزعجين من قولي هذا: أحياناً ارتاح لنكسات التعب التي

تفضي بكِ إلى عزلة مؤقتة عن الناس، فتقضين متسع الوقت عندي وتربضين تحت سقفي لا تبغين عنه حِولا. انحاز الى لحظات ضعفكِ وأنين طفولتكِ التي اكسوها بدثار تحنن امتلاكي، انتِ في حياتي مثل الشيء الذي يتكرر في القرن مرّة، لذلك ظهر عندي هذه الوجدانيات المحترقة. وحكم النادر؛ الحرص الشديد على الاحتفاظ به، وابعاده عن يد التناول...!

******

تتالتْ الأيام والأسابيع، وتغلغل التكيف على انقباض ومضض رويداً مع هذا المكان، واتحيّن حبل سبب ينقذني من هذا الاحتجاز -الذي يراه محيطي ملهى لمتعة الشباب لا يضاهيه شيء- واعتاقي إلى البيت سراجي المنير المتحرر من وحشة الناس. لا يوجد "انفجار" هذه المرّة، أو حدث يهزّ الأركان وانتهازه لأخذ إجازة مفتوحة من الكلّية، استغفر الربّ على قساوة قلبي، وتمنّي حدوث فواجع تضر بالناس، واتخذّها لصالح الغروب عن وجه هذا المكان. قرأت قصص سجناء حفروا الانفاق بمعجزة وحرروا أنفسهم من خلالها، وغدوا ابطال في الجرأة والعزيمة الحديدية، فمالي لا املك معشار جسارتهم وتجريد نفسي من هذا الوضع المُضر بي؟ إذا تركت الكلية فلن تتدهور صحة امي التي افضت الى الاستقرار النسبي، فأنا خامس خمسة وآخر العنقود في العائلة، ولست وحيد أبويّ حتى يعقدوا كامل أملهم بي عندما يبلغون أرذل العمر، ولا أنا كبير اخوتي الذي ينبغي ان يكون ناجحاً ومقتدراً يُمسك بكثير من

مسؤوليات الاسرة، ولن يخسر العالم وايّ فرد به -وان كان من المقربين- إذا مِتّ، فكيف لو تركت الكلية؟ يحسبون أني أحسن صنعاً وأنا اخوض مسيرتي هنا، والحقيقة الجلّية أني مستقر في بركان التذمر وانطفاء الرغبة المكتئب، ولولا أن ابي موجود لكمدني الخوف من تواجدي.

استيقظ صباحاً وارتدي ملابسي بعجلة، لو دق السائق مُعلناً وصوله ومازلتُ نائما، فأستطيع التواجد عنده خلال دقيقة، لأني لا استهلك وقتاً موسعاً للزينة، ومُمْسك عن وجبة الافطار، لذلك كنت آية في الانضباط الذي لا يثير تأفف السائق الذي يشتكي عادة من تأخر خروج بعض افراد خطّه. ألبس ذات الملابس طيلة الأسبوع ومرابطاً عليها، وهما: القميص الأبيض والبنطال الرمادي، وكأني ولدّت بهما من طول ارتداءهما! تقاعسي المرضي وآثاره التي تثبط المثابرة على الاهتمام بجسدي والانصراف عنه أدى إلى عدم استحسان مرأى بدني وتعرضي لانتقادات لاذعة تشْجب الحال المهلهل، فكم تندلع خلافات مع عائلتي حول ضرورة التنوّع في الملابس، فحسب زعمهم لست فقير حتى لا أستطيع أحراز التأنق الذي يُصلح من هيئتي البالية. أمي تكاد تبكي لِما افعله من نحر لذاتي وبخس حقها من التمتع بطيّبات الدنيا، وانتحال التفاقر، واهمال استغلال شبابي، وأنّ الطيْش يركبني ويسير بي إلى الخبل، وأخرب بيتي بيدي! تذكرني دوما بالملابس الراكدة والجديدة المتكدسة في الدولاب، وأن من كفران النعمة الاعراض عنها! وهناك من يتحسر على فواتها، ولا يملك سوى قطعة واحدة ليس له القدرة على سداد

ثمن شراء غيرها، وتسخر مني بأن قد تعطيها كصدقات جارية عني، بما انها باقية ستتعفن ولن يطالها استعمال مني، وستقصر عنك بتمدد طول جسمك! وأحيانا لما آتي للبحث عن قطع الملابس المواظب على ارتدائها لا أجدها، وافاجئ بانها رميت في الغسالة مع انها نظيفة! فاتشظى غضباً لهذا الفعل الذي يُراد بي منه إثراء ما ألبسه. سلسلة من ملاحم العناد التي لا تنتهي والتي كثيراً ما تختم بقولها: «انت راح تموتني قبل يومي»! وقد يبلغ بها السخط قائلة: «مستحيل احماضي النووية ان تنجب مثلك، لا أدرى من أي ملّة وعرق تدلّيت؟، فانت لا تشبهني في شيء ولا حتى والدك»! حقا لو كنتُ اب ورأيت من ابني مثل هذه التصرفات الغريبة، لأنكرت ان يكون مستخلصاً من بين الصلب والترائب عندي. والحقيقة أن معظم هذه الملابس لم أقم بشرائها، وإنما تُردف خانة ملابسي بقطع جديدة يشتريها افراد من اهل بيتي، أو تنحدر لي ملابس من اخي -قريب من سنّي- مستعملة قد تجافى عنها، فلست من هواة تبديل الملابس والتنقل بين اصنافها خلال فترة قصيرة جدا، لأن وظيفتها عندي فقط هي السِتر واخرجت من بالي غرض التزيّن، واستجلاب استحباب نظر الاخرين لي، وتلقي كلمات الإطراء لأناقتي، أو حتى أستعملها لغرض غواية النساء، ولا استشكل نفسياً لو طال أمد ركوبها على جسدي، أو أستشنع الوساخة والرائحة الفجّة الراسبة عليها، وقد اقتنع بقطع منها تبقى لسنين طويلة. وهناك باعث نفسي قوي يساهم بانقباضي عن ارتداء الملابس الجديدة، وهو أن لبسها يُشعرني ان كل شيء على ما يرام في حياتي، وأن الحياة أعلنت تضامنها معي، وتألقها يوحي للناس برسو سفينتي على

مرافئ الاستقرار والبهجة. وتصطرع هذه المشاعر مع انين الوجع المرضي الذي يرفض هذا القناع المزيف لألق الملابس، فيتغلب عليه، ويتوخّى مني استعمال هيئة رثّة تتناسب مع حالة الكربّ ونحيب سعادتي. وهذا الانقباض تعمّم بدرجات متفاوتة ليضم كل ما يُحسّن من سيماء صورة جسدي. وهناك حالة مرضية تجعلني أروم التخفف من الملابس وأكره لبسها، فنوبات إبر النغز التي تدّك ما تحت جلدي، تجعل احتكاك الملابس به يزيد من وطأتها، لذا كثيرا ما اتعرض لانتقادات لو كنت البس الى ما فوق الركبة واترك سيقاني عارية، لأن هناك نساء ولا يجوز الخروج بهذا التعري غير المحتشم أمامهم، أو أن الأجواء باردة وسأعرض نفسي للأنفلونزا، بل حتى الملابس الصيفية أحيانا تبدوا لي في ظل هذه الحالة بثقل الملابس الشتوية. صدقا أتوق ان يكون لباسي الدائب كلباس شخصية كارتون "ماوكلي" الذي يستر منطقة الحوض والعورة فقط! ولا ريب ان اتجاهي السلبي اتجاه الملابس يجعلني أجهل ماركات الملابس وأنواعها وأسواقها ومقاستها وموضاتها، وسيتلقاني الفاه الفاغر المتعجب فيما لو وجّه سؤال لي عن الملابس وجهلت الإجابة عنه...!

ولا أستطيع نثر العطر على جسمي لإيفاد الرائحة الزاكية النفاذة للأخرين، لأنها تشعرني بالغثيان، ولا أدرى كيف نشأ ذلك، ولربما ارتبط العطر بذكرى سيئة اندثرت وعلق أثرها، وأمسك بتلابيب العطر كلما فاح وطرق الشمّ عندي، أو هي أحد آثار المرض التي ابتليت بها ولا اقدر على ثنيها عني، لذا رائحتي لن تكون محبذّة كثيراً للأنف المجاور لي،

ولربما قد تشتد وتقطّب الوجوه القريبة لي إذا اقتربوا مني، ولا أستطيع إحصاء القرف الذي استنشقوه مني ودحرتهم اللباقة عن الجهر به، ويأتيني الخجل القاتل كلما ورد على خاطري اصطناع وأدراك ردود الأفعال المشمئزة من قِبلهم على رائحتي السيئة. هذه العطور التي يسعى الناس وراءها ليُنمّقوا رائحتهم أتهرب أنا منها! ولا أنسى أن معاناة ضيق التنفس تجعل العطر يتحرش بنقاوة الاوكسجين فيزداد الضنك بصدري. كل ذلك جعلني اتنزه عن العطور وأجهل أنواعها، واخلاء رف ذاكرة الشم من خبرات اشكالها، باستثناء زجاجة عطر واحدة اعرفها وهي المسك! وأصاب بالحرج لو سُألت عن أنواع العطور؛ لان جهلي بها يُشيّد في نظر الاخر أن روائح العرق الكريهة هي من تتزعم رائحة جلدي! وهناك انوف من عائلتي متحرية كثيراً لرائحتي، وتصارحني بلا تورية في حال تشمموا منها شيء قبيح، فلا تعطيني الضوء الأخضر للمرور إلا بعد ازالتها، فاضطر الى غسل يدي بالصابون وغسول اليد مكثفاً حتى ترتفع رائحته، او أعمل حركة مخادعة من وراء الباب برش العطر في الجو فتتسرب الرائحة إليهم ويتأكدوا! وأحيانا اضطر الى الاستحمام الذي لولا العادة السرية المُدمن عليها والتي تجبرني على غسل الجنابة؛ لبقيت أسبوع لا أدنوا من الماء ولعمّ العطن جسمي! او اعاندهم بان هذه الرائحة النتنة متولدة من جسمي وليست من اجسادكم حتى تسعوا إلى سترها بالعطر...!

أما شعري يهوى الفوضى والبعثرة، ولا يوفق إلى الترتيب والانتظام في تسريحة تزيّنه إلا نادراً؛ لإني اهملت الاعتناء به ككل شيء في حياتي، وكثيراً ما اجعله يسترسل ويَلجم الاذن من اللامبالاة به، فيضيف بهيئته هذه إلى عمري اعواماً، ويجعلني كشخصية خرجت لتوها من قبو قضت فيه سنين، أو إنسان بدائيّ يقطن الكهوف، ومع أنّ شعري ناعم أستطيع-لو ركزت معه- تطويع أي تسريحة عصرية عليه، ولكن نية التزيّن أصابها العطب والفتور، لذا قمت بحلاقته إلى درجة موغلة، ونظام ثابت يبقى كما هو لا يتغير تحت أي ظرف، ولا يستدعي التدخل الشخصي لترتيبه. وربما قد استغني عن حلاقته مستقبلا، فالتساقط بدأ يكنس مفرقيّ الرأس، والصلع سيرفع راياته قريبا عليه. ولحيتي فغير مشذّبة، وحدودها في الذقن والخدّ متضعضعة غير مستقيمة، وأتركها تنمو من الإهمال حتى أن من يراني يصنفني تلقائيا كعضو في منظمة إرهابية او شخص ينتمي الى عصر الجاهلية! ولم استسغ استخدام الخيط لتحديدها، لأني أرى ذلك من الاستأناث وتبذيراً للمال، ولا اريد تكديس علامات ظاهرية تشير إلى أني بخير وامارس شبابي بسلاسة. والحال ان باطني الذي يمثل حقيقتي والذي ليس بخير هو ما أُريد إبرازه، لذلك أقوم بحلقها دورياً وكيفما اتفق، هذا الاستئصال للشعر اراحني من مؤونة مسؤوليات واخرس الافواه الناقدة. وأما اسناني فعن بُعد، تستهل ببياض ناصع، ولكن لو اقترب شخص مني وجها لوجه، فسيجد في ثناياها بقع من صفار منتشرة وخيوط سوداء قصيرة، ما يجعله يزهد في النظر اليها، ومؤخراً بدأت افرشها يوميا -بعد ان كان يمر الأسبوع ولا يزورها سائل

المعجون- وذلك بعد اكتوائي بوجعها الفادح الناجم عن تقاعسي في العناية بها.

كانت هذه الأشياء من العزوف عن الزينة الظاهرية، قد ساهمت في انكسار الجمال الجسدي الذي لم يعد يتلألأ نضارة ويضيء وسامة، وأمعنت في تكديس المهانة داخلي. اشعر معها أن الحياة تلفظني وترفضني وكأنها ندمت على إيجادي، ثم تصحّح الآن خطأها بتقويض ذاتي شيئا فشيئا عنها حتى الاضمحلال! أحيانا عندما أحدق في المرآة يحتدّ الحنق على تلاشي الجمال، وتراجع الجاذبية في سحنتي لدرجة مريعة، مع أنى مازلت في ريعان الشباب، فالخدود قد انتشر بها الجم الغفير من تشققات حُفر قد اشتقّت من بثور حب الشباب، فزادها تشويهاً لا يسر الناظرين اليه، علاوة على انخسافها كأنها غائرة ومقعّرة، فلا تكاد تجد فيها رواء ريّان أملس يشير الى زهرة الشباب. وتحت العينين يوجد هلال منتفخ اسود يضفي على العين رشحة رعب. كانت هيئة وجهي قد غطّاها الشحوب، وقَدَمُها بدأت باجتياز حدود القبح والتوغل في أراضيها. وأما قامتي اعتراها افراط في النحافة لا تلائم طولي، وتحدّب في الظهر جعلها تمسّ الدمامة، واللحم فيها شارف على الجفاف، وعما قريب تلاصق الجلد..

أنعى رحيل وضاءة وجهي مبكراً والذي يستدر شفقة من يراه لوضوح إمارات الهزال والمرض عليه. كان زيارة حداثة الشباب له قصيرة، وتسامحه في افساح المجال ليد الشيخوخة في رسم ملامحها

كبيرة، وأحيانا يتسعر الاحتقار له فابصق على المرآة! فتتناثر قطرات صغيرة عليها، أو قد اشيح وجهي او أغمض عينيّ عنها تقززا من رؤيته، وأحيانا اتبرء منه وأضع جلده بين إبهام وسبابة يَدي واسحبه، لعلي اسلخه واجتثه وارمي به بعيدا! وفيما بين نفسي اتوهم وأقول هل المرآة تخدعني وتفبرك صورتي؟ ولربما لو أردت الخروج إلى الشارع بهذه الطلْعة الفظيعة، قد يود بعض أفراد العائلة ان أقبع في البيت حتى لا يتعكّر، أو يلهج خاطره بماذا يقول عنّا الناس؟ شلل في الهمّة لا أستطيع معه مواكبة هوس الناس ببهاء إطلالتهم، ونحن في عصر الصورة واللقطة حيث يتزاحم الشباب على مراكز كوافير التجميل، والذين أصبحت أرى بريق يشع من وجوههم، وجلودها ملساء حريرية ومشرئبة بلون وردي خلّاب للعين، وتصميمات للشعر واللحى زاهية فتراكب فوق جمالهم الطبيعي؛ جمالا إضافيا، ويفاخرون بإشراقها بمواقع التواصل وهم يتلقون الثناء عليها. فمعايير الجمال ارتفع سقفها مع بزوغ نجم مواقع التواصل ولا ريب أني سأركل الى مؤخرة ركب الصراع المحموم على الجمال لو زاحمت الاكتاف على المقدمة، ويداهمني الخجل لو طلب أحدهم صورتي التي حتى الفلاتر لا تفلح في الدمْدَمة على استفحال دمامتها.

وحتى تكوين قالب جسدي -عند اتخاذي مجلساً وسط الناس- لا يرسل إيماءات للهيبة تُمْلي قلوبهم بجلال حضوري وإجلاء تهميشي من ابصارهم، فلغة جسدي غير معبئة بكاريزما الأُبّهة، ولا محشوّ بما يقسر الاخرين على لمْلمَة انظارهم نحوي، أو حتى ابتعاث شيء من التروْي في

كلامهم أو أفعالهم قبل صدورها، فأنا أفتقر إلى هذه الميزة التي تنقل في صمت وخفاء نفوذها المُهيب في نفوس الاخرين، ولكني ميسور الحال بعلامات تنبأ عن ركاكة شخصيتي. فمن الظواهر الملازمة لي عندما اقابل كثير من الناس، توجه أنامل يديّ لا شعوريا الى حكّ شُعيرات من رأسي، أو تردد عيني بين الأرض وعين الاخر وعدم إحلالها بثبات لا يطرف او يرمش في عينه، والمبالغة في توسعة الابتسامة وإطالتها على إكراه بما يسبب لي ألم خفيف على فكوك فمي، أو اتخلّف قليلا في المشي معه كأنّي حاشية خدم، أو ترْكه يتسيّد الكلام وتوجيه دفّته وقت يشاء، أو قد اجلس بعيداً عنه، أو في وضعية لا تجعلني في مقابلة مباشرة امامه، أو إسرافي في موافقته للكلام وارتخاء معارضته له، أو إيجازي بالكلام ونكوص الاسهاب فيه، وهي علامات جسدية ترمز الى تضعضع تماسكي، وانبساط ظلال سلطة الاخر وانكماشي امامها.

على أي حال لا يكاد يومي يخلو من سماع تلك المحاضرة الصباحية التي تأمرني على التزيّ بأحدث الملابس، والتطيّب بأفخر العطور، وهندسة الشعر واللحية بأجمل القصّات، ودمغ بشرة الوجه بانجع الكريمات، حتى اظهر حَسن الهندام وابلغ منتهى الاناقة، وان لا اجعل الافواه تذم وتسخر من تلطخي بوحل الرداءة، لإن ذلك يؤثر على رونق ونظافة سمعة العائلة! وبالطبع لا أجد من يهتم ببواعث ذبولي عن الاندفاع إلى تحسين الاطلالة المتألقة. ويا ليت عندي خدمٌ تحت يدي فاسترخي على الكرسي ويقوموا بما أعجز عن القيام به، كما يحدث مع

الفنانين الذين يتناوب عليهم موظفين للاهتمام بأجسادهم وهم جالسين لا يفعلون شيئاً.

اركب السيّارة التي تقلّني للكلية، واتسمّر طول الوقت كالتمثال لا أتجاوب مع أحد، وكأني عابر يبحث عن تكسي لم يجده، فأخذوه من قارعة الطريق إشفاقاً من طول وقفته. وكأيّن من تعقيبات كلامية كنت أريد أدراجها على تطارحهم للحديث، فامسك نفسي عنها. أغبط من ينشرح بالكلام واستسلام الكلمات له، وقيادة قطيعها حيث يشاء، كالعجينة بيد الخباز يصوغها على ما يريد، وأتلهف امتلاك شلال انسياب الكلمات لديهم، وأنظر إلى نفسي وكأني طفل مازال يتأتأ بالكلمات ويعوزه الاحتياج إلى ملأ سجل معجمه الكلامي، ويبلغ عجزي عن الكلام ان تراودني الدهشة على امتلاكهم شراهة الاندفاع في الحديث بلا انقطاع، وأرى حالي وقتها كالملك الذي يملك ولا يحكم، وأنا املك اللسان السليم ومكتنز التعليم وكل أدوات الحديث، ولا أستطيع التحكم والسيطرة في إحداث الكلام. أشعر كأنّه طرد قسري من فضاء الناس وأحاديثهم، وإبعاد جبري ان أكون واحد منهم، فأزحزح إلى الهامش غير المنظور كمتفرج، لا كرسيّ شاغر له ليكون لاعباً في مباريات الناس الحوارية ونظيراً يجاريهم بتمكّن. فالكلام إبانة عن نفسي وتأكيد لحضورها وإثبات لإحقية وجودها، كأن الكلام هو الضوء الذي يشعل شمعة نفسك ليراها الجميع، وبدونه تصبح ظلام لا يُرى، ولكن ران الصمت عندي، وأذاب شخصيتي، وقيّدني في تصدير لفت الانتباه لنفسي، وعقد لساني كأني

رأساً فارغة ومفلسة الأفكار، وغرير ساذج لا أُعدّ مرجعية يُرجع إليها للاستشارة، واقتناص الحل ومبادلة الرأي معها، وغير مجهز ليؤخذ منه ويُسمع له، أو أحوي الأحاديث الماتعة والظريفة الجاذبة للإنصات! أحالني الصمت إلى كتلة ضبابية، وخارطة غير معلومة المسالك، وفوضى لا يمكن التنبؤ بما قد يصدر منها، وشيء محيّر يستعصي سبر غوره، ولغز يهز الرؤوس إذا حاولوا استشفاف باطنه، وأحيانا لو سُألت لا أجد الكلمات تقبل أن تمتطيها الأفكار لكي تنطلق بها الى آذان الاخرين، فأصيّر كالعيّ الذي لا يكاد يُبين، ولا يهتدي الى أداء المقصود. وقالوا قديما ان الانسان حيوان ناطق، ولكن بتر مني النطق الذي هو آلة التعبير عن التفكير الذي افارق به الحيوان، فلم يبقَ للعيان إلا هيكل عظمي يرتدي لحماً شبه دميم، وينظر إلى عقلي كأنه ضامر معاق، وإذا حضرت لم يكن لي وزناً يُعتّد به، او خليق بان يكون محط الابصار. ولا أنسى ابدا ما حييت موقفاً ذات مرّة، عندما كنت جالساً في خط الحافلة بجانب ولد، ورأسه مُلتّفاً للوراء نحو بنت تجلس خلفه، وكنا نحن الثلاثة الوحيدين الموجودين، فكان محور الموضوع المتداول أن الولد يسمّي أسماً من افراد الخطّ، والبنت تقوم بتقييم جميع جوانب شخصيته من رقم عشرة، فلمّا انتهوا من كل الأسماء، وحان دوري للتقييم، أشار بإصبعه لي، فجعلت من نفسي شارداً ومتشاغلاً عما يدور حولي، فظنّ أن اذني بعيدة عن كلامهم، وكان جوابها التقييمي "صفر" وتشوبه ضحكة مكتومة، فقال : «يعني لا جمال ولا عقل ولا شخصية»؟، قالت : «ولا شيء»!، صررتُ على اسناني للذل الذي نهبني، وكأن عرضي قد أُغتصب أمام

عيني، اختنقت وكأن هواء السيارة قد هرب من هول ما سمعه، وجاءتني رغبة باستئذان السائق والنزول، ولكن وجدت أن ذلك سيثير ريبتهم، واندلاع مشكلة تزيد الوضع تأزماً. لا أدرى كيف تجاسروا في حضوري على النطق بهذه الكلمة التي لو مزجت بالماء الفرات العذب لتكدّر؟ غمام الدمع ركب عيني وطلبت منديلا من السائق الذي ثبت نظره على عيني واستفسر فقلت له: «هي حساسية عيوني التي تهيج بالدمع من الأجواء الباردة» ...!

كثرة صمتي تم تناوله بسخرية ممزوجة بجدية. فأحدهم قال بانه يوحي بالتجهم والانزعاج، وكأنه متأهب لرفع الهراوة على رؤوسهم أنْ لم يقلعوا عن الكلام ويحبسوا انفاسهم في صمت عسكري، فضحك الجميع مُؤمّنَين على قوله. ومنهم من يكره الفراغ الذي يخلفه صمتي وكأنه شيء ناشز، فيحاول استنطاقي حتى تكون لوحة ملحمة الكلام مكتملة لا يشذ عنها أحد. ومنهم من استحوذت عليه الثرثرة، فيُبدي العجب من صبري على الصمت وكأنّه شيء خارق للعادة! ومنهم من يرى صمتي دلالة على شخصية "من أهل الله" فأطلق عليّ لقب "المُلّا" الديني! ومنهم من يرى ان هذا الصمت دلالة مَكرٌ وخُبث، مُستشهداً بالمثل الذي يقول "خوفك من السكوتي"! ومنهم من يرى أن هذا صمت الخجل الذي يجب خلعه، والانطلاق في بحبوحة الرغبات فلنفسك عليك حق. ومنهم من يرى أن تحت هذا الصمت زوابع من الأشياء المثيرة والحركة النشطة الصاخبة، وكما يقول المثل" ياما تحت السواهي دواهي"! ومنهم من يرى أنّه صمت

المعقدين وغريبي الاطوار، ويستحي ان يقول أنّي "مريض نفسيا"! وكم رأيت اشخاص منهم، تعهّد واقسم بأن يعيدني إلى الحياة الاجتماعية وتفاعلها -وكأني في غيبوبة عنها-، ثم فشل ورأى استعصاء حالتي، وكأني ليّن وطيّع يسهل توجيه!

كثيراً ما أضع السماعات في أُذني حتى أقيها الهراء الصوتي المسمى أغاني. وأحياناً اقلّب في ملخصات المحاضرات التي لم احفظ منها حرفاً للآن. جانبيّ الطريق صحراء بوار ليس فيها ما يخلب النظر، الطريق ممل ومُتعب جداً لجسدي المهترئ، ذهابه وايابه يستغرق مني خمسُ ساعات. فكرت أن أسكن الأقسام الداخلية المجاورة لمباني الكلية ولكنها غير صالحة للسكن، لرثاثة خدماتها، وكأنّي اقْطن في اوكار المتسولين الموجودة تحت الجسور، وشقاوة طلابها المُحتدّة فلا شيء عندهم إلا الهزل الساقط الفاقع، كأن يضعوا نار الولاعة عند أرجلك وانت نائم، فتستيقظ على رائحة شواء لحمك! أو يُمسكوك جميعا ويأتي أحدهم ليقتطع منك شعيرات بأظافره فيضحكوا على لذة ألم الاقتلاع! ولا آمن طبعا ان يتلاعبوا ساخرين بممتلكات جسدك الحساسة أو يغتصبوها عنوة! وأنا مهذب رقيق الطبع، لا أقدر على التجانس في مثل هذا التجمع إن لم أكن نظير لهم في السلوك، ومزاجي بلغ من اللزوجة حداً لا أستطيع معه أن اوقد الجزء التافه بداخلي وأرسله للانسجام معهم، وكما ستكون دماثتي اللينة عُرضة للاستغلال ومادة دسمة لسكب مشاغبتهم، ولا بد أنّي لو سكنت معهم ليوم او يومين، سأفارقهم حتماً في اليوم الثالث. ولربما قد

تنفذ إليّ حركاتهم الهوجاء، فأحاكيهم بلا وعي وأخسر قسطاً من أخلاقي. وخوفي المرضي يمنعني من قطع حبلي السري عن دفء بيتنا والانفصال في مغامرة مستقلة اخوضها مع أناس غرباء. آثرت تعب الطريق على الاستيطان في بيوت النزق من المُراهقين عقلياً إلا من رحم ربّك.

عندما أنزل من السيارة أذهب إلى كافتيريا لتناول الطعام والذي لا يقدم فيه إلا الفلافل. من المفترض ان يكون اسم "الكافتيريا" جامعاً لكل أنواع الأطعمة الرئيسية الشائعة، إلا إنه هنا احتكر وجبة الفلافل، فكان اسماً مضللاً ومخادعاً لا يدل على محتواه ابداً! ولا غرْو أنّ ثمنها الزهيد وشعبية طعمها الرائق يجعلها تتزعم قائمة الاكلات، ولكن ليس إلغاء ما سواها! صحيح انه أحيانا تقدم أكلات لحمية أخرى مثل "الهمبرجر" ولكن على فترات طويلة وليس بشكل يومي، بحيث لا يبقى في ذهنك سوى الفلافل! وكان أسعار أكلات اللحوم رخيصاً للغاية لا يتناسب مع الأسعار المعقولة المقبولة والمتداولة، لدرجة عزوف كثير من الطلاب عنها، خشية ان يكون مصدر اللحم من حيوان محرّم اكله! ضجّت معدتي من استفتاح الفلافل يوميا إلى أن راضت عليها في آخر الامر، وبالطبع لا نستطيع أن نحمل معنا طعامنا إلى هنا، فهذه عادة صغار الطلاب من الابتدائية والروضات ولا يجوز تعميمها على الكبار. ولقد حدثني أحدهم أنّه أمتنع عن الاكل من هذا المكان، عندما دخل مرة الى المطبخ ورأى فأراً يهرول فوق البطاطا المقشّرة المُعدّة للقلي! ولاحظ انه يتم تجميعها في بقعة تدوسها الاقدام! ويردف قوله بالقسم الغليظة فارتاب منه، إذ لا

يعقل ان يكون مثل هذا المكان التعليمي مرتعاً للإهمال الصحي الذي يعرضه لخطر الإطاحة بسمعته، وذهاب رزق القائمين على الكافيتريا، وقلت ربما هي دسائس التسقيط بين المتنافسين للفوز بمزايدة هذا النادي الطلابي. والحقيقة ان المكان ليس فيه جمالية بارزة وطلاءه الأبيض يخالطه سواد الاتربة، أو الشخابيط والرسومات العشوائية والتقشّر، والسقوف مذ تم انشاؤها وإلى اليوم، لم يطلها ماء ولا سائل تنظيف، فكان مثالياً لخيوط مساكن العناكب، ونوافذه ما بين مكسور وملطّخ بالبقع القذرة، وأرضيته يكفي التحديق المركز فيها لأن يغلق شهيتكّ فزادت هيئة المكان في الميل الى رأي هذا الشخص الذي جعلني كلامه اتقزز واصوم عن الاكل لإيام منه، ولكن تراجعت بعدها تحت وطأة الجوع الكافر، والتسليم لهذا المكان الذي اشبه ما يكون بمطابخ السجون وملاجئ الحروب الرديئة.

مازالت الرغبة للدراسة تعاني الانسداد الذي بدا أنّه مؤبّد. ادخل المحاضرات ويستنزل الأستاذ شروحاته على اسماعنا، وكثيرا ما أشرد عنها فيصل كلامه مُفكك المعنى، وكأني أمام انسان بدائي يصدر أصواتا لا تنتظم في نطاق لغة مفهومة. فأنشغل بأشياء صغيرة مثل الشخبطة على ورق دفتري بخطوط عشوائية، أو كتابة خواطر قصيرة عن حالتي، أو رسومات بدائية سخيفة، وأحيانا اود لو أني اتقن الرسم وانسخ من ذهني أشكالاً وصوراً غريبة وسوداوية ابتكرتها تُجسّد المعاناة بداخلي، فقد كان الرسم بنظري القاصر مجرد محاكاة أشياء بالخارج وسكبها على الورق،

كأنه آلة فوتوغرافية مثل منظر طبيعي أو وجه انسان، ولم أكن ادرك انّه كذلك قناة لنقل ما يعْتمل داخل الانسان من شتى العواطف والاحاسيس وتحويلها للخارج، فتكون اللوحة سفر ينقل ذهن الانسان المتأمل فيها إلى استكشاف باطنه، فتُغني وتُفهم نظرة اليها عن عشرات السطور المكتوبة. هذه اللهفة للرسم هي وليدة المعاناة المكبوتة التي تتمسك بأي شيء ينقلها للعلن. فلقد كنت أبغض الرسم سابقا لا لذاته، وإنّما بسبب مُدرس رسم كان يدرسنا في أحد المراحل الثانوية، وكلما يدخل؛ يُحادثني بشيء من السخرية، مُستغلاً من صمتي وخفوت شخصيتي عجينة له، فيضحك الطلاب معه ويحسب بذلك أنّه مزاح بريء لتلطيف الأجواء، وما كان يعلم انّه يصفعني بكلامه ويحط من شأني ويجرحني...! أحيانا أغفو وأصحو تحت تأثير تيار خمول مرضي جارف يأتيني على فترات، أو أركز عيني في الأستاذ ويحسبني أنّي مُنتبه له، ولكن خيالي يجرده من وضعيته الواقعية ويتلاعب به، كأنْ أتخيله تلك الحشرة التي يشرح في كلامه عن تركيب جسمها وأعضاءها، أو إذا كان أستاذ كريه الأسلوب وخشن المعاملة، فيقوم خيالي بالانتقام منه كأن يضرط أثناء إلقاءه الدرس فيحتقن بالحرج ويصد وجهه باتجاه السبورة تتقاذفه من وراءه الضحكات المكتومة، أو يكون أستاذا متديّناً فاستنزل -اثناء كلامه- من ذاكرتي موسيقى برنامج الخواطر الايمانية للشيخ الشعراوي...! وهكذا سلسلة من الخيالات اللامتناهية التي اتسلى بها عن سأم الدراسة ونفور نفسي منها. وأحيانا أركز على المحاضرات والذي كان محتواها التعليمي سهلاً يعتمد على الحفظ، ولا يحتاج إلى كثير من إعمال للذهن وكدّ عناء، أو تعقيب

من الأستاذ لفّك ما اعتاص على العقل فهمه. هناك من الأستاذة من يقوم بترديد كلام المحاضرات المكتوب أمام كُرّاسته، فتقوم أقلامنا بنسخه في دفاترنا كالببغاء! وكنت امتعض لهذه التُرهات في طريقة التدريس التقليدية التي عفا عليها الزمن، فلا أدري لماذا اخترع جهاز السكنر إلا ليقوم بمهمة النسخ واختصار الوقت والجهد؟ ثم اكتشفت انه لا بد أن يقوم بهذه الطريقة مجبراً حتى يستكمل الوقت المخصص للمحاضرة، فلو اعطى مسودّة المحاضرة للطلاب ليقوموا بنسخها، فماذا سيفعل الأستاذ في وقت الدرس الفائض؟ لا يستطيع إطلاق سراحنا ووقت الدرس لم ينته، حتى لا يثير علامات استفهام من إدارته ويتعرض لعقوبات. وهناك من الأستاذة من يكفينا مؤونة الكتابة، ويشرح المادة ويفصّلها تفصيلا وينهي الوقت به، ولكن أغلب الشرح كان إعادة تدوير للكلام المكتوب بأساليب وصيغ كلامية أخرى، مجرد تغيير في ديكور المبنى اللغوي مع حواشي رتوش فكرية خفيفة يُضيفها من عنده. أشعر بسخافة مؤلمة في قضاء ساعات طويلة اقضيها في السيارة، لكي اقبع خلف قبضان المحاضرات أقوم بنسخها او سماعها صوتيا! وكذلك فان الشطر الثاني للدراسة يعتمد على التقنية والتطبيق العملي، وهذا يستلزم وجود ابنية مختبرات مجهزة بكافة الأدوات، وهذه الكلية تأسست منذ عقد من الزمان ولم يكتمل بناءها بعد! فلا توجد أراضٍ زراعية شاسعة ملحقة بملكية الكلية إلا مقادير مساحات ضئيلة، والمختبرات لم ينجز فيها إلا 40 %، فكان لا يوجد المكان الملائم لإجراء الكثير من البحوث لغرض التدريب والامتحان أو للترقية العلمية، وأشياء نظرية كنا ندرسها لأجل ملامسة

ارض الواقع فبقيت حبيسة الذاكرة بلا اجتناء منها، وضاعت مؤهلات تعليمية مهمة وضرورية للطالب لا يمكن تحصيلها إلا بالتطبيق التقني، وهشّم جزء كبير من الإمكانيات التعليمية التي لا يجب ان تعطى الشهادة إلا بمزاولة اليد لها واتقانها. وباطلاً كنت أرى لقب المهندس الزراعي الذي يُعطى للطالب في ختام مسيرته العلمية. ولربّما فلاح أُميّ ليس له نصيب من تعلّم الكتابة يكون أبرع وأقدر من الطالب المتخرج من هذه الكلّية في المجال الزراعي! ويقيناً كنت أعلم ان مهارات الطالب المتخرج لو وضعت في ظروف وظيفية مرتبطة بتخصصه، فانه سيكون "مثل الأطرش في الزفة"، وابلهاً لا يقدر على التعامل معها، وما يزيد الامر سُخفاً ان القسم الدراسي الذي أدرس فيه، لا فسحة فيه إلا في دول العالم الأول المتطورة، وتم نقله لنا مبتوراً غير مستكمل الأدوات، فكأنك طلبت انساناً كاملاً فلم يؤتَ لك إلا بالراس! ولا أدرى كيف لأستاذة كبار لهم باع عريق في أمور التعليم لا ينقلوا من مواكبة التحديث والتطور العلمي إلا القشور، وكأنهم بهذا النقل الاعرج والمشوّه قد ارتدوا جلباب الرقي والنمو والحداثة العلمية! كنت أرى هذا العبث التعليمي الفوضوي يكّمل المشهد العام التافه بلا طائل في تواجدي هنا، ويزيد من جزمي أنّ حياتي صارت هزلية بشكل فجّ لا يطاق، شبيهه بعقاب الإله زيوس للملك سيزيف بان يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل القمة تدحرجت إلى الوادي، فيعود إلى رفعها إلى القمة، في سيرورة عذاب دائرية عبثية ابدية لا فِكاك منها!

أحيانا أضيق ذرعاً بهذه المحاضرات وخصوصاً التي يشرف عليها "المذيعين" الذي يقومون بسرد النصوص التي بين أيديهم إلى مسامع "الوّراقين" وهي مهنة قديمة من القرون الوسطى يقوم أساسها على نسخ الورق أو بتعبير عصرنا "دور الطباعة والنشر"! أقول اغيب عن حضور تلك الدروس، واتفسح في أروقة الكلّية وتشغيل دينامو العقل للتأمل. حقاً إذا كان من عالم تتصابى رغبات الشباب لدخوله فهو الجامعة، ذلك الصرح الذي تتفتح فيه روضات الجنّات للقادمين من رمضاء المدارس القاحلة، وهناك تتسابق الاجساد لتحرير أقصى جمالها ويبلغ تأنّقها أوْجه. أجد الوجوه ناعمة كأنّها لم تشقى في حياتها، وفيها من البياض كأنّها لم تتعرض لأشعة الشمس الحارقة قطّ! وأحدّ النظر فلا تكاد تجد نمشة او بثرة او شعرة شاذة في غير موضعها، والشعر او اللحية تجري وفق اشكال قصّات خطتها يد فنان بارع، وفي خطوط دقيقة ومهندسة تكفي لإبراز جمالاً يتستر وراءه قبح الدميم. وهذا ميدان للنساء عريق وسادة فيه، كُل منهن تتسابق إلى التلويح بزينتها على الملأ، وكأنهن في مهرجان عروض الأزياء. أتخيل ان هذه وجوه عاشت في القصور وتحفّها آناء الليل وأطراف النهار خَدم يقومون على رعايتها! كُلّ واحد يريد خطف إبْهار أنظار الاخرين، كأنّه حفل يُتساجل فيه على ملك جمال الجامعة. أراه دخول إلى كرنفال احتفالي وليس معقل تعليمي لتعلّم الاختصاصات، وأفكّر انّه سيكون مشروعاً مضموناً ومُربحاً لو افتتحت كوافير تجميل! ومنهن من يبالغن في التبرج حدّ الهوس والسماجة، بحيث تبلغ بي الرغبة أنْ أصارحهن بأنّ هذا المكياج قد أهان وجوههن ومنظراً

للإسفاف المُقزّز. وعندي عادة، وهي عندما أرى فنانة أو ممثلة أو مذيعة بجمال زاهر وهبةُ المكياج لهنّ، وأرى من نفسي انبهاراً له يجعل بلابل الجمال تُزقزق بداخلي، فانّي ابحث في مربع بحث الصور في جوجل عن وجهها بدون مكياج، فإذا بُلبل الجمال الفتّان سرعان ما يعتذر لي على خروجه من جُحره، واقتناعه بهذا النزق السطحي وفورانه بلا تؤدة، ويرجع الى سباته العميق! فهذه التعويذة العقلية استخدمها لطمس سحر شعوذة المكياج، ولكنها بالطبع لا تفلح مع الطالبات من حولي فلا يوجد لهن صور تكون وجوههن فيها كما خلقها ربي!

وعندما أُشيح النظر عن عالم الناس، فاني التفت الى مباني متناثرة هنا وهناك، تتخللها مساحات واسعة جدا أكثر من اللازم. وقد تَظنّون أنّ هذه المساحات جنّات خضراء غنّاء، تتوزع فيها افانين الورود التي لا تُحصى...، وتسيْجها أشجار الياسمين أو الزيزفون أو الكالبتوس...، ونوافير يفرّ منها الماء في جميع الاتجاهات ثم ترتد قافزة في الحوض، ومقاعد يستروح فيها الطلبة من نَصَب الدراسة ويستنشقون فيها الاوكسجين النقيّ كالموجود في غابات الامازون، فيُضْفي عليهم الاسترخاء ويجدد عروق الدورة الدموية بداخلهم، وأنّ العيون تجد فيها مناظر خصبة فاتنة تشيع البهجة في النفوس، وأنّه جوْ مثالي للعشاق لتفريغ الرومانسية فلا أجدى من الطبيعة الرائقة تكون مكاناً مناسباً لهم فيقطف وردة -مثلا- ويُشبّهها بحبيبه...! قد يأتي هذا الظن لوهلة أولى بما ان هذه كُلية زراعة ويجب ان يكون أساسها ومعمارها هو النبات حصراً،

بحيث كأنك تدخل محمية طبيعية ويغطيها الخَضار من كل حدْب وصوْب، ويكاد ينقرض فيها وجود الصناعة الإنسانية، بحيث حتى البناء الآجر يزحف عليه النبات المتسلق بصورة زاهية، فهي كلية زراعية وتملك كوادر مهندسين زراعيين حاذقين في تطويع النباتات وتوزيعها بفنّ جماليّ على المساحات في اشكال شتّى مُتنوعة نضِرة؛ أقول: هذه الظنون تذهب أدراج الرياح امام حقيقة أن لا يوجد عناية في الجانب الجماليّ النباتيّ، فهذه المساحات الفارغة إما تكون ارض قاحلة سبْخة صلّدة غير مستوية، يتبعثر فيها أنواع من الحجارة الصغيرة ومخلفات سِلع إنسانية مثل علبة ماء او كيس ممزق، مع حفنة ادغال كريهة المنظر مثل نبات "العاكول الشوكي"، أو حدائق سُحنتها هزيلة لا تبذل فيها الجهد الكافي لاستنفار كافة جمالها، فتجد ان الحشائش مصفّرة من سوء التغذية ويستحي الخضار من الانتشار فيها! وبالكاد تشقّ طريقها من ملوحة الأرض التي تجهض محاولاتها للازدهار، علاوة على منافسة الادغال في نموّها مِمّا يُزيد المنظر تشويهاً، ومهما حاولوا زرع نباتات الزينة في كل مرّة، فأن الذبول يصطادها ويحول بينها وبين تفتّح ازهارها، فلا يكاد ينجو نبات منها بكامل نموّه ونضجه إلا القليل منها، فالتربة غير سويّة لنمو النباتات بصورة سليمة بلا عوائق، ولا توجد جهود لاستصلاحها بشكل وافي. واما الاسيجة الحديدية المحاطة حول تلك الحدائق، فإنّ الصدأ أصابه ولا يوجد تجديد لطلائه. تراخي مستهتر من جانب المُشْرفين وعُمّالهم الذي يقومون بعملهم على عَجل سطحي بلا اتقان.

ولا عجب أنْ كانت الاتربة منتشرة في كل مكان، فلا تكاد تمشي بِضع خطوات حتى تجد أن حِذاءك قد توسّخ، ولا بد ان تشتري يوميا كيس مناديل لتنظفه إن كنت من المهتمين بأناقتك. وأفّكّر ان فتح كشك صغير يبيع فقط المناديل في هذا المكان، سيدرّ عليْك ربحاً وفيراً يجعلك قادر على الزواج وتكوين أُسرة! ولا ننسى الطقس اليومي لضرب لباس ساقيك بيديْك حتى تنفض عنه الاتربة العالقة.

وأما الطرق التي تربط بين الأبنية فكانت مصبوبة بالإسمنت، ولكن أجزاء كبيرة منها غير مستوية. فإذا كان الشتاء وهطل المطر تجمعت برك الماء الصغيرة التي تُعيق التنقل، فيضطر أحيانا لأن يوضع فوقها جسر مؤقت من الطابوق للمَشيّ فوقه، كأنك في سيرك تمشي على حبل ويديك مبسوطتين في خط افقي! وقد يصاحب عملية التنقل ان يتحرش رذاذ المشروب العكر لهذه التجمعات المائية بحواف البناطيل والتنانير والاحذية، فتتشكل بقع عليها تُفْسد منظرها. وهنا أتذكر الكراج -الذي يضم خطوط سيارات الطلبة- غير المعبّد، وتصبح أرضيّته طينة لزجة لو مسّها ماء السماء المبارك، وأستطيع أن اترك للمُخيْلة ما يفعله من تخريب لو وطأته الاقدام عندما تنزل من السيارة! وانا كنت اخوض في هذه الاوحال والاوساخ ولا أبالي بما يتكوْم من شوائب تعلق بي، بل أشفق ساخراً من التعب المُضْني الذي يقضيه الطلبة لإزالتها. المساحة التي يُعتنى فيها بحقّ وتسترعي النظر والانتباه، هي التي بجانب عَمادة الكلّية حيث رئاستها! وهذه عادة بلداننا حيث يُتناول ما يخص المسؤول

الزعيم بالوجه الأتمّ والأحسن، ورعاية شؤونه كبيرها وصغيرها بلا نقْص أو عوار، وأما رعاياهم فهم مواطنين من الدرجة الثانية يجري الاهتمام بأمرهم على تثاؤب وتقصير كبير... أما البلاليع، عفوا اقصد الحمامات فقد ...، أعتقد أنّ كلمة البلاليع كافية ووافية في استيفاء وصفها! لو صَعّدت النظر إلى موقع الكلّية لوجدت أنّ ما يحيط خارج اسوارها، أجزاء شاسعة من دغل القصب البرْدي الذي ينْمو بعشوائية نَهِمة لا يحوي أيّ بهاء خارجي يملح الروح! كثافة القصب وامتداده الذي لا يجد البصر حداً له، يشعرني بشذوذ المكان وغربته، وأنّ القصب مُتأهب لإن ينتقم من اقتطاع جزء منه لهذا البناء ومستعد لغزو بقاع الكلّية! أشعر أنّ البناء كأنه كوخ بدائي في وسط الاهوار المدججة بالقصب! وربما اسخر بداخلي ان البناء قد ارتقى بنظرية النشوء والارتقاء من أصول هذا النبات؛ لذلك هو موجود بينهم! وطبعا لن أحدثكم عن سور الكلية الذي اعيد بناءه قبل سنة، ثم هو الان يُعاني تشققات واسعة، وطلاءه الخارجي يتقشر ويتآكل ويكشف عن رداءة قبيحة! أموال تنفق ببذخ ولا يأتي من ورائها إلا جودة رخيصة في البناء تشي بفساد المقاولات. أقول أنّ هذه الكلّية لو كان أمرها بيدي لنسفْتها وأقصيت وجودها، واختلاقاً وإفْكاً ان تُسمى كُلية وهي جنين مشوه لم يستكمل المواصفات المطلوبة الجديرة بان ينطبق عليها هذا الاسم.

أشعر بأنّ الحظ يسخر مني عندما يضعني في هذه الأماكن الوضيعة، كأن هذا مقامي ولا يستحق إلا أن يتمثّل في امثالها. هذا الطابع

المُبتذل البشع لتضاريس الكلية كان يزيد من قتامة نفسي ويساهم في نزع الحماسة من جوفي، كأن الأشياء هنا متفقة على تعتيم كل ما يحفز الاندفاع والاقبال للحركة والمجيء. هناك كليات فذّة يشع من انتظام معمارها وبهرجتها ما يجعلك تستيقظ كل صباح لهفة وشوق للذهاب اليها، وتحزن لفراقها عند مغادرتها، وكأنّ المكان مُغرم بك فهو متبرج لك ابداً حتى ينال استحسانك ويزيدك تعلقاً به. ولربّما لو كان كليتي مِثلها لرُدمت فجوات كثيرة من التدابر معها، وبدْدّت كثير من الاستيحاش اتجاهها، فالجمال المادي للأبنية كلما ارتقى وعلا، سبّب نزوح وهجرة كثير من الهم بداخلك، وحتى يمنحك جرعات صبر للتكيف مع الناس وان شعرت بالنفور اتجاههم.

صحيح أنّ توالي دوامي اليومي قد خلق أُلفة بسيطة مع الناس من حولي، ورفعت حالة الإنذار الواجفة، إلا ان الخيط الذي يصلني بهم هشّ ورفيع يسهل قطعه تحت أدنى ظروف معاكسة، فمازال عندي نقص مناعة لا يستطيع صدّ أخفّ وأيْسر فتك يحيط العلاقات وينْقضها. وبقي ذلك العسر في تغلغل إقامة الصداقات، فما كان يجمعني كلام مع زملائي إلا السلام، وشذرات حديث سطحية مختصرة أكون فيها المُستمع. ولكن استطعت عقد صداقة يتيمة مع شخص يسكن الأرياف، وفيه استقامة على الفطرة والبراءة لم تلوّثها التواءات حياة المدن، وعنده سمات الخجل من الامتثال وانتفاء المعارضة، والتواضع المفرط المنزوي والمقفل في الهامش، وعدم التفتح والتصدر أو اللسان المِهذار الثرثار، تُزاوج

الابتسامة الساذجة فمه، ولم يكن في ملبسه وصورته ابّهة متكلفة، فكان سهلاً ليناً بسيطاً من طينة الأشخاص الذين إذا رأيتهم شعرت بنقائهم الصادر من أعينهم، ناعماً ذاوي البُنية، يُشفق الشخص من مخاصمته أو قهره من الضعف البيّن المنبعث من هيئته. لذا سلّمت له روحي بالاحتضان والمودّة، ولم يكن هناك كبير عقبة في التعارف وخصوصا انّه يشابهني في طباع كثيرة، فما هو إلا أن أخذنا خيوط الكلام من أول لقاء حقيقي حتى تواطئنا على الصداقة بسرعة وتوطّدت، والحق انه كان نفحة سماوية تخفف من لفح الغربة المُضْطرم. ولكن كان ينزوي في جِبّ أسود داخلي مشاعر مظلمة اتجاهه! لماذا؟ لمّا كنت احتقر ضعفي الذي بلّغني المرض إياه، تأجج عندي حالة ازدراء اتجاه زمرة الضعفاء الذين لا طوْل ولا حول لهم، فيُذكّرني ما بهم -ومنهم هذا الفتى الريفي- من استكانة وخضوع وضيم بما عندي، فاشمئز من حالنا جميعاً، واشعر بالأنفة من مجالستهم، واستحضر بلاهتنا وهي تتفرج من حولها، وعوزنا لقوة النفوذ، فلا نستطيع تحريك خيوط الاحداث والتأثير فيها، وأنظر باحتقار الى إشغالنا بتوافه المهام ووضعنا في مؤخرة الترتيب، ويلم بي التأوه الشديد إذا استبصرت حالهم، ونظرة الناس لهم ما بين شفقة أو أحيانا نظرة هازئة مستخفة بهم. واعتقادي كان أن هذه الأرض خُلقت ليؤخذ ما عليها بقوة ساعِدك، فان تنكّبت عن هذا الصراط، ستتقاذفك أرجل المهانة وتُطرح من العيش العزيز المُهاب، وتمشي على ارصفة وطرقات الذل والمشي جنب الحيط. لذا كان من بواعث الحالة السلبية اتجاه الضعفاء، هو وجود القوّي الذي يُظهر سلوكيات تستهدف-بغير قصد واحيانا بقصد-

إراقة انسانيته، وما يزيد الوضع انحداراً ان بعض هذه السلوكيات ضرورية لاستقامة الحياة...! لو كان للضعفاء جزيرة تنتظم شأنهم لوحدهم، لمَا كان هناك معنى لكل هذا الاحتقار منّي، والناشئ عن وجود قوي يتصدّر عليه. مشاعر سوداوية أُكابد ان لا يكون لها استيطان راسخ وتأثير على سلوكي، وأُدافعها بأفكار مضادة تحاصرها وتدّك حُصونها، فأقول لنفسي لو كان للرحمة مكان تستودع فيها نفسها، لكانت قلوبهم، لأن القوة كثيراً ما تكون مثوى ينبعث منها مساوئ الاخلاق من الخُيلاء والقسوة ونحو ذلك... فلا يقدر على احتوائها إلا من جعل نفسه طوع بنانه، وقليلٌ ماهمّ، لذلك تجد روحي الائتلاف والانشراح وانطلاق سجيتي معهم، وتتولانا العفوية والسذاجة البريئة الخالية من التكلف، وتتراص الصدور في مودة وإيثار، لا تضمر الوْجد والحسد والكيد والأثرة لأحد، وأتذكر مرة مدرس الإسلامية قال ان هذا الصنف من الناس سيكونون من أوائل الزُمر التي ستدخل الجنة حسب ما قاله النبي! والله اعلم.

مع أن السنّ الذي كنت أُناهزه يتعطش للتمسك بتلابيب الحب، واتخاذ امرأة موضوعاً لقلبي يتفاعل معها غراماً، إلا أنّي كنت في فوضى اجتاحت أولوياتي، فالحاجة للأمن الشخصي وإعادة النقاهة لجسمي قد تصدروا أولوياتي القصوى. بؤرة اهتمامي المكثّف مُنصبّة نحو داخلي والكركبة المندلعة فيها. لم يكن ذي بال عندي مفردات العالم الخارجي ومنها المرأة. كل ما عدا ذاتي، أعدّه شيئا ثانوياً يقف في طابور الانتظار كي يحظى بنظرة عيني، وأعلم ان مثل هذا السلوك حرّك أراء، أنّ التكبّر

وغرابة الاطوار هي ما جعلتني اتّجه نحو الاستعلاء المستنكف عن مخالطة الناس. هذه طبيعة الناس التي تمقت فراغ الأسباب المجهولة، ولا بُدّ أن تضع من عندها أشياء معلومة تفسر كل ما هو غامض غير مألوف، حتى لو أنّ السبب الذي توصلوا إليه خاطئاً وغير منطقي بالمرّة. لم تتحفز بداخلي العاطفة وأنا أرى زُملائي ما بين الدخول في حالة ارتباط او بقاءهم قيْد الملاحقة البصرية لمحبوبهم وتربصهم الفرصة المناسبة لمصارحتهم، او كتمان حبهم من طرف واحد، لانعدام الجسارة لديهم كما هو حال صاحبي فتى الريف. السائد على انفعالات قلبي هو الخوف، فكيف يكون للحب منفذ يشع به للخارج؟ انفعالات قلبي غير متوازنة، والحب حُجز في زنزانة الخوف. صحيح ان المحبُوب يمنح الأمان للطرف المُحبّ، إلا ان لون الأمان الذي كنت اريده ليس من جنس الأمان الموهوب من المحبوب، أو هو رشَحات امان واهنة غير كافية ولا تُشبع نفسي، فلا يُغْني التنفس الصناعي عن الطبيعي! ولو كنت اعلم ان الطمأنينة الحقّة التي اريدها قد تأتي من علاقة ارتباط لحبَوت اليها زحفاً. أعلم أن كثير من الناس يقول أنّ الحب لا ينعدم في كل الحالات البشرية، ومنها المُزرية والشاذة، وهذا هراء غير مسطور سوى في الروايات والشعر والأفلام. فالحب ليس شيء محضّ في الفضاء المعلق، ينبت لمجرد رؤيته الشخص المناسب، وإنّما هو مؤسس على أشياء أخرى في حياتنا موجودة تُهيّئ ظهوره، فإنْ انعدمت انطفأ خروجه، فهل يمكن اقناع الفقير بإن الحب أهم من الطعام؟ ... ولا يعني هذا ضمور الجاذبية اتجاه الانثى تماما. فمرّة علقت بانشداه اتجاه بنت، وبقيت عدّة أيام معدودات

تلهج بها عاطفتي، وأيْقنت أني واقعْت الحُب، ثم فجأة خمدت كل جائحة مشاعري اتجاهها! وعجبت كيف أني اصبحت أمر بها مرور الكِرام ولا يهتزّ لها قلبي او يلتهمها نظري بشغف! استسخفت عاطفتي وحقّرتها على هذه الدناءة والتلاعب بي من تفعيل زر الوله والهيام وإيقافها على حين غِرّة. فقدت الرزانة في المشاعر، وأعاني من حدوث تقلّبات فيها غير مفهومة بتاتاً، وهناك تأزم قلق فيها. لربما حَدَث الحُبّ مع هذه البنت، فلمّا أراد الانطلاق بصفاء واستواء، صادف عدم استقرار ولّدها الخوف الراسخ بي، ولكن قد أعدل عن هذا الرأي الى آخر، فعلّلت الامر بمراهقة عواطف، فعندما وقع نظري عليها، أجّج بي رغبة مكبوتة لِما لها من تبرّج واضح، وفتنة في عينها التي كأنها الحور العين، أليس هناك اقوال تقول ان الحب اشتهاء غير مقضيّ! هذه تحليلات لا اغترفها من عقلي، وإنّما اطلعت عليها من كتب في علم النفس في اثناء انشغالي بالبحث عن مرضي النفسي!، لذلك لا أقول ان صلتي بالأنثى غير منقطعة تماماً، وخصوصا ان الجانب الغرائزي عندي يغذيه مناظر النساء فيكون لي فيهن رغبة. وحتى لو أنّ عواطفي كانت بمنأى عن التأثيرات السلبية لمرضي، فان احتمال دخولي في علاقة ارتباط عسيرة، ذلك لإن نظرتي للمرأة مُهيبة، ويغلب عليها التقديس وتنزيهها عن الأمور الشائنة، وأراها شيء يصعب نيله إلا بشروط مرهقة جدا، والطرق إليها مُغلقة بجدران من نار لا يُستطاع الاقتراب منها، ولا يمكن أسرها بسهولة منْ كلمة او نظرة أو غمزة أو مال او وسامة، فهي مكينة في عزّة لا تستدرج بأحابيل الإغراء والإغواء، وسيكون مصيري اليأس والفشل لو حاولت خِطبة

ودّها وجعلها في عصمة امري، مرتقى شاهق وعلو سامق، والتسلق لها شاق جداً لا يتأتى بطريق من حرير. وقتذاك كان هكذا تصوري الغرّ الساذج الذي لا يفهم من عوالم المرأة إلا غلافها المُحتشم ظاهراً، وكنت أرى من يرتبطن على مرأى من الناس هنّ مُتراخيات ومنحلّات لا يمثلن جنس النساء، ولم أكن أدري ان بداخلهن لهفة محمومة فطرية لهذه العلاقات، وينتظرن على أحرّ من الجمر الولوج فيها، وانّ كثيرا منها يجري في الخفاء بعيدا عن أعين الرقباء! ذلك ما لَقنْتهُ التربية من براءة النساء، فلم أكن املك تاريخ مراهقة واقعي مليء بالمغامرات معهن حتى استبصر طينة البشر الثاوية فيها حمأة النفس الامّارة بالرغبات والنوازع، والمتطلعة الى ملذات وزينة الحياة الدنيا كما عند الرجال. هذه نظرة ستتصدع بمرور السنين وينكشف منها القيح المستور عني. لذلك لو سلّمنا بقدرة قلبي على الحبّ، سيكون الامر عُضال وشبه محال -في ظل هذا التصور- أن اقترب، واتخيل لو كاشفت إحداهن بإعجابي بها، فاستلقى توبيخ يطعن بشرف أخلاقي! علاوة على شعوري بعدم امتلاكي المؤهلات الجاذبة المُلتفة، لأن أكون الرجل المنشود لقلب إحداهن، فبقيت علاقتي مع المرأة مغلقة وظاهرية الى حين من الدهر.

الرسالة العاشرة:

سُبّوح قدوس شهرزاد. لماذا احببتكِ؟ هذا السؤال لطالما استفتى معارف دار الإفتاء العقلية عندي لاستخلاص الجواب الكافي. اسأل هذا السؤال لتحصن معقلي عن البشر وانقطاعي اليه، ثم اختراقكِ المفاجئ له واستسلامي الطوعي إليكِ. هل كان دواري العشقيّ لإنك أبيّة على التقرّب وكل ممنوع مرغوب؟ الحق انّ طريقي اليكِ كان ملبّد بحواف السكاكين وخابت آمالي الراغبة فيكِ من أوّل السير فيه، وازرقّ جلد روحي بكدمات المحاولات اليائسة، وإنْ حصل واجتزته بصبر وجسارة محاربي اسبارطة وفرحت بالوصول إليكِ، فإنّك سرعان ما تُبدّلين موقعكِ كالسراب، فألفى نفسي في خط البداية والمربع الأولّ! وبطريق مختلف آخر عليّ ان اقتفي أثره. لعبة من المتاهة دُرْت فيها حول نفسي اثناء تقربي منكِ، فأظن أن كل مخرج هو خط الانتهاء. كل سحر التودد اليكِ التقمته عصا حذركِ وابطلته.

في طريق التعرف اليكِ دعوتني إلى مأدبة رحيق مرارة انوثتكِ للنفور منكِ، فالأصل عندكِ هو العزلة المؤطّرة بمدافع الصدّ والردّ والخالية من الودّ، ولولا شغفي بكِ الذي أمدْني بالَجلْد على المثابرة؛ لتحاشيتكِ منذ البداية وجثيت على ركبتي من مطلوب عزّ نواله. لم أكن أعلم في علم الغيب ان هناك امرأة ستحولني إلى عدّاء اهرول إلى كأس الظفر بها. ضُربتُ من سهام جفاءكِ ما هو كفيل بتثبيط أعتى الهمم، فامرأة مثلكِ إذا أراد شخص الحصول عليها، فعليه ان يُحني قامة رجولته

من بابكِ القصير للدخول! ولا يمر الشخص عندكِ إلا بفتنة اختبار مُرهقة، ومفازة قِزاز متكسّر، ليتمحص لكِ الخبيث من الطيب، والمحب من المزيف.

بذلتُ فيكِ جُهداً لو اطلع عليه الآخرون من معارفي، لاستغربوا كيف لجاثم الهمّة وساكن المبالاة مثلي ان يفعل ذلك! لو شاهدوا مقدار حبّي لكِ، لعلموا أنْ قلبّي فيه نداوة الحياة وطراوة المشاعر، وليس كالحجارة أو أشدّ قسوة منها كما زعموا من ظنهم بي. أعطيتكِ طاقة اهتمام كان يرغب بُربعها رهط من النساء المعجبين، وأبديتُ تفانياً منصهراً حتى انّي قُلت لكِ: لو كنت مُتخذاً من الناس خليلاً لكان انتِ. دائما استغرب كيف لقلب بوادٍ ناشف غير ذي زرع ان يتفجر بماء زمزم العشق لشخص!

لم تفسحي مكاناً لي في صالون مساحتكِ، إلا بعد ان استفرغت جهدي ونفضت يدي عنكِ من اليأس وتقطّعت بي السبل. دنوْت منكِ بمزاجكِ لا بفضل احابيل اصطْدكِ بها. وأحيانا اظن أنى أقرب الناس إليكِ، فينبثق بينا فجأة من يدكِ جدار برلين سميك، فلا كأنّك تعرفيني وتغتربين عني إلى حيث استنكر تبدّلك! وعلى الرغم من استلامي كارت ترخيص القرب منكِ وانتشائي به، فان بهجة التواصل معكِ لم تتضاءل.

هل كان سبب انجذابي اليكِ؛ لأني وجدت من يشابهني في غموضي المنقطع النظير وحرصي على قطع كل يد تفض بكارته! خفاء

شخصيتكِ المتكورة في بطن العَجمة الملتبسة وقُصر السلالم البشرية عن قطف اسرارها؟ أو هل كان هذا الانجذاب احتيال من نفسي، لاتخاذ موضوع الحُب غرضاً استثماريا ادبياً لتوسعة الجاه الثقافي عندي والتربّح من بضاعته! أو هل اريد من خلاله التوكيد على ان قلبي لم يكن بِدعاً عن قلوب الناس، وانه قادر على ان يُحب، وبالغ لسن الرشد العاطفي، وليس دُمية مرعبة تمزّق العواطف بمخالبها! أو هل كُنتِ نتيجة حادث هشاشة قلبية فلتت من ومضة زمن في حياتي فصادف طريقكِ؟ أو هل لأنك شخصية فذّة فأعجبت بمؤهلاتها الآخذة بسويداء قلبي؟

لن استطرد كثيراً في الاحتمالات والتي اراها لا تفسّر السبب، ولربما الحب يبقى محافظاً على هالته؛ مادامت يدُ العقل لا تصلّ جذوره، أو أنّه هكذا بطبيعته يفلت من قانون السبب والنتيجة، وكأنه طفرة خرجت من العدم بلا واسطة احتياج تُنشأه وتطوّره!، فيبقى مغرداً نعيش آثاره ونجهل أسبابه. ما اعرفه ومتيقن منه أن عنواني معكِ "ثم التقيتكِ"، فقلبي قبلكِ ليس كما بعده.

******

كان الزمن يجري بوداعة في الكلية. فأحيانا تأتي أيام استشعر فيها الدّعة ومُداعبة المسرّة لإيامي، وأنّها هدنة مؤقتة لوقف الاعمال العدائية للمرض وبأساء الدنيا، أو هي صحوة المرض الذي يعطي بُرْهة لساكنه ان يتنفس الصعداء قليلاً ثم يعود لاستئناف مسيرته. اتحسس من خلالها

نسمات العافية التي أدبرت عني واعتلاج الحنين اليها، وأتذكر قول الاعرابيّ للحجاج عندما أشاد باستطابة الطعام فردّ عليه: «إنمّا طيّبته العافية»، فكل شيء خلا العافية يفقد لذته، وما أنعم على عبد من نعمة إلا والعافية فوقها. وأنّ المريض لمستعد أن يدفع مِلئ الأرض ذهباً ليفتدي نفسه منه. والحياة لا تصبح صالحة للحياة بدونها. وما من كائن يدبّ على الأرض يسعى لتوفير حاجاته إلا والعافية تكون وقوده لذلك. والأحاديث النبوية تتواتر في حضّها العبد على سؤال العافية من الله تعالى. وكلّ من فقدها لا يجد فقدان أعظم منها ولا ينظر للحياة من بعدها، فهو أعظم مطلوب لو رحل. وحتى الأطباء القائمين على استرداد العافية هم أكثر الناس دَخلاً وأرفعهم مكانة بين الصنائع والوظائف في المجتمع، لمَا عَلِم الناس من خطر المرض وسلامة النفس من آفاته. فأيّ شيء للمرء يتبقى لو خلت العافية إلا تمني الموت؟ وكل ما حصّلته المعاجم من كلمات تدل على الجانب التعس للحياة، فإنها تنقش في الشخص الذي تلاشت عنده العافية، ولو كان للموت نقيض بديل للفظ الحياة لكانت العافية، ولو كان للموت هيئة وتجسّد لكان المرض، ولا شيء خليق بان يشكر عليه الله تعالى مثل العافية، ما خلا الايمان.

ولكن كنت انظر إلى أيام مهادنة المرض الخاطفة تلك نظر المُرتاب اليها، أراها غشّ تموّه عن ضِيق سيتجلى قريباً، فيتنغص خاطري بالكدر واتحيّن وصوله في كل آن. هذا الشعور الهدوء الحذِر ما قبل العاصفة، إنمّا يتعزز من ذكريات الماضي التي تؤكد عادة مشاغبة

القلق لتلك اللحظات الهنيّة. اتكهّن بنوع التلوث الذي سيُزجْي على مزاجي التعكر، وحقاً ماهي إلا فترة من الصفاء حتى يتحول الرخاء إلى خراء، فأتحسر على قُصر مدّتها، وأمتعض من ازدراد المرض حُصة الأسد من ايامي، ولا أعلم اناشد من ليرتفع نصيبي من لحظات الهناء؟ وانا الرديء في صناعة السعادة لنفسي وعندي نقصان مُعدّات زيادة منافذها، فلا أدرى متى تقفل العافية إلى الأصل ويصبح المرض هو الاستثناء! فقد نسيت طعم الحياة المتوّجة بالعافية فيما مضى، كأنّي أشعر ان حياتي مذ وعيت وما رأت الصحة قطّ، والمرض يرأسها، ورئاسته سرمدية لا تنقطع من المهد الى اللحد.

أقول ان تلك اللحظات الغضرة بدأت بالتلاشي، عندما جاء موسم الامتحانات الشهرية، وأنا لم أُعبّئ ذاكرتي بالمواد الدراسية، فما زالت المحاضرات مُكدّسة فوق بعضها، غير مفروزة ولا منضودة وفق المادة الدراسية والتي لا احفظ كثير من اسمائها! وكثير منها مازال الورق فيها حديثاً مُستوياً لم يتسلّل إليه التجعد، فضلا عن إهمال كثير منها وعدم امتلاكها. نية الدراسة والحفظ كانت منهزمة بداخلي، ولم يكن لي سبيل للنجاح في الاختبارات في ظل هذا الإحباط، فكنت أحيانا ابقي ورقة الامتحان بيضاء قطنية، كأنها صادرة طازجة للتو من مصنع الورق، وأقدّمها في الدقائق الأولى منه للأستاذ، وأحطم الرقم القياسي كأول شخص يخرج، لأنه كان يزعجني أن أبقى اسرّح بنظري حول الطلاب وهم يكتبون بسرعة، فيتناهى لسمعي نقرات القلم المصطكة بالورقة فوق

خشب الكرسي فاشعر بشذوذي المحرج. وأحيانا اتريث واكتب من عندي تلفيق ليس له علاقة بموضوع المادة من بعيد، ولا أدري لماذا كنت اشعر بالارتياح عندما تُملأ الورقة بهذا الهذر الكلامي؟ وكأني بذلك نجحت وأتيت بالعلامة العالية! ربما كنت استحسن عقلي القادر على تأليف ما يشاء ولا يعقم ان ينشأ الأفكار! وأحيانا عندما كنت أتسلم ورقتي بعد التصحيح من قبل الأستاذ، كنت أجد علامة × على كامل الإجابة، أيّ صفر! فامتعض كيف يرميها هكذا بالضلال المبين بلا أدنى تقدير؟ فكأن امتلاء الورقة لوحده كافي لان يعطي درجات مقبولة بغض النظر عن المحتوى! ومن الاساتذة من كان يشفق على تعبي في الكتابة فيُعطي على إجابتي لسؤال مثلاً 5 /20 درجة! ومثل هذا الوضع المحتاج للمعلومة المغيثة للنجاح شجّع الغش وعشعش بداخلي، ويشهد الله اني قاومت نفسي بكدّ في اقتباس إجابات كانت تتعرض لنظري، فلا استطيب لنفسي ان اعكر نزاهتي، متطرف في شفافيتي لدرجة انّه ذات مرة أستاذة قبل ان توزع أسئلة الامتحانات، طلبت من الجميع محو جميع الغش المختبئ عن انظارها فوراً، فشرع البعض بإزاحته وكنت أعلم أنّ طالب على يميني قد اتخم سطح كُرسيَه بكلمات ناعمة لا تكاد تُرى من ملخصّات المادة، ولم يستجب لعملية نحر الغش الجارية. فكررت الأستاذة نداءها الأخير، وتتوعد برسوب الطالب في مادتها إن كشفته وفضحته، ولن يفلح معها ولو كان ابن وزير! وأجرْت جولة بين الكراسي لغرض التفتيش ووقفت بجانبي، فانبريت تلقائيا أخبرها بمكان غش ذلك الطالب، فاستدارت اليه واحنت ظهرها وقطّبت عيْنيها وعدّلت نظارتها للتدقيق، فأبْدت شيء من

الدهشة اتجاهه وهو المتفوق في مادتها! فكيف يقوم بمثل هذا الاحتيال او يحتاجه؟ طردته خارج القاعة الدراسية وهو ينظر بشزر متوعدّ لي. ولقد تلقيت منه فيما بعد لوم عنيف جارح، واتهمني بالخيانة الخسيسة التي لا تصح بين الزملاء، وتوافق على كلامه الناقد بقية الطلبة، وعُدّ ذلك من الغدر، حتى أني شعرت بالندم؛ ليس لإنّها فعلة منكرة وتصرف سافل من جانبي، وانما لشعوري بذلك الشعور الجاثم الذي أحاول طرده من ساحتي ما استطعت وهو الغربة والشذوذ عن البقية، حتى أني شككت في نيات فعلي، وقلت قد يكون باعثه دفاع ذاتي يحاول التسقيط، وجلب أكبر عدد ممكن معي الى قاع الرسوب حتى لا اشعر لوحدي بمرارة فشله!

الجانب المظلم "الإبن الأستاذ" الذي تحدّثت سابقا عنه، بدا تأثيره المرّ ينتشر خلال فترة الامتحانات. كنت أتلقى تعليقات من الأستاذة ينساب منها الانتقاد والتعريض بي. أتذكر أحدهم عندما سلّمته ورقة الامتحان بسرعة قال: «أنت ابن الأستاذ خليل، فلماذا لا تُذاكر»؟ غير مسموح لي سوى إتيان الدرجات الممتازة، وما دونه يعتبر كأنّه وصمة سوداء دمغت على جبيني، فيندى له بالخزي على رؤوس الاشهاد! لو كنت ابن شخص عاديّ لم يعبأ بي أحد حتى لو كانت علاماتي تحت الصفر. ضغط رهيب قلق ينشأ من تدافع المتوقع مني من الدرجات، وبين رغبتي المنقطعة عن الدراسة نهائيا. اعْيَب موقف مررت به عندما أعطيت الورقة فارغة لأستاذ بعد ثوان من توزيع الأسئلة، فكأنه شعر بالاستخفاف من حركتي هذه، فقام بتمزيقها نصفين امامي وانتبه الجميع لهذا وقال لي: «لا تظن

لإنك ابن الأستاذ خليل، فاعطي لك رقم النجاح بلا تعب»! بفعلته هذه كأنه مزق ذاتي وبعثر قطعها على الأرض فينظر لها الطلاب بشفقة، ذل اشتهيت معه ان أُوسع الأستاذ واتمرّد عليه بأقذع الكلام، فزجرني الخجل. أشعر أحيانا بصدري يتقدّ بالقساوة وبحاجة إلى نثرها خارجاً، نتيجة اتخاذي الدائم وضع الوداعة الذي قد يبتسم لشخص لَكَم أسنانه فتحطمت! فارغب باغتراف كيل الشتائم من معجم القدح وأردّها على من سبّني، فلا اكتفي باحتجاج نظيف وتقطيبة مستاءة. أن أرمي المسامحة في مخزن الأغراض القديمة المنتهية واقفل هناك عليها، وأرخّص للعضلات ان تأخذ مكانها في الرد على من اساء لي. أن أقوم بإزاحة المجاملة من التشكيل الأساسي لفريق المعاملة في حياتي وزجّه على الاحتياط، واستبداله بالوقاحة التي لا تهاب لومة لائم فاخرج ما بداخلي بسهولة، وإنْ اغتال قواعد اللباقة مع الناس. أن اتعامل بصراحة تزوي كل من يحاول التملق والنفاق حولي. أن اطئ بعجرفتي وانظر بعين شزرا لكل من يرخّص من قيمة نفسي أو يمسّ كرامتها لا أغضّ عنه الطرف بسماحة. أن ابللّ قلبي بخباثة وجهامة تخيس معها الطيبة، فلا يجد أحد سبيل لاستغلالي وركوبي لمآربه. أن أكون حقل الغام فلا يجسر او يفكر أحد بدهسي والنيل مني. أن استخذي العواطف في قفص واوقف رعونتها المراهقة، فلا اتعلق بأحد اتذلل له أو أُبتز أو أجرجر بسببه. أن أكون جِلفاً وفظاً وشرساً، حتى تُجهض خواطر قد تفكر بطعني والايقاع بي.

تدفقت كراهية حضوري للكلّية وخوف شديد من مداخلة الامتحانات، لدرجة أني غبت عن حضور بعضها منتحلاً شتى التعليلات. أسمع من الطلبة جهاراً أو من لمز خفيّ، أنّي ما سلكت هذا السلوك المتقاعس اتجاه الامتحانات إلا لضمانيَ النجاح، وأن الوساطة ستحدث ريمونتادا رياضية تقلب الخسارات المدوية إلى نجاحات متفوقة، ويتمنون لو انّهم مكاني فيستريحون من عناء التحصيل والمذاكرة. وهذه الآراء كانت تزيد من إيلامي، لإنّي كنت أرى حياتي تعيش فترتها الزاهية من الخيبات والهزائم، ولم أكن ارتضي لنفسي أن أزيد خساراتي بهذه الجنحة الفاسدة للنجاح ولا هذه السقطة الأخلاقية. وخجلي المتطرف لا يجعلني أعيش في راحة إذا سلبت شيئاً بغير حق، ويجعلني أبْصق على ذاتي إن ملكتُ ما لا استحقه. وفي قرارة نفسي إن تتالي الرسوب يعني إضفاء اليأس على وضعي من قبل اهلي، والتعجيل باستقالتي من الكلية وأخذ إجازة مفتوحة منها، وهناك دافع دفين عميق مناقض للدوافع الأخرى الظاهرية، يرى أن في الرسوب لذّة متفرعة من لذة الخراب والسقوط العام لي واللاهث نحو الهاوية.

وبالطبع وصلت سلسلة الفشل الكارثية في الامتحانات إلى ابي، فكاشفني بغضب على استهتاري الغير مبالي، واتخاذي المكان لهواً لا انحو الجدّية فيه. إنّه لم يكد يصدق ما سمعته اذنه عندما بلغته النتائج المُخزية عني، وطرح علامات الاستفهام الكثيرة على هذا التفريط غير المبرر. فأنا بنظره لا أصدقاء سوء لديّ حتى يشغلوني بسفاهتهم، او

صعلوك شوارع مهمل كل شيء، او لدي نقمة على الدراسة منذ الصغر، او مدمن على الألعاب واشياء الشباب اللاهية... وعدّدَ جُملة من الأسباب المانعة التي لا اقترفها. فكل شيء موفّر من جانبه لدعم دراستي، ولا معاناة عندي حتى أثبّط نفسي عن مواصلة الدراسة، ثم قال جملته الذي ارعدتني غضباً خفيا: «ان لم تستحي من نفسك، فاستحي على سُمعة ابوك ومنظره امام الناس» ، ثم ارخى من حدّة كلامه من أن الفرصة مازالت قائمة امامي لتصحيح الوضع، وانّه برهن امام زُملاءه الأستاذة على نجابة عقلي وعُلو اجتهادي واستقامة سيرتي، ووضع من عندّه عذراً وجيهاً أمامهم بانّي لا أحب هذا التخصص الزراعي، وهذا ما دعاني الى الفتور في الدراسة، وانّه وفّق الى ان يغيّرني، وسأعدل عن هذا الكره لها، وأرغم نفسي على بداية جديدة! وكأنّه بهذا يكسب تعاطفهم كي يعطوا درجات نجاح تضخ تعزيز داخل نفسي، ويمنحني انطلاقة مليئة بالجدّ والازدهار. وبكل الأحوال فان التواصي بين الأستاذة برفع درجات ابن فلان وعلان شيء شائع فرضته الوساطة.

عندما كنت أقول ان ابي كان سند لي في الكلية، فذاك محصور في وجوده ووظيفته، ولا اقصد مشاعره الحميمية وحنوه العاصف أتجاهي، أو لإنه بلغ من تفّهم نفسي أنّه يعلم خبيئاتها وسكْناتها، وما يجري فيها من مطبّات ومنعطفات تجعله أكثر مرونة وسِعة في استيعاب تصرفاتي، ذلك لأنّه كغيره من عائلتي لم أستطع اقناعه بما عندي من امراض، مع ان اختصاصه العلمي هو أمراض نبات -التي تسبّبها

الكائنات الدقيقة- ومكافحتها وعلاجها والوقاية منها، فارتقى الى رُتبة البروفيسور في هذا المجال، وعجز ان يفهم ما عندي من امراض البشر، وهي مفارقة حياتية اعجب لها! وشيء آخر زاد من هذا الافتراق الشعوري معه، ومتابعة مُجريات اموري ما ظهر منها وما بطن. فهو قد تزوج مرة ثانية من سكرتيره منذ سنين، فاستحوذت على انتباهه واحتكر وجوده عندها، فلا يكاد يلّم بعائلته الاصيلة إلا لِماماً، ولا أدري لماذا لا يستطيع ان يفْتك عنها ويبرح كيانها؟ فلا هي بالجميلة وإنما امرأة ضخمة الهيكل الجسمي ذات ملامح متصلّبة، دائما ما أراها عدّاءة رياضية او شبيه بنجوم المصارعة الحرّة- ولا يحسب ان ذلك تنمّر ولكن هكذا تشكل قالبها في ذهني- ولا هي كريمة وسمحة الخلق؛ لأنها تصبح ثور هائج لو زارنا ابي، او حتى ان فكّر ان يَبِيت عندنا، اكرر فأقول ليس هذا الكلام من منطلق عدائي شخصي، متفرع من النظرة العامة المتدنية اتجاه الزوجة الثانية التي يعتبروها آية في الخُبث والمَكر، ولكن هو تصوّر قد نسجه وخلقه تصرفاتها الطائشة التي تريد ان تستأثر به بلا إشراكنا إياه، فهي من شيّدت بيئة الكراهية والعداء المتبادل. ولا هي ايضاً ذات نسب عائلي او علمي او مالي او خلقي عريق حتى يغرس نفسه فيها، ولا أبي شخصية جائرة خبيثة مع الناس، لا تهمّها استقصاء العدالة والانصاف في الأمور، حتى يميل اليها كل الميل ويذرُنا كالمُعلّقة. كانوا يصدّروا هذه العلاقة الغريبة على انه الحُب الذي جمعهم سوياً، وعائلتي تراها انه التفات من جانبها على أستاذ جامعيّ مرموق، تتزلف وتتقرب من وجاهته فتشع في ضوءها، ويكون لها مكانة في ظلاله- وخصوصا إنّها امرأة

عانسة اربعينية، وموظّفة مغمورة لم يعبأ بها أحد في شبابها المُدبر- ومستخدمة في ذلك كل أساليب الكيد والاستدراج التي ظفرت به في اخر المطاف. والحق ان ذلك الانجذاب لها مازال لغزاً عصياً للآن بنظرنا، على الرغم من كدر المعيشة معها والخلافات المتفاقمة المتجددة المستعرة بينهما. لا اريد الاستطراد بهذا الموضوع الطويل الشائك، فما يهمني منه ان ابي قد انفصم بشكل واسع في تحري اخبار العائلة والاهتمام بها ومنها أنا. وكذا فأن شخصيته غير مندفعة عاطفياً، فلا يوجد في سجلّاته ذلك الالتئام مع بواطن الاخر، وسبر غورها والانفعال معها علناً. ونتيجة لكل ما سبق لم استغرب ان ينظر لباعثي الخامل اتجاه الدراسة؛ بسطحية.

ندمت على قراري باختيار هذه الكلّية، فما كنت أحسبه خيراً في البداية؛ قد تجلّى بمخالب مخربة ارتدّت الى سالف الوضع النفسي المخيف في بداية الدوام، او كما يقول المثل "جبت عون طلع فرعون". دور الطالب الناجح الملتزم لا أستطيع إجادته، ولا أقدر على دفع هذا اللوم الضاغط من فوقي، والذي رسم لي مسار سيكون لي فيه ألف كبوة جواد. الوسواس القلق يركض بهراوة وضراوة في حلبة دماغي حتى أني رجعت لأخذ أقراص مهدئة سراً. صرت أهوى البُقع المهجورة في الكلية، واجلس فيها الساعات الطوال لوحدي حتى اتجنب لقاء الناس. الشيء المسؤول عن الرفق في هذه الحياة، لماذا لا يستمر في إيداع الملاطفة في ايامي؟ وهو يعلم أني ضعيف يسترقّني بالتعب المُضْني فتيل نواة من قسوة! اريد حرية التسكع والفشل واللامسوؤلية فهذا ما يريحني حاليا، لا

مكان يكون لي فيه الحرية المطلقة سوى القبر حيث ترفع عني اغلال فروضات الناس. أصبحت وعاء متاح لاعتقاد المذاهب الداعية للإباحية وتفويض أمر الفرد إلى نفسه بلا التزامات علوية مجتمعية. سئمت من وضح النهار وكوني مكشوفاً، وابتغي ظلام يبتلعني يكون فيه معاشي كالخفاش. لا أريد أن أكون ابن أستاذ مرموق، وانما ابن عاهرة ينظر الناس لي بالدون والاقصاء، فلا يتوقعوا لي نجاحاً او يتمنّوه لي، فيخلّوا لي طريق الفشل حيث المأوى الذي يليق بنسل البغايا، ويفاصلوني فيكونوا في حلّ من امري لا أقربهم ولا يقربوني. الامتحانات الشهرية انقضت وسقطت فيها اجمعين، باستثناء مادة حقوق الانسان التي لم احتج الى تقليب الأوراق فيها، فهي من نوعية المواد التي يستطيع العقل بقليل من التدبّر ان يؤلف فيها الأجوبة وينجح، دون الحاجة الى مرجع دراسي يكرع منه.

قاربت وشيكاً الامتحانات النصف سنوية التي من المفترض ان تكون البداية الجديدة كما قرّر ابي. حاولت ان افتح المقررات الدراسية التي عندي، فإذا بي ارى كُرّاساتها كأنها موسوعات يقضي العمر ولا ينتهي منها، وأحاول ان احفظ بضع سطور بسيطة، فاراها شاقة كأني ابذل الجهد لحفظ كتاب كامل! الحروف في عناد معي، فمثلما استثقلت على لساني، فأنها الان تسيل مع ذاكرتي سيلان مادة لزجة صمغية! أَظل ساعات في الصفحات الأولى لعل الكلمات تحنّ لحالي وتعبر إلى ذاكرتي فأخفق، وتنتظر بشوق الصفحات التالية أن اخالطها، فيخيب املها في

الوصال النظري معها. أحيانا اضع طرف الورق في فمي وامصه واسرح شارداً لتمضية الوقت، وهذه عادة المص لا انفّك عنها، وحتى طرف ياقة البلوز امسكه بأسناني فتهترئ بمرور الزمن وكأن فأراً قد قرضها! هي لغة جسد أقوم بها عند الشرود او الملل او الشدّ على الاعصاب، فلا يذهبّن الظن الى تفسيرها بحنين لا واعي الى ثدي كان يروي الأمان بي. مع ان الجفوة حاصلة اتجاه الدراسة، وربما ينزاح الوجوم قليلا وأقدر على شيء من التحصيل، لو كان اختصاصي قريب من هوى نفسي كالأدب، ولكن هذه الزراعة فشلت في عقد الوئام معها. وما زاد تقززي أنّه صار كثيراً ما يُطلب مني أن أسقي النباتات في البيت والاهتمام بها، وكأنه شيء واجب القيام به فلا أجدر واتقن مني للنهوض بهذه المهمة بما أني الان نواة مهندس زراعي، والطيور على اشكالها تقع! او يُطلب مني استشارة زراعية كما حدث ان اشتكى لي أحد اقربائي من ذبول اغصان نبات معيّن اشتراه بثمن غال وقال لي: «هل الأفضل تعريضها للشمس أم في ظلّها»؟ فأجبته: «ان هذا النبات توأم الشمس، وقد ذبُل جراء عدم امتصاصه كميات كافية منها» وكانت الإجابة تلفيق من عندي، لأن الناس يتأففون من الفراغ الذي يخلفه كلمة "لا اعلم ولا أدري"، ويرمقون صاحبه بالبلادة، ويميلون الى ايّ جواب وإن كان كذباً! على أي حال أخذ بنصيحتي، وبعد فترة كنت امشي بالشارع، ورأيت هذا النبات فوق حائط البيت قد ازداد انحناءا وتهدلاً ويبُوسة عن ذي قبل، فعجّلت الخطى من امامه حتى لا يراني صاحبها وأقع في الحرج وإثم النصيحة! لذلك كان ربطي بالزراعة وغلغلتي بها عن طريق هذه المظاهر التقريبية منها

تزعجني وتخيفني، وكأنها مستقبلي الموصد الذي لا مناص عنه، ولا مجال لتركها حتى لو ابديت الرغبة في ذلك. امي تأتي لي بالمقويات التقليدية مثل الزبيب وجوز الهند، حتى تنفتح شهية المخ فيصدّ عنها صدوداً، أو تقوم بتشجيعي عن طريق استذكار أيام الدراسة الخوالي الجليلة واستعادة مجدي المتفوق فيها، ولا تعلم أن نفسي في ذلك الوقت قد نسيتها وتبرئت مني، وأنها تُعامل نفساً أخرى لم يولد من رحِمها، هي كانت أُم لإبن قديم متوائم قريب غير مُتدابر معها قد طوي الى لا أدرى أين! كان الحصاد المحفوظ الذي استطعت اجتناءه لم يكن يؤهلني للنجاح وانما يقلل الهوة معه ويقربني من حافته، او باختصار هو رسوب مشرف، كمن يحاول ان يمد يده للثمرة فيلامسها بطرف اصبعه ولا يستطيع قطفها! واعتمدت بشكل أساس على أسئلة السنين السابقة، فقلت ربما التاريخ يعيد نفسه! فلا بد ان هناك أستاذة كسالى او مشغولين لا يجدون الوقت في التنقيب عن أسئلة جديدة تماماً، فيأخذون نتف من أرشيف الأسئلة القديمة مع التطعيم بأسئلة جديدة حتى يغطّوا مسلكهم المتقاعس. في نهاية المطاف استطعت حيازة قسطاً ضئيلاً من المعلومات المرشّح أن تحضر على ورقة الاسئلة أكثر من غيرها، بعد الاستعانة المركزة بالفتى الريف الشاطر، وامضيت الامتحانات كلها، واعلم ان امتحاني الأكبر والاهم الذي ينتظرني، هو كيف سأتعامل مع اللوم العنيف المتأتي من اخفاق رسوبي المنتظر؟ وما قد سيتبعه من تغيير مستقبلي؟

جاء اليوم الموعود عندما كنت متمدد على سريري، وأسمع صوت أبي يسأل بحدّة عني! صفق باب الغرفة ليدخل وعينيه من الغضب تكاد تخرج من محجريْه، على ما يبدوا وصلته الانباء من زملائه عن نتائجي المتدنيّة المنكوسة، وكان شغلي الشاغل طيلة العطلة والذي اقض مضجعي قلقاً هو هذا انتظار اللقاء العاصف، والذي رقيت بمستواه كأنه عقد قمة تاريخية بين بلدين مستعر بينهما العداء! بدأ بما توقعته من ذم وتوبيخ على مستواي وخيبته منه، وانه نادم على إعطائي فرصة جديدة لواحد أرعن لا يُقدّر المنح التي يستقتل عليها غيري من الطلاب، وانّي عار اخوتي الذي لم تعد مني منفعة تُرجى، ومن الأفضل تجريدي من هذا الدلال الذي أحاطه بي، ورميّ الى اعمال الشقاء الشوارعية الوضيعة كعامل بناء حتى اتربّى مجدداً وأقدّر قيمة النعمة... اثناء كلامه كانت هيئتي ترتعد ولم تكن تبدوا للعيان؛ لأني كنت مغطى بملابس الشتاء الثقيلة، وتذكرت فجأة مقطع فيديو لبنت صغيرة لاجئة في الخيام وهي ترتجف امام الكاميرا من البرد اللاذع والثلج النازل عليهم! سابقا عندما كنّا أطفال لو كسرنا شيء في البيت، فإنّا نسارع إلى الاختباء خوفاً من التوبيخ المتوقع من الوالدين، فاشتدت عندي الان غريزة الهروب مائجة بضراوة ولا هيكل طفل عندي لتحقيقها. اللحاف بجانبي ورغبت أن اضعه فوق جسمي حتى استر نفسي، ولا يراني أحد من الواقفين وراءه يرمقوني بوجوه واجمة. شعور مهين أن يجتاحك أحد ولا تملك ما تدافع به عن نفسك، وشعور مُمِضّ أن يكون الحق معك، ولكنه متواري وضعيف ويتخلى عن الخروج لدحض المفتري عليك، وشعور حقير أن تكون

مظلوماً وترى من يظلمك يتهمك بالظلم، وشعور خذلان ان لا تملك شخص يدافع عنك ظالماً او مظلوماً. هذا البيت الاسري الذي من المفترض ان يكون قرباً لقلبك صار غريباً، كأني خادم في دار بعيدة عن وطنه! وأن يكون اماناً ناعماً لنفسك فينقلب جلده إلى وبر قُنفذ مؤلم لك، وان تعيش في بيت وبداخلك شعور المتشرد المتسول في الشارع الذي لا يملك بيتاً، أو تعيش تحت جناح والديْن وفي داخلك شعور اليتيم! وأن ترى أشياء ظاهرة تحسبها حصانة لك من مُوبقات الدهر، وفي داخلك مفازة بلا حد يُسمع منها عواء الذئب المتأهب لافتراسك، وأن تملك عائلة بالاسم ولا تستطيع التعويل عليها بشيء، والايادي التي تذخرها ليوم الشدّة تصبح كأنها هواء عندما تمسكها لغرض الاستنجاد. اشعر أني نُفيت إلى عالم خارج العالم حيث لا أحد. اخفض رأسي واميله إلى الجانب الاخر حيث لا ينظر أحد في عيني اللامعة بالدموع، مع لذة خفيفة اشعر بها احيانا كلما انتقصني أو أوعز لي شخص بعدم جدواي، فيتغلغل حزن انيق وتنحل المناوئة له، ويحل استسلام واسع، وشيء ما بسريرتي يقوم بالتأمين على كلامه، وكأنه يتلهف لمزيد من التغذية على مثل هذا الكلام الجارح والقادح لي، ويؤكد على فكرة غائرة مقنّعة داخلي وهي : أني جسم دخيل يخلّ بتناسق العالم أو شيء لا يقر المنطق وجوده، ولربما ارتياحي إلى موافقة هذه الفكرة؛ لإن فيها إسقاط تحمل ثقل اثبات الذات المُلّح واكوام المسؤولية، او كأن في هذا الكلام تناغم مع الظروف المضادة، فيعزز جبريتها المتحكّمة وأركن الى ارتياح عدم تحمل مشقة مقاومتها وتغييرها.

لا اريد ان أقول انها مازوشية التلذذ بالتعذيب، وانما اشعر انها لذة تنبري مواسية ومتعاطفة مع ذاتي، ومرهم يخفف من وطأة الكلام الجارح بحقها.

دهاني الارتداد إلى نقطة البداية التائهة بعد ان أحرزت تقدم استفاقت معه حياتي قليلاً، وأنّي مازلت على قيد الحركة وإن كانت غير منتجة. فقد كان حالي كالمشلول الذي لو استطاع المشي لخطوات بعد سنوات من الركود تحت الرماد، لحسبه إنجازا عظيماً يعيد الثقة بحياته، أنّ ذاتاً مازالت موجودة تستهلك الاوكسجين وتطرح ثاني أوكسيد الكاربون، ما اعتبره تقدماً بنظري، كان شيئاً عقيماً سخيفاً، وتوقفاً خاسراً في نظر الاخرين. ولو علموا ما بي من اذى عظيم قد استطعت ان اقاومه؛ لهلّلوا لعزيمتي وأكْبروا أمرها، ولكن لم أُقابل سوى باللوم والانتقاد الذي كسّر أرجل تقدّمي البطيء، وقد كانوا يريدون نجاحات الثريا أقرب لي منها!

العطلة التي يتمتع ويستريح إليها الطلاب، استحالت الى ساحة من الغم الدائم وصداع الأفكار المتقاتلة في دماغي، أطلق بداخلي نداءات استغاثة لا على التعيين، لعل هناك من يسمع واعلم ان لا مجيب لي. صحيح ان الرسوب لصالحي، وذريعة انتظرتها حتى أبقى في البيت وانهي مهزلة الكلّية، ولكن كنت اتشوق الى مسوغ مشرّف يعْقله الجميع ويتقبلوه بقبول حسن، فلا يجتث كرامتي أو يبطش بنفسيتي الهشّة، أو ينحو بي نحو مسلك آخر اسوء من الدوام. اشتهي حادثاً غير متوقع يُوقّع على حياتي بالهلاك، وأنهي عمري الذي بدا لي أنّه لا يحبل إلا بما يكون

ضدي. سهر مستمر لا يقاربه النوم إلا يسيرا فان جاءني حلمت بكوابيس، أتذكر منها: أنّي كنت في حالة هروب هلع من شيء، واجري بسرعة فائقة ولهاث انفاس، إلا انه ركض لم يتقدم بي شبر واحد، فأبقى في مكاني وانا أسرع! ومنها: ان أكون في امتحان فأجيب بثقة الناجح على ورقته، فأفاجئ بان الحبر يغيب وكأنّي لم أكتب شيئاً، وكلما شرعت بالكتابة يمحى تلقائيا إلى ان ينتهي الوقت، وتسحب الورقة وهي فارغة وانا مذعور وغاضب! واحاول ان احتج وأقدم برهاني ان لا حيلة لي، وليس بيدي أمر عدم الإجابة، إلا ان الأستاذ بدا مقطّب باستفهام كأنه لا يعي ما أقوله وينصرف، وامسك بصديقي وأحاول شرح الموضوع له، فيظهر لي أن آذانه قد بُترت ويبتسم ببلاهة لي، وأنا أتميز من الغيظ!

الرسالة الحادية عشرة:

سُبّوح قُدوس شهرزاد. من نقاط ضعفي الثقافية هو جعلي برزخاً وحِجراً مَحجوراً أمام دواوين الشعر. امتلك سيولة نقدية لغوية هائلة أحطّت بها من أمهات كُتب الادب العربي والعالمي القديم والمعاصر، ولكن بقيت أمام الشعر خائر العواطف عن منادمته، وأعجمي في استسقاء ابياته. لو أقدمت على فتح كتاباً منه، وامضي في الشطر الأول من بيت قصيدة، يتنكّب عقلي على وجهه لا يستطيع الاخذ بخطام بقية الابيات، ولو تكلّفت للمضي في القصيدة واتمامها عن بكرة ابيها تلاوةً وفهماً، فإن معانيها لا تُحرك ساكناً بُحيرة وجداني. لا أفقه لماذا الاهتمام الجماعيّ بالشعراء ومهرجاناتهم وانصراف الناس إليهم؟ ما الذي جعل سحر الشعر ينفذ إلى جوانحهم وتَبطل تميمته عندي؟ ما الذي جعل نزار القباني -مثلا- تولع به النساء وتتعبّد على آيات شعره؟ لم أخلُ من لمحة سخرية ترسم على شفتيّ، عندما أرى حركات أطراف الشاعر وطبقات صوته المتغيرة وهو يلقي قصائده كأنه مهرج في سيرك! ولربما أُميّ لم يأخذ قسطه من التعليم قادر على تحريك يده طرباً عند سماعه شعراً، ويتفوق على ثقافتي التي لم تصلح قنوات اتصال عاطفتي مع الشعر. معطل رادار التقاط المعاني الجياشة في مروج القصائد.

اقول ان هذا التعفّن العاطفي قبل اعرفكِ، ثم بدأت قناة الإحساس بالحسيس والدبّ على ارض الحياة المائجة بأفانين حالات الفؤاد. اغذّي ما يعتلج بالقلب من غياب أو حنين أو لهفة أو وصال لكِ بالقصائد الدّالة

عليها، والوكها بلساني على مُهل وأمضغها بأذني مراراً وتكراراً. اراكِ ثاوية في بطن كل قصيدة غزلية، وأزفر مع كل تنهيدة تصدح بها، وأدمع مع كل حُزن ينزّ منها. أصفق لفطنة الشاعر الضليع بفهم ما اكنّه لكِ، والتعبير عنه بأعلى بيان دون الاطلاع عليه.

علمت انه لا يمكن دقّ باب الشعر إلا بيد اكتوت بنار العشق حتى يفتح لك أوسع عطاءه، وقادني هذا الفتح المعرفيّ إلى السياحة في مواقع فطاحل الشعراء العرب والسهر على تطوير ملكتي اللغوية- وتعويض النقص العاطفي الحاد فيها، فكأني كنت أعيش في صحراء قاحلة ولا املك وعي مفردات اضدادها من الثلج والصقيع والربيع. قضيت اغلب وقت مطالعتي في اثناء تواجدي معكِ على تقوية مقدرتي في صناعة الغزل والتمكّن منها، ومفاجئتكِ بقطع منها بين الحين والأخر.

مع تعدد علاقاتي قبل التعرف عليكِ، فان تاريخي الغزلي كان شحيحاً لا يحوي آبار يرتشف ويروى من جوفه. المرأة تخرج من عندي وشفاهها تتشقق عطشاً من ظمأ الشوق لكلمات الغرام، وتتضارب حروف الغزل على لساني، وتفقد تركيبها الموضوع لو حاولت تسلق فمي خارجاً، وأصاب ببلاهة متفرجة لو طلب مني لفظ منه، أو أحاول التملص باستخدام كلمات فيها قطرة عاطفة لا تُسمن ولا تغني من جوع. لم يكن ذلك الامتناع لأني نزيه اخلاقياً امنع منعاً بتاتا خداع المرأة، كل ما في الامر انه لا يوجد عندي ايمان ولا أستسيغ قول كلمات شاردة ونازحة مني مثل "عزيزي" او "حبي" او "حياتي" او "روحي"، ولا اعلم كيف

للناس ان يتداولها بسهولة؟، وحتى لو فلتت مني كلمة غزل، فان الطرف الاخر يدرك كذبها بوضوح، وأنها خالية من الحمولة العاطفية، وبفضلكِ استعادت هذه الكلمات ألقها وقولها بانسيابية مريحة لا أجد تعْتعة من قولها على مسامعكِ.

****

في خضم هذا الفحم الحالك، المسترقّ تحت أسره والضائع في دهاليزه، وعند يوم الجمعة انتهيت من الاستمناء، الذي كان يوفر لي فاصل اعلاني يعطّل او يماطل معْمعْة التفكير، ويسافر بي الى اللذة الخالصة والراحة الوقتية. استرسلت على السرير مسترخياً في حال مطبق من الاكتئاب. فسمعت المآذن تجهر بتلاوة القرآن تمهيداً لخطبة الجمعة وصلاتها. وقدح الحاح في الخاطرة ان اتلو ما تيسّر من القران، وطفقت اليه مسرعاً، ولمسته مع ادراكي باني مدنّس بالجنابة، وانه لا يجوز ان يمسّه إلا المطهّرون، ولكن كنت تحت قهر القراءة الآنية الفورية بلا تأجيل، أو تحضير مسبق من الاستحمام والوضوء والملبس الطيّب الزكيّ، فتحت لا على التعيين لأقرا من سورة الرعد، وأنا بالعادة لا أقرب كتاب الله إلا بالشهر مرّة او مرّتين، وقرأت وتركيز يُسبغ على محياي غير مسبوق، وبتأتأة لا تحسن من إتقان التجويد شيئا. وفجأة فُتح من السماء كوّة أطل منها شيء مجهول الكُنْه لم أعهده، قد ألقي في روْعي واستقر في قلبي، واهتزت له الروح واختلجت بانفعال شديد، ثم فاض على جوارحي. صدري انشرح كأنما توسّع ليضم رحابة الكون، اطرافي

بالبداية ارتجفت لا من خوف ناشئ، وانما من جلالة هذا الشيء المُهيب المتجلّي، والذي أخذ نفسي أخذاً، وطوّعها له من غير سوق ارادتي. صدري يشهق بلذة بكاء عارمة من فرط النشوة الملقاة عليه، لم يكن بكاء من جنس "دموع الفرح"، وإنّما له طعم غريب كأنّه صُنع خصيصاً ليخرج فقط ويرافق هذا الزفاف العُلوي الهابط في عقر قلبي. تفتق حجاب القلب وانفرج منه الربّ بسبحات نوره القدسية، وكلّي امامه في خشوع صامت هادئ يكللني، وعَنَى وجهيَ للحيّ القيوم. تنتصب روحي في تماسك وتراص راكع أمام تجلّيه الذي استغرقني بجماله وجلاله. مسّ سماوي عريق ومجيد تلبس بي على حين غرّة، فإذا السكون يغشاني وكأن كل شيء قد كفّ عن الاحتراب والتصارع، وتداخلوا في تصافح وعناق أبدي. لا اسمع إلا أناشيد السلام تهتف من جميع الموجودات كأنها محشورة على صعيد واحد تسبح معبودها. طمأنينة لا يشبعها شيء مما هو معروف من مصادرها الارضية من أمّ او دفء زوجة او حضن بيت...، حفيف السكينة يدور ويرفرف حولي بعد سنة او أكثر من جوع الأمان المتعطش له، ولحن السلام يصدح بقوة وتتجاوب معه نفسي بابتهاج. آمنيّ الربُ في حضرته الخالية من الكدورات المنغصة، كأنّي موسى-ع- خلعتُ نَعليّ ونبذت الخلق من ورائي طراً، ودخلت في الوادِ المقدس طوى أواجه صاغراً الربّ مباشرة وقد خُلّيت بيني وبينه. قرع قلبي حبّ جهوري هائم، وأنس رقيق شفاف، وعنيف مندفع نحو الله تعالى. عشق إلهي له طابعه وهيئته الخاصة المباينة لغرام البشر فيما بينهم. ذهول تكرّس وطغى فلا أعي إلا الله يظهر لي في مركزية جبروتية

تستولي على شهودي، كأن لا شيء في الوجود إلا هو. فأينما أُولّي مكاناً تحط عليه عيني فثمّ وجهه! اخاطبه مكررا شهادة الوحدانية بـ "لا إله الا انت"، فـ "أنت" تناسب مقام حضوره المهمين عليّ وكأني امامه وهو تعالى مقدّس أن يحويه مكان. وكلما ارجع أقرأ آية قرآنية، فان السَكْرة تتوهج وتجوب في كل بقعة بي، كانما ألقيت حطباً على النار لتزداد لهيباً. أرى الآيات عرائس نضرة قد اختفى عن ناظري حروفها البشرية، وينطمس -في ضوء هذا الشعاع النوراني- في ذهني صوت حبالي الصوتية وهو يتلوها، وفي أدراكي ان الله يخاطبني بعظمته واسمعه يتكلم مباشرة، فأذوب خشوعاً يتلاشى معه كياني! ينتابني الان الاحترام الجليل التام للشريعة، فاذهب للاستحمام وأكمل منه، وداخلي يطالبني بالمزيد من ذكره تعالى، فاهرع لصلاة الظهر وكأني أصلي لأول مرة بحياتي ولم تعتدْ نفسي وزناً للصلوات السابقة. افتتح بالتكبير فأتذوق معناها ينهل بي، فبعد ان كان الربّ- تقدّس وعلا شأنه- هامشيا لا يأتي لي ذكره إلا قليلاً، أصبحت أرى وجوده عالياً، ويستوي على كل شيء لا يعلو عليه أحد، مهما ادّعى مخلوق انّه الرب الأعلى. أُتمْتم بالسور على مُهل وامضغها ببطيء حتى استمتع بحلاوتها أو قد أعيدها إذ بعض الآيات لها تأثير أكثر من غيرها. اركع له تعالى واسجد، فأجد في عبوديته لذة خالصة تختفي معها أنيّتي ولا يبقى مني شيء أمامه. اشعر بالصلاة في معراج روحي اناجيه بطلاوة بالغة، ويذلّ الشيطان وتخنس وسواسه المشوشة، وتحجب الدنيا عن سفورها في خاطري فلا يبقى إلا الاستغراق معه. انتهي من التسليم وبي حسرة لانقضائها وبي شوق لأمدها أكثر، وتمنيت لو أني

احفظ طوال السور فأطيلها، واستمتع بأزيز في صدري كأزيز المرجل من البكاء المُثمل. اتقاد هائم يقول هل من مزيد، فلا أملك إلا أن أقوم بتغذيته بعدّة تسابيح كأنما طعامه الوحيد هو ذكره تعالى، فاستغرق في اصقاع ملكوت هذا العالم الممتد حبله من عالم النور الإلهي ويخامره صفاء ملائكيّ، وروحي كأنّه انقضى وطرها من عالم البشر ونسيته وما عادت تفقهه، وتلاشت معالمه واضمحلّت ونسيت سجنها الجسدي وساحت في آفاق لا يدريها أكثر الناس. لم اعد اشعر بذاتي واستقلالها، فقد انصهرت في النور الأعظم، لا مكان ولا زمان يضمها أو حدود مقيّدة بها، انْدَرست رغباتها كأنها خُلقت بلا طلبات او شهوات، فليس لها من إرادة اتجاه شيء إلا الفناء في محبوبها والطواف في فُلكه. تطهرت من أثر الدنيا، ووصلت الى معادلة من الحياد التي لا تميل الى شيء منها، ولو كان كنت املك حقيبة تحوي الملايين من الدولارات، وجاء لص ليسرقها امام عيني فلن يثير قطرة اهتمام في إيقافه! وتساقط مني نظر الناس، فلو كنت امشي على الماء أمامهم واندهشوا واجلّوا امري، فما خلق فيّ ذلك ذرة عُلو وإعجاب داخل نفسي! وصلت الى ذروة السكون، فلو حدث ورجُّت الأرض رجّا، ما عدلت عن شيء من سكوني. استواء عجيب اتجاه الأشياء تمنيت معه ان اموت- وانا الذي كنت أخشى بعبعه المروع- فلا أجد ختام أحلى من هذه اللحظات الخمرية. وجد شرس استولى على قلبي وحرضني على إمالة جسدي في رقص دوراني. استشعر خفّة كأنما كنت طائر مربوط بحبل إلى صخرة كبيرة وقد قطع. صببت في قطعة شفافة وكُلّ واحد، لا يحوي ثنائية الظاهر المتباينة عن

الباطن! انظر الى جسدي من عِل وهو جاثم في عالمه الدنيوي وأنا منفصل عنه، وروحي صارت هي ما تمثّلني وهويتي، وكأنما تعريفي "كائن روحاني"، لو رآني الرائي لزعم أنّي معهم وانّي بشريّ، ولكن شعوري أني أُحلت الى مخلوق آخر، ولربما المادة الخام التي صنعت منها الملائكة هو ما ابدعني بهذا التركيب! هي لحظة طمس فيها الحدود بيني وبين الذات العلّية فاشعر أنّي بضعة منه! وهو سبحانه مفارق لمخلوقاته، ولكن العقل طاش من فرط الوجْد ونسي.

في ذلك اليوم دخلت في غيبة او غيبوبة عن دنياي لا أدرى كم مقدارها. تجولت في البيت وتذكرت أني لم آكل شيئا حتى الان. كان عندي شيء من الجوع، إلا ان بداخلي انكماش عن الطعام والاقتراب منها، فأجبرت نفسي وأكلت لقيمات فتشوش قليلاً رواق صفائي، ورأيت أن ما يدخل في الجوف يزاحم توهج روحي ويقضم من مساحته. قعدت في الصالة وكان يتحدث أفراد من عائلتي والتلفاز مفتوح فانقبض سماعي من الأصوات البشرية، وقاموا بإشراكي معهم في الحديث فلا يسلك معي استئناس وطِيب سماع، وأنهم كتناول الغذاء يفتّتوا سريان حلاوة الايمان في اوصالي، فأقوم من عندهم إلى خلوة غرفتي. عندما جاء النعاس لديّ ازاحه شوق ولهفة إلى مناجاة الربّ، فقضيت الليل حتى الفجر صاحيا، فكان سكون الليل واضجاع البشر في مخادعهم، وانفرادك بمحبوبك متعة للروح لا يعلو فوقها شيء من ملذات الحياة، حتى شهوة الاستواء على السلطة وملك رقاب الناس أو وصل غانية حسناء، ولربما لو علم الملوك

ما هذه اللذة وخالطتها قلوبهم لزهدوا في كراسيّهم! عندما نِمتُ بعدها وصحوت رأيت هناك تآكل من بريق روحي. اكتشف ان هناك نوعاً من التضاد بين عالميّ المادة والروح؛ إن ارضيتَ احداهما اسخطت الأخرى. لم يكن للروح فيما مضى أهمية كبيرة، وانتباه آخذه بنظر الاعتبار سوى انها شيء تجعلنا ننبض بالحياة، وعذاب اليم عندما تنزع بالموت! اما الان صعد نجمها بعد ضمور، وصارت على مسافة مسطرة واحدة مع الجسد وتوازيه جسامة وخطورة، وإذا كان الجسد قد توارت كثير من ملذاته بفعل المرض، فقد قابله طلوع وارتفاع لذة الروح.

في بحبوحة الروح شعرت بحرية كبيرة وقوة هائلة، لا يستطيع فيها ان يستعبدني شيء من أمور الدنيا مهما بلغ من الحُسن والكمال. سُمو يعبر بالأشياء فلا يعلق بها ويتشبث، فيأخذ منها الكفاف الضروري فقط. هذا التعلّق الجديد بالربّ أعتقني مما سواه، تلك الحرية النادرة والسامية فوق كل شيء، لا يستطيع أن يوفرها لك فرد أو جماعة أو حكومة أو دستور او قانون أو مواثيق أو..... أيّ شيء آخر، هي حرية داخلية فيْضها الوحيد هو الله تعالى، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والذين اقتصروا في حريتهم على تفكيك قيود الخارج وظنوا ان ذلك مبلغ منتهاها. لذة عظيمة أن تتحرر من الأشياء، فلا يستعبدك الهوى في تشعباته التي لا تنتهي، فتظل في دوامة شقاء الحصول على شيء وقلق الحفاظ عليه من الزوال. حتى لو كانت الاصفاد بين يديك، أو كنت في سجن أو قعر جُبّ، فهناك بستان الروح ترْتَع في رِياضه، وتنطلق في فسيحه اللامحدود، فلا

تستطيع يد أن تسلبه منك مهما تطاولت في بنيان القوة. أحسست بالسيادة على نفسي بعد ان كانت كلأ مباح لأشياء شتى تأخذ بخطامها، وقوة في ترويض نزعاتها والتحكم في مسارها وفق إرادة الربّ. صراعات نفسية قد كفّت وأرجعت السيوف في غِمادها، فحدث تصالح شامل مع الذات من بعد كُره جعلني اتبرء منها، وابتغي الانشقاق عنها إلى غيرها. عندما تنصهر في الواحد الأحد، ينتقل إليك قبساً من أحديته، فتكون واحداً في الاكتفاء، لا تحتاج الى هُراء إثبات الذات الذي يظهر نتيجة المقارنة بالآخرين وحب التفوق عليهم، ولا تحتاج الى حبّ الظهور عن طريق لفت جذب غيرك، فهناك امتلاء روحي يأخذ بمجامع قلبك يُسقط اعتبار القيمة ورضعها من البشر. فوجهتي بعد ان كانت افقية تخترق خط الناس، أصبحت عمودية نحو السماء. وهل يحتاج السائح في المطلق اللامتناهي ان يغترف من الناقص المحدود ليستحصل رضا النفس التام؟ كانت ولادة روحية ورحمة الهية لطفت بي، وجذبتني من ضيق الدنيا وقعرها المحطم وخذلان أهلها، وأعطت لي رحابة وزخماً ودفقاً أعادوا لي التوازن، ونفساً استنشق خلاله عبق الحياة. فتح رباني انبثق منه مدد الملائكة المؤازرة لعزيمتي وتسديد خطواتي. تَرجّل المقت من صهوة جواد الحياة وطوّقها الاقبال اليها، وخصيت الرغبة نحو العدم. ولا اقصد هنا عودة حُب الدنيا ولكن حب الحياة في ظِلال خالقها وإن كُنت في برزخ القبر. والموات الكريه صار عندي هو خلو القلب من نفحات الرحمن، وإن توسّد سُدة نعيم الدنيا. هناك معية إلهية تبسط حناناً من لدنها، فتبدد مخاوفي وتمنحني الثبات.

لذلك عندما جاء الفصل الدراسي الثاني، وبدأ الدوام بعد أيام من الحال الروحاني لم اتأفف واستفتح مجيئه بكثير من الضيق، ومع أنّه لم يقدر على استئصال غدّة المرض النفسي وتجفيف منابعه وإحياء اطلال الحياة القديمة، ولكن كان سكّين يقطع كثيرا من احراش القلق الخبيث، عن طريق ما يهبه من سكينة التي كانت كمين تقطع أشلاء كثير مما اخشاه، وكثير من الأفكار المرضية واللامنطقية التي تنفخ نفسها وتتغطرس من كثرة مداولتها في دماغي، قد توقف محرك دورانها ورقدت، فذهب بذلك تأثيرها السلبي وفسحت تهوية مريحة. وحتى عمود شخصيتي استغلظ واستوى على سوقه، بعد ان تداعى من قرض أُرْضة الاضطرابات النفسية والجسمية. والخجل لديّ قد تقلّم منه آفات ذاك النقص المرضي الذي يضطلع بمهمة تدمير ذاتي، فالثقة بالنفس أعيد نصابها واستقامت إلى طريقتها الصحية التي لا تأبه براي الاخرين كثيراً. هناك أثر الرضا الذاتي الذي اتسع صدر الصبر معه، فصار يحتمل كثيرا ما كان سابقا يشتط نفورا وضيقاً منه، واشتدّت جلادة الغلاف الجوي المحيطة بكوكب نفسي والحامية له من نيازك المصائب المستهدفة لعماره ورواءه.

ما جرى لي انقلاب شامل خضّ معتقداتي وسلوكي، وأجرى عليها تعديلات جذرية تشابه تأثير نكبة تلك الليلة، ووجدتُ أثره عندما بدأت بالاحتكاك الفعلي في مجتمع الكلّية. فذاك الشعاع بين جوانحي أخضع الجوارح والحواس وأخرجها من كل خلق دنّي وحلّاها بكل خلق سنيّ. فمرّة جالست زميل ومضغ لسانه غيبة لشخص، فمجّ سماعي ذلك

وكأنه كان يريد ان يتقيأ ذبذبات الصوت الحاملة لتلك الغيبة من الاذن! وسابقاً كان تمر الغيبة فلا يحدث كُره أخلاقي لها. أقول هذا فقط سماع غيبة من أحدهم، فكيف لو أتاها لساني؟ ومرّة كنت جالسا على مقعد لوحدي في بقعة مهجورة غير نظيفة، فنبشت -بعفوية ودون وعي- في أنفي، فلمّا استخرجت فتات نفاياتها المستقذرة، وأردت رميها على الأرض حيث الاتربة والاوساخ الكثيرة؛ استعففت عن هذا، ورأيته تصرف أخلاقي قبيح، فتركت مكاني وقطعت مسافة إلى أن ألقيته في مكانه المخصص في سلة المهملات! فأنظر وقتها كيف ان شيئا تافهاً صغيراً درناً إذا رميته في مكان عُرضة لنفايات الجو الخارجي لن يشكل اذى نظري لصغره الذي لا يرى بالعين المجردة، فاستعجب ما أحدثه هذا الأثر النوراني من ثورة أخلاقية بي، حيث إنّها لم تستحقر الموقف وراعت ادق الأشياء ولا ترضى إلا بوضعها حيث ينبغي لها أن توجد.

شعرت بنوع من الغُربة الجديدة، فكان هناك مفاصلة شعورية بين المنهج الذي يريده قنديليّ الروحي، وتصرفات كثير من الناس في مجتمع الكلية، فلذلك لم أعد أخشى الناس بذاتهم، أو تحولت الخشية إلى بُعد آخر وهو ان يكدّروا سلسبيل روحي، فمخالطتهم المكثفة والانجرار معهم تُحْدث ندبات سوداء متتالية في الروح، ورياح عاصفة تستميت في اطفاء شعلة وهجها. فمثلاً لغو الكلام الذي لا يُعتدّ به والذي يشيع بين أحاديث الشباب، كان سماعه او نسج لساني على منواله والاكثار منه، يساهم بخسف شمس نوري، فكنت اجاهد في منعه وابعد ما استطعت

عنهم، او تبرّج النساء الزاخر من حولي، كانت رؤيته تتحالف مع النفس الامارة بالسوء لطمس بهاء روحي. كنت امشي بين ظلام الناس وانفرد بذلك الكوكب الدري اللامع بين أضلعي، ومخالبهم مشرعة لاختطافي من أفق الروح والعودة إلى محجّة طريقهم، فاشعر باني أعيش وسط جاهلية تستنكف نفسي الانغماس بها مجدداً. ولم أكن لادرك هذه الجاهلية العائمة في الضلالة إلا بواسطة التنوير الماثل في صدري، والاشياء تعرف بأضدادها. لم يكن هذا من عجب النفس واستعلاءها، وعصبية اقصائية لا تقبل التنوّع، وإنما عانقت شجرة الحقيقة المطلقة التي تتدلى منها افانين حقائق الوجود، وانكشفت لي عَياناً لا يخامره ريب، ولا يستطيع دحضها في داخلي أنبغ الادمغة. كُفيتُ أزمات العقل في استخلاص الحقيقة من بحر الأفكار المتلاطم، وتجلّت مباشرة بلا واسطة نُظم دليل عقلي، أو بحث عميق وعر في دروب المناهج والأيديولوجيات الفكرية التي سطّرها الكبار من منظّري الفلسفة والأديان أو حتى تجارب العلم لمعطيات الحس. فمن مشكاة الربّ يهطل سقاء المعرفة وينهي تشقق شفاه العطش للحقيقة، وما تدسّه في النفس من اضطراب، فليس وراء نور الرب نور يستضاء به، وينزع عن النفس شوقها وقلقها إلى معرفة يقينية عن الغاز أصلها وغايتها ومآلها وكشف اللثام عن منهجها في الحياة. صار هذا الذوق المعرفي عندي فرقان بين الصواب والخطأ، والحسن والقبيح، ومعياري المطلق في توجيه بوصلة افكاري وسلوكي ولا ابتغي عنه سبيلاً.

هذا الهناء الروحي النفيس الذي اغتبطت به، ولّد بداخلي شوق لتصديره في محيطي وإفاضته على العالمين جميعاً. لم أرد احتكار هذا الشيء لنفسي، وهناك عرامة سخاء تُريد ان يمتلك الناس مثل ما عندي من هذه السعادة -مثلما تأسر شخص اغنية ترفع اهازيج الطرب في نفسه، فيدعوا الآخرين إلى سماعها حتى ينالوا نصيبهم من تأثيرها الجذل-، ان يناوشه المُلحد فيرى ربه بعين قلبه، بعد ان كان يطلب رؤيته بعيني رأسه، واللا أدريّ فيستهدي جادّة الانشراح، من بعد شك يجعل صدره حرجا كأنّما يصعّد في السماء، والمسيحي فيرى كمال الربّ كما لم يعهده من قبل، فيدرك استحالة ان يساكن بشري ويحلّ فيه، والفقير فيلقى العزاء والرضى من بعد الشكوى والسخط... واصناف أخرى كثيرة، وجدت ان الخيط الذي ينضّدها في اتساق، ويجعلها تحْيا حياة طيّبة، هو ربها إذا ما أحسنت الاتصال به، وأَوْرَدُوا أنفسهم نبع نوره. طاشت عندي هذه التنوعات التي انشأها البشر من قومية أو عرق أو قبيلة أو وطن او عشيرة، ووجدت وراء هذه الكثرة المائجة المتناحرة أصلاً واحداً، لا بد أن تؤوب إليه وهو الذي خلقهم اول مرّة. نزعة تبشيرية تفاؤلية زاوجت حالي لينتقل هذا الانقلاب الفردي ويُصبح كونياً، وكأني نبيّ قد تلقى الالواح من السماء وعليه مباشرة دعوته! وبدأت محاولاتي تلك مع فتى الريف، ولساني يجد صعوبة في شرح ما أُشربه قلبي من معين الحقّ جلّ وعلا، فوجدت الحيرة على محياه الدالة على هضم كلامي، وقال: «كلامك اشبه بطلاسم الشعوذة»، وضحك خفيفاً: «لربما شغلتك الاجازة في متابعة اخبار السحرة والجن وتعاليمهم، وطبقت شيئاً منها فتوهمت

مثل هذا التأثير، فانا اعرف شغفك المعرفي وانسياقك خلف كل شاردة وواردة فيها، حتى ليجعلك تأتي بأفكار غريبة»، فرددت عليه بقوة: «انه ليس شيء انبجس من قوة مجهولة، او من ممارسات السحرة، او انتهاج طقوس الديانات والفلسفات الشرقية القديمة، من تعذيب النفس وحجز الرغبات عنها، والتأمل المستغرق الطويل والانقطاع عن الدنيا، وغيرها من إجراءات التحرر الروحي للوصول الى النيرفانا وهي قمة الصفاء من منظورهم، أو القيام بمجموعة أشياء لغرض تحرير ما يسمّى بزعمهم طاقات الشاكرا والخلاص من الحالة السلبية للروح. اشراقي الباطني لا يمت إلى هذه المعتقدات بصلّة، وإذا حدث ان تشابهت كسوة الالفاظ الدالة عليها، حتى ليُظن انها من أساس واحد، فإن المعاني على الحقيقة تختلف اختلافاً جذرياً يجعل لكل منها طريقها وأثرها المغاير. يا عزيزي، انها شرارة اندلع جذرها من القرآن حصرا الذي هو كلام الله القديم». لم اوفق إلى إفهامه وبدا مستنكرا، وكأن القران برأيه لا يمكن ان يعطي هذه الأشياء وبريء منها. أحبطت من موقفه المضاد وقارنت ذلك بمرضي النفسي، وكيف ان إقناع الآخرين بما يعْتمل بالنفس من أشياء نادرة غير مُشاعة، يعتبر ضرباً من العبث ومسلك من الصعب إنجازه، ويبقى في نطاق التجربة الفردية التي لا يمكن سنّها كفهم عام تتداوله العقول بلا تعقيد، وكما قيل: ما لا يدرك بالذوق لا يعظم اليه الشوق.

لم يكن ليبقى الامر بهذه المثالية المستمرة، فما استجد على أمري هو بدأ تناقص النور وتلاشيه رويداً. غادر فترة الضحى الساطعة وانحدر

الى الشفق الخافت حتى غاب وانطفأ وانسحبت معه كثير من تأثيراته الجاذبة، ولكن بقيت منها أخرى حَسنة راسخة لم تتحلل. تساقط الإحباط وتمدد في ربوع نفسي، وكنت أحسب ان اريج الجنّة سيبقى يبخ على روحي ولا ينقطع مدده، وأنّ هذه أُعطية ربانية لن يكون لها حظ الاختفاء، وأنّها جُند من السماء تضخ بي القوة على منافحة هذه الحياة بعد اخفاق أدوات الأرض في دعمي. كان يصيبها ضعف ولكن يأتي وقود قراءة القرآن والصلوات الخمس وشيء من نوافلها ليعيد ألقها، فما هو إن إلا أن يبرق ويستوثق مجدداً، حتى يرتد إلى ضعف اقوى من سابقه، وبالنهاية بطلت قدرة العبادات في تقييد هذا الحال الشريف، فانفلت من عقاله لا أستطيع تعقب أثره. حاولت بعثها بالاستزادة من العبادات، ففشلت في احيائها وإعادة تشغيل فتيل ذاك المصباح، فلم أكن اجني إلا لمحات سكينة تصلني بخيط رفيع بالربّ لا ترتقي إلى الهرم المتوج بشمس البصيرة. بزغ نوع جديد ومتقد من الشوق داعب قلبي، وألهبه ذكرى الحنين الى الوصال والأنس بالله تعالى. فراغات افتقاد موجعة في روحي تتربص ان يُسترجع ذاك المزاج الكافوري المنعش لها، وكذا افتقاد الحاجة إلى اثارها الضخمة التي أنبتت الزهور في حياتي من تحت اكوام الخراب. تمنيت ان املك قريحة شعرية متمكّنة ابثّ بها شكوى الفراق. هل كان هذا حلماً وانجلى وتقمص خداعاً هيئة الحقيقة بي؟ أو رشفة نفحة مِمّا يَجود بها القدر مرة واحدة لقلائل من الناس ولا تُكرر بعدها؟ أو ربما منحة الهية كان وظيفتها فقط ان تبقى لفترة وجيزة، تجدد فيها دفق اندفاعي بالحياة وتجتّث السواد المتكاثف المترنح في ثناياه، وإسعاف طارئ لتقوية نفسي

كي تستمر تُبلي بلاءاً حسناً معي إلى أجلٌ غير مسمى؟ أو عملية تذكير بوجود الربّ والتوكل عليه إذا ما سلبت البلايا مني يد الحيلة، فالوذ الى من بيده مقاليد الأمور فلا أشعر بوحدتي؟ أو هو قبس جاء ليُذكرني بنعيم الجنة، وألا أنغلق حسرات وألماً على محدودية الدنيا وفوات نصيبي منها؟ أو ربما استمرار هذا الحال هو خاص بالأنبياء وليس لنا من نصيبها إلا قطرات شحيحة؟ ... اجتر سلسلة من أفكار تعليلية لهذا الحال ولا أنتهي إلى سبب مقنع. وظل يدور في ذهني سؤال واحد: هو كيف استردها إلى حاضنة روحي واستديمها في قفص لا تنفرج عني؟ وتبنّى عقلي غائية جديدة لحياتي اكرس لها كل جهدي، وهو العيش مَجذوباً في نور الربّ، واستجلاب الواردات الربانية وسياحة روحي فيها، وكل الامانيّ الأخرى انحاشت ودفنت في التراب، وحتى طموحي الأكبر لاسترداد العافية صار فرعياً ومسخراً لأجل هذا المعنى والهدف الجديد.

مضت أسابيع من الدوام، وخرجت نتائجي مبشّرة بنجاح خجول يُداني حافة الرسوب. ولم أكن اشك ان أبي ومعه رهط الأستاذة قد أخذتهم الرأفة بي، وعلقوني في استمارة الناجين من الرسوب، وخصوصا ان منطق الكورس الدراسي الاول من السنة الأولى لا يأخذ مجرى جدياً في التعليم ويكتفي منه بمنمنمات بسيطة، مرحلة إحماء خفيفة لا يكلّفُ فيها الطلاب بضغوطات دراسية رهيبة، او حزم يلتزم معهم بحسابات دقيقة بالملّي والمسطرة. نوع من العرف يكون التعامل معهم بالفضل أكثر من العدل. لذا كان يحصل فيه تساهل في تصحيح أوراق الامتحانات، وتقدم

مساعدة كبيرة للكسالى من الطلاب، ودفعهم إلى الحد الأدنى للنجاح، وإعطاءهم فرصة واعدة لإعادة النظر بوضعهم الدراسي، فكان يعتبر السقوط الدراسي نادر جدا، ويطال بالأخص الذي تغيّبوا ولم يحضروا نهائيا الموسم الأول من الدراسة، وتجد فيه درجات أكثرية الطلاب متفوقة بشكل غير طبيعي عن بقية المراحل الدراسية اللاحقة. ولكن ذلك لم يمنع نفر من الطلبة من التخافت بينهم، وغمزي بإيحاءات تتهمني بشكل كوميدي، بأنه لولا توصيات أبي من وراء كواليس المسرح، لكانت درجاتي تفترش حبر الخط الأحمر!، وبالطبع لم أُخرج المحامي الذي بداخلي، ليفنّد هذه التُهم التي كانت في معظمها صحيحة، فكان سكوتي إقرار صامت بصحة ادعاءهم. أثر التوازن الذي خلّفه الاشراق الروحي، قد دعم تهديم المنحى المتقاعس عن الدراسة فعادت تتكوثر حول رغبتي، حتى اقطع الالسنة الناقدة من أهلي، أو الساخرة والمثيرة للشبهات حولي من زملائي أو لسان الضمير الناهر لهذا الالتواء غير النزيه في النجاح. وبقيت رغبتي الكبرى في استبطان ضرع المدد الإلهي واحتساء كأسه المقدس، فخصّصت في إيام عطلتي الاسبوعية ساعات طويلة لبحث استجلاء هذا الحال والنظر في العلم المهتم به، فتبيّن ان التصوف هو المسلك الذي انضوى فيه الجانب الروحاني في الإسلام، فأقْبلتُ بنهم أتعرف على نشأته وتاريخه وتطوره ومصطلحاته ورجالاته ومقامته واحواله. وظهر لي أن ما ألمّ بي هو حال كشفي وموهبة ربانية بلا اكتساب من يد العبد، وانه يشرق فجأة ويقذف بقوة في القلب، ثم يسير بعدها إلى الضمور، فهو حال، ومن المحال بقاء الحالّ، وعودته مرهونة

بمقدار ما تأتيه من سلسلة اعمال القلوب والجوارح التعبّدية مع الرب، فيجازيه بهذه الأحوال السنيّة كعلامة القبول والرضا والمحبة منه، وتحفيزاً كي يستمر ويرتقي في السُلوك حتى يأتيه الموت، لذلك كان من التعاريف الجامعة للتصوف هو: جاهد تُشاهد. نظرت في امري فوجدت ضآلة ما أقوم به من اعمال تقرّب وانغماس في علائق الدنيا، فلا يمكن والحال هذه ان يُمرر باستمرار شعاع النور. وفهمت مغزى القصص الدينية للعبّاد والزهاد والنسّاك كيف انهم كانوا يفرّون الى الصحاري والبراري والكهوف وابنية الخراب غير المسكونة بالبشر، كي تبقى انارة ارواحهم خافقة لا يعكرها أحد، وانقطاعهم إلى الصيام حتى يحفظوا حالهم السماويّ من نزعات رغبات أبدانهم، وقيامهم الليل حتى يأمّنوا شريان يغذي قلوبهم، فعلمت الجواب عن سؤالي لماذا انقطع عندي؟ كنت ناشئ في بداية الطريق لا أملك تمكّن وقدم راسخة كالأولياء الصالحين. أصابني احباط كبير، لمّا علمت ان الثبات عليه يتطلب مجاهدة عظيمة في تصفية النفوس من رذائلها وتحليتها بصالح العمل، فلا تستطيع امكانياتي الحالية ان تستحكم فيه، لذلك يُسمّى افراد هذا الطريق الذين ظفروا به باسم "الخواص" في مقابل "العامة"؛ لأن قلّة استطاعت غرز اوتادهم فيه، والعروج فيه مقام مِنْ بعد مقام بلا كلل او ملل، وبقي اغلب الخلق في غفلة أو جهل عنه، لا حظ لهم من الايمان سوى رسومه الظاهرة والوقوف عند حدوده، فيموتوا ولم تشرق شمس الحقيقة في فؤادهم. وحتى أنّي اكتشفت -بعد سنين- ان الامر يشمل قطاعات واسعة من الائمة والشيوخ الذين يدنْدنوا ببلاغة عن رقائق الدين الروحانية، وقلوبهم أمية لم

تفْقها ذوقياً وتستنير معانيها عليهم. والادهى والامر ان هذا العلم النفيس -أيّ التصوف- قد استفحلت فيه البدع واختلط فيه الغث والسمين بشكل لا يصدق، وكثر أدعياءه المنتحلين، واختزل الى شعائر طقوسية ومراسيم فلكورية سخيفة، حتى غابت حقائقه النورانية وصار الناس ينظر إليه بعين التشكيك او السخرية. أقول: أن الحال الروحي الذي أتاني كان من غير الطريق المعتادة الرسمية، والذي يأتي بسلوك الطريقة النظامية الذي يرتقي في دُرجات السلالم خطوة تَليها آخرى، وإنما من وجهة نادرة، فقد يخصّ الربّ بعض عباده بشيء من هذه الواردات، لينتشلهم من الظُلمات ويسلكهم سبيل اصفياءه، ويستقيموا إليه من بعد غفلة وضياع. وأنا فجأة وجدت نفسي اقفز بسرعة البرق من عتمة الغافلين العصاة إلى معايشة أحوال الصدّيقين الابرار، ثم عُدت أدراجي إلى البداية التي يختطها المُريدين! عشقت هذا الامر كما لم اعشق أي شيء آخر في حياتي، فلم أرى لها قِيام إلا به، ولا أستسيغ تقبّل منهاج اقتفي أثره إن كان خالياً منه، وإذا كان حياتي مُعمّرة بالإنجازات التي تزدحم الِفجاج لنيلها والتتويج بها، فأنّي أراها حسرة وندم ان لم يكن قلبي ممسوس بشواهد الربّ الودود، وحتى ما كنت أرغبه من حياة العافية، فلو عادت فاني أراها مرض انْ لم اخالط ضياء الحق. صُرت مأخوذاً مجنوناً امقت كل اقتراحات الاماني التي تزيّن لي ما سواه. انظر إلى ملاهي الناس وهم يتعشقون أشياء ويتشبثون بأذيالها، ونسوا ربّهم الذي كان ولم يكن معه شيء. فما لم يكن سابقا وكان في حكم العدم، صار مهوى افئدة الناس! وما كان متفرداً وأزلياً وسرمدياً ومنه انبثق كل شيء، أصبح معدوما او هامشيا في قلوبهم

ولا يذكرونه إلا استحياء! كانت هذه الفكرة تثير عندي تقزز وجوديّ وتُذكي الغيرة لو رأيت في الناس من يقدم في العشق غير ربهم. كنت أكره هذا الهيام الذي تجبّر وتسلط على سويداء قلوب الشّبان فلا اجده ينثال اتجاه خالقهم، صحيح أن الناس يؤمنون بالله ويتضرعون له بحوائجهم، ولكن في مجرى حياتهم اليومية وجدت ان "الإله مات"، ويهيج عندي الخجل المخزي والاستغفار عندما أعلم أنّي لم أقدر الله حق قدره، وسويت معه مخلوقاته، وفضّلت بعضها عليه بالاهتمام والعناية، وأذوب قرفاً من نفسي عندما أرى العبادات التي من المفترض أنى أخلص فيها بالي له؛ كيف كان يخالطها بكثافة شلال الدنيا فكأني خلالها اتعبّد لها. لم أُعدْ أرى ذكره تعالى نقياً صافيا فأقصي التعامل المباشر معه، وانطفئت الحرارة المتوقدة اتجاهه. ولكن اعود فأشفق على البشر عندما أتذكر أني كنت ذات يوم مثلهم ومازلتُ، وان الربّ المشهود من جهة الذوق القلبي، يختلف عن الربّ المعروف من جهة النقل والعقل، وأن الايمان مثل هندسة بناء الهرم، كلما ارتقيت إلى أعلاه ضاقت المساحة المستوعبة لأفراده، فلا يجب تحميل الكافّة من الناس الى ما كان مخصص لفئة معيّنة، والبشرية مذ خطت وجودها على الأرض، فان الشيطان يقعد لهم في كل صراط حتى اظل منهم جِبلاً كثيرا. والذوق القلبي وإن كان نفيساً ومُتربعاً على ذؤابة الايمان، إلا إن الايمان له اشكال أخرى يعبّر عنها، فقد أجد شخص يعبر عن ايمانه العميق بالجهاد في سبيل الله، وتمنيه التقطع إلى أشلاء من اجل اعلاء كلمته وسلطانه، وانْ كان قلبه لا يتعرض الى تلك النفحات القدسية. والسبب الأبرز لقلّة سكان هذا الطريق انه لا يتم بالإجراءات

المعهودة بالحس او المنطق فيتقرب الناس منه، وانما هو منطوٍ في محْارتِه، ومؤسس على الاستبطان الخفي، فكان مُبهم ومشّوش لا تخلد له الانفس بالارتياح؛ لأنه عالم ما فوق العقل، وانّه ليُعد في كثير من اذهان الناس من قبيل الروحانيات المتصّلة بالعالم السُفلي الشيطاني، والحق انه لولا تجربتي لصنفّته زندقة وسخافة أوهام "وإذْ لمْ يَهْتَدوا بِه فسيقولونَ هذا إفْكٌ قَديم"، فكنت التمس لهم الاعذار بهذه الأشياء.

هناك شوق عارم للالتئام، وخيبة أمل من الفجوة الكؤود التي تفصلني عنها، والمليئة بشتى الامراض الروحية التي عليّ قطعها بفأس المجاهدة، حتى تكون أرضيتي مهيأة لاستقبال لطائف الأحوال. كان الامر عسيراً؛ لإني كنت في وسط مجتمعي يدنّس بلا شعور جنبات روحي، ويقص اجنحة عروجها إلى مولاها، فكان يتطلب عُزلة حرائية كالتي سلكها النبي محمد -ص-، ازكّي فيها نفسي واوطّد مقامي في حضرة ربي، ثم اسرح بعدها إلى الخلق. أعدت تأويل ما كنت اعاني منه والذي كان لغزا لا افهمه، فوجدت أن ما يفرزه لي من ألم وغربة عن الدنيا والناس، ما هو إلا عملية إزاحة للعوائق حتى يخلص الطريق لي، وأُقبل بهمّة موحّدة المقصد فلا يختطفني مَغْنم انحرف اليه. وصار امراً مقضياً أن القدر رضي لي السلوك الصوفي شِرعة ومنهاجاً، وان هذا هو إجادتي وموهبتي في الحياة، وكلٌ ميسّر لما خُلق له. ولكن هذا الهدف لو أسررته لمعارفي لسارعوا إلى ادانة عقلي بالخبال، فالنظرة الشائعة المغلوطة حول هذا الامر، انه ليس من سوية العقل دفن النفس في خرائب وعَتَه

الدراويش الذين يقضون حياتهم في بطالة وشرود وأوضار وتعطيل لبناء الحياة الشخصية أو التمتع بطيّبات الدنيا المباحة، لذلك كان من الانتحار الجهر بهذا الهدف، وانا الذي أصبحت تحوم حوله شائعات بان عقلي ليس على ما يرام، علاوة ان هذا الطريق يحتاج إلى أستاذ مرشد وقد علمت أن الطرق الصوفية تفشّت فيها البدع، والشيخ المربّي اصبح أندر من الكبريت الأحمر، والتخلي عن كل شيء والالتحاق بجماعة زاهدة، امر غير مستساغ في عصرنا الذي سبق اسلافه في تقديّس المادة واستهلاكها، فلم يعد يفسح مكان لتحقيق تطلعات الروح واشواقها كما كان مُتاحاً ومقبولاً في القرون الغابرة. كنت محاصراً بسنوات الكلية المُلزم بإكمالها، ورأي الناس الذي سيرجمني بالسفه، لو نبذت متاع الحياة سعيا وراء السراب بزعمهم، لذا ارجئت تحقيق هذا الهدف إلى ما بعد التخرج واستلام الشهادة. كان هناك دافع خفيّ مهم يصب في تعزيز هذا الامر، هو لما كانت الدنيا قد ادارت ظهرها لي، وأنِفتُ من عيشها الكدر وأنكرتها في قلبي، فان خلق عالم آخر استغرق فيه كان أمنية تراودني، فآثرت عالم الروح ومقتنياته الجليلة بديلاً اتوارى فيه واقضي به عمري. أعود إلى عالم الكلية أحاول ان اقاوم أي محاولة للاقتراب ضمن مقتربات الناس التي المس فيها عودة القلب إلى حضيرة الانتكاس، وأعيش حالة من التدافع معهم لهدم أي سبيل للتصالح مع هوى النفس. تمت دعوتي إلى حفلة تعارف واستمالوني في عنف اليها، واعتبروني نذلاً إن لم احضرها، وانا اكافح في تقديم الاعتذارات الظاهرية، ولا أدري كيف افهمهم ان بداخلي نزعات قديمة من أول يوم دخلت فيه لإقامة حفلات الافتراق

عنهم؟ كنت أريد البقاء ضمن الإطار الدراسي ولا أقيم علاقات مستقلة خارجها قد تمتد بقيّة العمر. فالزمالة الدراسية اعتبرها صدّاقة معدّلة سطحية ومريحة، لا تستوجب تكاليف قد تجلب لي النقمة المعاتبة إذا اهملتها. أبقى مع الناس على نفس المسافة الآمنة المبتعدة عنهم. فإذا كانت عزلتي سابقاً عن الاحتكاك اتجاههم، أمان لي من الوساوس المرضية التي يسببها رؤية الناس، فأن مركزيّتها اليوم عندي هو صدّ تأثيراتهم من السَطوْ على مناجم كنوز روحي المكتشفة.

كان فرحة ليلة دُخلة عندما زارني الحال أثناء صلاة الفجر، وضخ في هذه المضخة سريان نوره بعد شهر من التصحر، فغمرتني منّة الله واخجلتني اذ أحسن بي واخرجني من بئر الفراق. في ذلك اليوم كنت في حالة التبسّم الهائم الذي لم يكن ليخفى عن الأنظار، فقد سألتني مدرسّة مادة الادغال برفق الانثى: «من هذه الذي خطفت قلبك حتى جعلتك ذاهلاً عن التركيز في المحاضرة»، فضحك الجميع من قولها وشاركتهم فيها بلا حرج. كان يوما بارداً قارساً وسماءه رمادية كئيبة في عالم الحمأ المسنون، وفي روحي الثملة كان يفيء إليه دفئ شمس الشتاء. عندما سمعت آذان صلاة الظهر في مسجد الكُلية، مسّني ناقوسه بطرب، وحرك دواعي الشوق، وأعلن ميقات مناجاة الوصال، فأسرعت إليه ودخلت أصب بغزارة الماء البارد للوضوء، فترمقني نظرات كأنها تقول ألا تستشعر الارتجاف ولسع الصقيع الذي يجمّد الدم في العروق؟ ودخلت للصلاة أتلو فيها سورة يس حتى أطيل امد اللذة، وقد حفظت مؤخراً بضع

سور طوال، فمضى وقت طويل حتى انتهيت منها. شخص يحاذيني وفي وجهه بشاشة وسماحة، قد أثنى على خشوعي الذي لم يرَ مثله قطّ على سيماء وجه طيلة تواجده في هذه الكلية، اصابني كلامه بالإرباك وأُسقطت في يدي، فلم أزد سوى ان وضعت يدي على صدري واحنيت بابتسامة رأسي له.

نمط صورة "المتدين" أصبح يكسو مخيال الناس اتجاهي، وأهلي رأوا ان هذا الاتجاه الديني هو الذي اقام ارتكاس امري بعدما لاحظوا اثار نتائجه في استقامة دراستي، وبروز شطارتي فيها، ونجاحاتي المتتالية في الامتحانات، والتي ادهشت الذين ظنوا أنّي كسولا بالفطرة في التعليم أو استوزر أبي في إدارة درجاتي، فحمدوا الله كثيراً عودتي الى صوابي! كان التدين يمدّني بجرعات من الإرهاق، لأن عليّ ان احافظ على نموذج القدوة الكامن فيه، وتحري الاستقامة في الأمور، فكان الخطأ الصادر منه يعادل ألف خطأ يقترفه الشخص غير المتديّن، وايّ خطيئة مطلعها مني وإن كانت من لُمْم الذنوب، فإن الانتقادات تنهمر وتطالبني بان لا أناقض ادعائي التديّن. فكانت مسؤولية جسيمة تغذي قلقي وتخوفي الدائم من إتيان المعصية في أي لحظة، حتى نشأ عندي وسواس ديني يطلب الكمال في الطاعات ومجانبة المعاصي، وانا الذي تديني متذبذباً استقيم يوما وأغفل عشرة، فكنت اشتاق أحيانا إلى راحة الشخص الغير متدين والغير مؤاخذ لو أخطا كثيراً؛ لأن هذا حاله المعتاد ولم يصدّر تديّن عن نفسه، فأقع أحيانا صريع وسواس الخطيئة والدخول في مطحنة وجوب بلوغ

المثالية الدينية التي تلقفها الوسواس بشكل شره، ولا كأني من سلالة آدم القابلة لفُسحة الخطأ، وكأنّه لا ينبغي لي إلا العصمة في الاقوال والافعال! فتلاحقني فوبيا المسؤولية عندي، وتحثني إلى إقلال مظاهر التديّن، حتى تكف أنظمة مراقبة العيون عني، واتنفس الصعداء لإتيان أشياء كثيرة تعتبر مباحة للشخص العادي، واسفاف مبتذل غير لائق اخلاقيا لو أتاها المتديّن! وحاولت هذه الفوبيا ان تلتوي دينيا معي باتخاذ مسلك "الملامتية" أحد طوائف الصوفية، والذين يُظهرون قبائح عيوبهم أمام العامة، ويكتموا محاسنها حتى يخلصوا للربّ أعمالهم من الاعجاب بالنفس ورؤيتها! فتنشب معارك حامية الوطيس واشتباك بين فوبيا المسؤولية والخلو منها، ووسواس الأثم وإلزام الكمال الديني في كل شيء.
ترسخت أكثر هذه الصورة المتدينة عندما كنت اذهب للمسجد الذي في حيّنا لأداء صلوات الجماعة وامكث فيه بضع ساعات، وما زادني ولعي به، أن بركة الانوار وآثار السكينة تستوهب فيه، بما لم أجده في أي مكان غيره، فكان بيتي الثاني الذي آوي إليه، ومغسلة حمام تُطّهر روحي، وتستجم فيه من ادران الدنيا التي تعلق بي من ساعات الدوام الطويلة.
الذي أزعجني فيه ان أفراده من الكهول وأهل الشيب والعجائز، فكان منهم من يبادلني السلام وينطلق في افانين الكلام، حتى نشأت رفقة خفيفة معهم، ولولا تحفّظي لمدّوها إلى خارج المسجد. كان تفاوتي العُمري معهم يعزز فكرة ان شبابي انقرض إلى غير رجعة، واني انخرطت فعلياً في فئة كبار السن، ومثلهم قد استفرغت وطري من زينة الحياة، وبقي أيام معدودات من العُمر نقضيها بالتعبّد والانزواء عن حركة الناس! في

سحنهم عبرة الموت ماثلة للعيان، فكأنّها مَقابر متحركة تجري امام عيني فيقدح وسواس الموت عندي، فكنت أحاول تحجيم "مؤثرات الهرم" من الدخول إلى حزمة افكاري بالعزلة عنهم. أمنع نفسي من التقرب على المشرفين القائمين على المسجد أو تجسير علاقة معهم، فيوكّلوا لي أعمال تشعب وجودي فيه، وذلك حتى لا أرسخ من نمط "المتدين" او التخفيف من أثره.

توالت بعدها الكشوفات الربانية تنزل على فترات شبه مطّولة، وأستجدّ فيها أصناف جديدة لم أعهدها من قبل، ولا يمكن لأبجدية ان تحملها فوق حروفها، لذلك كان من تعريف التصوف انه "بلا عبارة"، فزادني هذا الامر وتمسكاً به، لأني أدركت أني مازلتُ على الساحل ولم انزل بحره الذي اتوق الى الارتواء منه. وصار عندي بصيرة حدس، فكنت اعرف من خلالها أن هذا اليوم سيكون موعداً مضروباً لتفتق النور في قلبي، والحق ان الربّ غمرني بمدده، على الرغم من قلّة عبادتي التي لا تصل إلى غزارة طاعات الصالحين المتقين، فقد كان زحام اشغال الكُلية عائقا عن تخلّية الوقت له، والغفلة تغشى قلبي كثيرا، فأجد نفسي غير مستحقاً لها أو أهل لأن يصطفيني بها، ولكن علمت ان أشياء أخرى مثل سلامة الصدر امام الخلق ومحبتهم، او الصبر على مكاره القدر والرضا بها، او البر بالوالدين.... يكون لها وزناً ما يعادل قيام كامل الليل وصيام الدهر، أو إنفاق ملئ الأرض ذهباً، فكانت هذه الأشياء ترجح كفتي امام قلة زاد العبادات الشعائرية. في أعماق سريرتي يقين تام ان الله كان

ودوداً وحنّاناً يبسط يده بهذا العطاء الروحي لي، حتى يُفهمني أني على مرأى من عينيه، وعليم بخفيّات اوجاعي وغربة حالي، ومعي يسمع ويرى لحظاتي، فلستُ وحيداً.

مضت بعدها ثلاث سنوات سايرني القدر فيها بوداعة، ولم يًواعدني فيها بمحنة أهالت زعزعة قوّضت استقراري الهشّ الذي صنعه دخول عامل الدين في حياتي. كان للسنة الأخيرة من الدراسة كلمتها في خرق سيرة اسلافها، فعرجت إلى إثخان جسمي ومنح المرض التقاط أنفاسه -بعد سبات- وإعمال المعاول في هدمه. انخراط هذه الاسقام المستحدثة الى قائمة اخوانها القدماء المخربين لعافيتي، يبعث في نفسي ان الجسد قد تمرد وأصبح خارجا عن سيطرتي، والمناعة التي كانت تعفّ عن وساوس الإغواء لنداءات المرض، قد لانت لاحتضانه ومتخلية عن الكفاح اتجاهه، والأماني بداخلي تلعن حظها انها ركّبت في جسد اشتد انهاكه، فلم يعد لها المتكأ والسند لتحقيق صبواتها، وتذرف الاحباط انها لا تستطيع الانسلاخ الى جسد اخر يؤدي ما تريد. والجسد يودّ لو ان شفتيّ الأماني يلتصقان لا يفترقان، حتى يخرس ضجيجها الذي لا يفتأ نافثاً الملامة والتحقير له. اعتصر وجعاً وأنا ارى حُزمة الالام تتفاقم فلا أستطيع دفعاً لتطويق تضخمها. وكل هدم ينبثق في جسدي ينبأ خاطري بمزيد من القتامة تلوح في المستقبل. مع ولادة ألم جديد اشعر ان الحياة متململة من المكوث معي، وإن هجرتها اصبحت وشيكة عني. أنّه علامة ان المرض قد استحكمت حلقاته، ويحث الخطى ليقضم ما تبقى من عافية

بدني ويعجّل أوان أجلي، وأنّ افق الامل صُبغ بالشفق معلناً قُرب غروبه، وأنّ الشفاء يستل من دائرة التفاؤل الى خانة المستحيل، وانّي لن أعيش بعد عامي هذا، وما تبقى من أيام انشغل بهلع متسائل كيف سيقضي ويقبض الموت عليّ؟ وأن كل ما آتيه واتحفز إليه من مشاريع امنيات، فمصيرها عدم الاكتمال وجهودها بلا طائل، فلا داعي أن اغرس فسيلة اعلم أنى لن اجني حصادها وأتمتع بثمراتها، لأن المرض يجرجر الموت سريعاً لي!

هذه المرّة كان الألم ليّن في افتتاحيته معي، فظهر تدريجيا على غير عادته في البروز مباغتة وجُملة واحدة. أحسست أنّ ممرات القصبات الهوائية تعاني من ثقوب يتسرب من خلالها الاوكسجين، فلا يتلقف صدري إلا كميات قليلة منه. شعرت ان طراوة صدري قد تصلّبت وانتفخت، وتريد أضلاعه التخلي عن اتحادها والتفرق والانفجار، كأنها تريد بهذا التمزق أن تفتح منافذ أخرى غير رسمية للأوكسجين والتشبع معه. حالة أفرزت معبر آخر يتدفق بقوة ومن خلاله نوبات الهلع إلى جانب المصرف الكلاسيكي الآتي من المرض النفسي، فاضطرم بحماوة وسواس الموت وأصبح يسهل استفزازه وحثّه على الظهور، وصار كلما غفا ذكر الموت وسَمعتُ نبأ وفاة شخص، اصطك الجزع عندي وينبثق في خاطري أنّي سألقى حَتفي من بعده، وانه أقرب اليّ من حبل الوريد او رسالة من عزرائيل تنوّه باستعداده، وهو يسنّ سكينه بعين جامدة اتجاهي! كيف اشرح وسواسي القهري من الموت؟ يخرج الشخص من بيته وهو

يعلم باطمئنان ان حوادث الموت التي يتعرض لها نسبتها ضئيلة جدا، إلا ان الخروج عن النسبة الآمنة لتكاثر ذرائع الموت من حوله- سواء كانت وهمية او حقيقية- يدرجه في النسبة التهديدية التي تقوض عليه حركته، ويتولاه الحذر العنيف، وتلتاع حياته، وتشلّ من انهمار الإنذارات الوهمية المتوعدة باستفراغ روحه من جوفه، يتجلى بهيبة ويبسط سلطانه بلا استعطاف، ويشعر معه كأنّ كل يوم يعيشه هو ختام عدّاد عمره، فيفقده قدرة التذوق لمتع الحياة، وأنّ ما بقي من حياته تحصيل حاصل عابث كأنه شريط فيلم سينمائي مكرر يتفرج عليه، وأنّ حبل المنشقة ملتف حول رقبته وينتظر صدور اعدامه، يراقبه كظله أينما حلّ ووطئ. أتوقع باستمرار امتناع الاوكسجين وفراغ صدري منه في أي لحظة، وأن غرغرة الروح على وشك الصدور وعناق الحلق. أفكر هل سأموت بحشرجة تعصرني وتمتد بي إلى اقصى الكربات؟ أم أن موت الفجأة سيطوي مراحل الانتزاع ويخطفني على حين غرّة؟

أتساءل إذا ما تأسست عندي حساسية مفرطة اتجاه الألم، بحيث ان غرزة دبوس طفيفة يتضخّم كأنّه وجع قلع الضرس، وبما ان ألم تحلحل الروح من الجسد من اشدّ الالام إرعاباً، فإذن بحكم قانون الألم المضاعف، سيشتد الخوف الموسوس منه فوق الحد الاعتيادي. قد استتب عندي ان كل ما يأتي عقب تغيّر حالة، او كسر الاعتياد لأي شيء، هو شؤم مُترَع بالتفجع! بشق الانفس أستطيع قطع الحبل السري لشيء قد ألفته وإنْ كان صغيراً، فلو -مثلا- هبط مقدار اضاءة الانارة المعتاد

عليها، فإنّ ذلك يثير عندي قلقاً لا يزول إلا بعودة المقدار السابق! فهل الموت- وهو أعظم تغيّر ينزل بالإنسان- إذ يقطع عنه تعلقه المتيّم بالحياة، قد انخرط بهذا الوضع النفسي الغريب، فتضاعف عندي الخوف منه؟ اتوسّد الرجاء فأقول يا ليت ذكره يخبوا من شريط حياتي لا يباغتني إلا في آخر ايامها، وحتى لو جاء في آخر يوم سأحسبه كألف سنة مما يعدّ الناس! أريده ان يأتي قبل ان يرتدّ إليّ طرفي او بمقدار "الزيبتو ثانية" وهي أصغر وحدة زمنية متكشفة حتى الان. كان قد تغلب عليّ وهم غريب، وهو أن الموت يستثني حياتي من الانتزاع، وأن اسمي ممحوْ من دواوين الموت، وإنّي سأخلّد كالنبي عيسى، ولن امر بالمرحلة الانتقالية المسمّاة بالبرزخ، وانما سأثب منها ولا أعبرها، هناك طريقة ما إعجازية سأغيّب من خلالها عن الحياة الدنيا. لو عُيّن لي موعد للموت ولو بعد مليون عام، فان رجفة تسري في حنايا ظهري، وجزء من تحملي الحياة هو وهم أنّي بلا موعد للموت! وكثيرا ما يكون الموت مجلجل الوقّع عندي، بسبب طرائقه المروعة في خطف الأرواح، كأن يأتي على هيئة حادث سيارة يجعل الشخص ممزق اللحم ومتنافر العظام، أو حريق يجعلك تلسع بنار تطلق منها صرخة ألم يضجّ لها العالمين. لكم أتمنى ان تتوحد أسباب الموت في واحد منها تتسم بالرفق الذي يقتلع جذور الخوف منه، ولكن أعلم أنّها أمنية تخل بنظام الاختبار الذي وضعه الحكيم الخبير. إذا كان الناس تظمئ لحسن الخاتمة كالموت ساجدة لربّها، فإن حُسنها عندي هو ان اثْمل بالسكينة عند لفظ اخر انفاسي، وتكون بداية قص شريط السلام الأبدي في الاخرة.

ومن الأشياء الاخرى التي ابتليت بها، هو تلعثْم خروج البول وانحساره عن الخروج بسلاسة، ويستغرق مدّة دقائق طويلة حتى يجهش من احتباسه الأليم في المثانة ويتنفس الصعداء! كانت جهة إيلامه نفسية بالمقام الأول، لان بقائي المطول في الحمام يعيث بي قائمة من الأوهام اتجاه الافراد المقيمين في البيت، والتي لا أستطيع لها حذفاً ولا دفعا، فأتخيل أحدهم يقول: «إنّه يجد مُتعة في استخراج الفضلات في الحمام»! وآخر يقول: «ما أشدّ تصلّب فضلاته فيعاني في عصرها»! وآخر يتأفف غاضباً ويقول: «متى تخرج من الحمام هل تجده غرفة نوم وثيرة»! فاشعر بضغط خجل اجتماعي رهيب، واعمد لتخفيفه عن طريق فتح صنوبر الماء وانشغل بخريره وهو يتساقط! لذلك كنت احرص عندما ادخل للحمام أن يكون المحيط من حوله خالياً من الناس، أو يكون هناك ما ينشغلون به، أو وجود صوت عالي مثل التلفاز فاطمئن نفسيا للدخول! ولربما يشتدّ ويتعسّر عندي إسالة البول وأعلم -على الحقيقة- أن هناك من ينتظر دوره، وينتظر خروجي، فازداد توتراً ويقفل عندي الامر، فاضطر مكرهاً لترك الحمام، وأنا اعاني فظاعة ألم الاحتباس! وبالطبع لم اترك الأمر هَملاً، وابرقت إلى الطبيب فرجعت منه خائباً حسيراً كالعادّة، فاهتمامه انْصبّ على العرض المرضيّ على أنّه علّة مستقلّة بذاتها، وكتب لها أدوية لإعادته إلى سيرته الأولى من البرء، ولكن كانت عاقبة أمرها إخفاقاً. واستمر صديد الألم اكتوي به، لأن السبب الجامع لكل هذه الاعراض، والقديمة منها، في حالة كمون عن الأنظار.

ما زاد الطين بلّة هو تفكيري بان الامر قد يكون مرّده إلى تأثير المرض النفسي، وسيطرته على الجهاز المناعي، فاستباح قلاع جسدي ويتلف ببربرية المغول ما طاب له هواه. وبما أن المرض النفسي عُضال لا حل له، فإذن سيبقى يحرق فيه الأخضر واليابس حتى هلاكه. استحثت هذه الفكرة وساوس كُبرى مرعبة؛ لإن فيها تنبؤ وجيه منطقيا بأني سأموت لا محالة في السنين القليلة القادمة، وتتكهّن بعذاب جديد في المستقبل القريب، نتيجة أحد غزوات المرض النفسي على بقعة في جسمي. وجبة شهية للوساوس التي تفرعنت بقوة وتغذت من جراء هذه الفكرة القذرة، حتى حَدَث أنّه لو مرض أحدهم صار يستأسد القلق بداخلي، ويوحي باني أملك أخبث مرض ويتركز وعي به، وعما قريب سأوسّد التراب بسببه!

التعب حمى وطيسه عندي، فأرجلي أصيبت بالخور وبالكاد يسعها تجشم حمل كتلة العظام الملتحمة بها، وكأن اللحم انتفخ في جسدي حتى بلغ 150 كيلو، أو كأنها أرجل بعوضة تحمل جسد فيل! صار جسمي عندما يمشي يميل الى الانحناء، وينفر من استقامة القامة ويقوّس ظهري ويمحي اعتداله. اتضوّر خجلاً وانا الشاب، ان أرى مشيتي تحاكي وضع خطوات كبير السن الذي بلغ من العمر عتيّا. أتذكر أحدهم حاول نصحي وتعليمي بالمشي وصدري منتصب للأمام، وترْك اعوجاج الظهر الذي يلتهم الصدر ويجعله منخسف، فذلك ادعى لإظهار هيبة الشخصية! يظن ان هذا اعتياد لا واعي مني، وما علم أنّي كالعتّال الذي يصبح ظهره

كالهلال من تعب ما يحمله فوق من الاطنان. لا أدري ما سر غرام التعب بالسقوط؟ تعالت كراهيتي اتجاه الوقوف، وتمنيت لو ان لي ثمانية أرجل تحملني، فالساقين لوحدهما لم يعودا يعملان بكفاءة، أصبحت أميل كثيراً إلى وضعية الاستلقاء مثل جثة مسجية في النعش، لذا أنا أسقط تدريجيا من الوقوف الذي هو علامة القوة والحياة، إلى الاضطجاع الذي هو هيئة المرضى والموتى. عندما أمشي ازفر من التعب ويلوح مرات في مخيلتي الكرسي المتحرك، فأشرع بالتعوذ من الوصول لهذا الحال، ولا أعلم لماذا هذه الوساوس لا تأتي لي باحتمالات إيجابية؟ كثيرا ما استيقظ من النوم وقد نمت عشر ساعات فأجد في نفسي جوعاً له، وكأنّي نمت دقائق معدودات ولم استوفِ نصيبي منه، أو اصحو وكأني ركضت ميلاً! وأرجع من الدوام وقد استفرغت آخر قطرة من طاقتي، فلا أستطيع بعدها فعل أي جهد جسماني، حتى أنه احيانا ليشقّ على سبّابتي ان تفتح غطاء علبة المشروب الغازي المكبوس! وشعر ان وعيي اتجاه الأشياء مثل الانارة في احتضارها عندما تخْفُت وترمش.

نشأ عندي توجس عميق من احتمال الفقد، ما أتوقع سوى فقد أشياء عزيزة على قلبي وتقوم بها حياتي. ما انا إلا في حالة تناقص، وتآكل وتلاشي، وانتظار اندثار الأشياء من حولي، أتوقع تعطل شيء ما في جسدي في أيّ لحظة، فتطوف بي الوساوس المتخيلة بإن الكلى-مثلا-قد توقفت عن عملها، واعاني مرارة غسيلها في المستشفيات التي يصيبني الغثيان منها، وتأفف الناس من مرافقتي الدائبة إليها، فأتوقف فوراً عن

الاسترسال في هذا الخيال، واجبر نفسي على التبول حتى ارتاح الى ان الكلى مازالت تعمل وترسل السائل الأصفر الذي يريحني رؤيته ينزل وهو المقزز القذر! توّلد مقام النعم عندي، فصرتُ أبْصر نعمة الله بخشوع وشُكرٌ ممتن أكثر من أي وقت مضى، واشعر بضآلتي وعجزي عن تأديتي حق عبوديتي. أقول: ربما ستكون مهمتي وطموحي مستقبلاً، هو الكفاح من اجل ترسيخ الضروريات والاوليات البدائية في حياة أي انسان مثل تحريك اليد!

سنة غبراء، ثبتني على إكمالها أنها السنة الأخيرة، فلو تخلّيت عنها فأنّي أعلم أني لن اعود لإكمالها في السنة القادمة، لان حالتي في تدهور وبالتالي يضيع ادراج الرياح كل الجهود المُضنية الاليمة التي بذلتها في السنين الماضية، فيعزّ علّي خذلانها وخسارة التتويج بتاج شهادة العمر الدراسية. لم أُرد إذا ما سألني الناس عن شهادتي، فيكون ردّي عليهم: خريج إعدادية. وكذا فان عامل التدين على الرغم من تراجعه بدرجة كبيرة، وانقباض السماء في إطلاق يدها بالغذاء الروحي، ومغرماً عظيماً افتقدته بشدّة، فإنّه لعب دوراً مهماً في ترسيخ اوتاد صبري على هذه النكسات الجديدة. عجزي يتفاقم عن أداء أشياء بسيطة. فهذه الهوية التي تُثبت انتسابي للكلية قد اهترأت، وصورتي المربعة فيها قد انْفكت عن جلدها، وأصبحت تزعجني بسقوطها، فإذا مسكها رجال الامن للتحقق مني، تحركت وآلت الى الوقوع من تحت الغلاف الى الأرض، فاشعر بالخجل وهم يطلبون بخشونة وتهديد وفي كل مرة أن أجددها، فأصاب

بالتراخي المرضي عن ذلك، فصارت بوابة الكلّية من هواجسي التي استفتح بها يومي، وابتدع حركات مراوغة تبعدني عن أنظار الامن، والتهرب من تفتيشهم واتنفس الارتياح! كانوا مرات يمنعوني من الدخول، فادخل معهم في شد وجذب، حتى يأخذوا مني ميثاق أن أرجع بهوية محترمة. هكذا عجزي يدخلني في تفاصيل صغيرة شاقة، كان يمكن تجنبها لو أعطيت لهويتي المجعدة الذابلة نصف ساعة من التجديد، فأعيد لها هيبة شبابها.

أعدّ أيام التخرج، والالم يزيد من المطّ الزمني الشعوري نحوها وكأنّها سنين طويلة، وانتظر الانقطاع عن هذا المكان المشؤوم وزملائي يظنون أني سأتوجع لفراقهم، وبداخلي وجع لبقائي معهم! كان زملائي تعلو وجوههم الكآبة على انتهاء عمرهم الجامعي، وتفصّد علاقاتهم الحميمية، ونفوسهم لم تزل تريد الاغتراف، وينظرون بحسد إلى طلاب المراحل الأولى، وكأنهم يريدون سرقة اعوامهم هنا، واضافتها إليهم، وتجديد متعة البقاء مجدداً! يذمّون الزمن وكأنه كان يغدرهم باستقطاع أوقات كثيرة من اعوامهم هنا، حتى قصر التقويم عن أيام وفيرة، وهذا ما فسروا به شعورهم بسرعة انتهاء المرحلة الجامعية.

أقيمت حفلة التخرج الفاخرة في منظرها، ابتهاجاً بلحظات قطف حصاد السنين، ومن أجل إنشاء ألبوم صور يكون صمّام أمان يحفظ وجوه الرفقة الحميمية من ممحاة النسيان، ويحرس حبال العروة الوثقى بينهم من الانفصال، وتوثيق أثر كل شخص حتى ينجو من طائلة المحو الممقوت

من غريزة الخلود، ومادة دسمة يستحضرها ويروي بها الحنين إذا هبّ عليه، ويشارك أولاده واحفاده ذكرى الشباب الزائل من خلالها، وسرد قصة الأشخاص الملتقطين فيها. وكعادتي اعتذرت عن حضور مثل هذه التجمعات، كنت مُسوّر بحالة تأبين دائم تَحْضُر على شعوري حُضور هذا الاحتفال، ومنع إشهار ايّ سعادة ظاهرية تزوّر حقيقتي المُتعبة، وعلى الرغم من حرصي على نيل الشهادة، إلا إن قلبي توسّده إيمان بعبثية الدراسة والنشاط الذي صرفته إليها، فكان قلبي منعدماً بقيمة انجاز الشهادة، ومن المجون السخيف الاحتفال بذلك. اين اللذة في تعليق وسام الشهادة على صدر تبرز اضلاعه من التعب كأنه في مجاعة افريقية؟ ما فائدة تعليقها في أطار مزخرف وانا سأحرم منافعها أبد الدهر؟ عزائي الوحيد انها ستكون كذبة لذيذة تثبت لي لفظ يشنف له سمعي وهو المهندس، مهندس برسم الحروف فقط، وستتبخر معلوماتي من طول المكث في البيت حتى اعود أمياً في اختصاصي. كذلك لم استسغ التقاط الصور التذكارية؛ لإن بداخلي نزعة شرسة في إحداث قطيعة مع هذا الماضي الدراسيّ، وردْم كل ما يخصه تحت التراب، أهدم أيَّ علامة شاهدة تذكّرني بنسختي الضعيفة ومعاناتها الشديدة، أنا سعى لدحض أي مساحات يلتهمها ضعفي لصالحه وإن كان على هيئة صورة. لا أريد ان دس بيانات ما قاسيته في الذاكرة، فيكون رافداً يلوث حاضري بالألم، وعندما يسترجعوا تلك الصور الجماعية للدُفعة بعد سنين، تكون ذاكرتهم قد انهت عملها في مسحي، فلا أخطر على بالهم وكأنهم كانوا بهذا العدد لم ينقصوا فرداً. وحتى الصور القليلة التي التقطتها مجاملة طيلة فترة

سنيني الدراسية، عَمدتُ الى تمزيقها نصفين ورميها في سلة الحاوية بعد التخرّج، لان وجودها كان نصب تذكاري أليم. ليت عندي ذاكرة رقمية فيتسنى لي حذف ما أشاء منها. هكذا قررت ان أكون مثل خطوات رمل ما إن تُوجد إلا وتسرع الرياح بتسويتها إلى النسيان.

جاء اليوم الأخير للامتحان كان يوم عُرس انتظرته بفارغ الصبر، تجنّبتُ لقاء معارف الناس فيه بأيّ ثمن، حتى لا أقع في دراما كلمات التوديع. كان يوم مؤثر رأيت فيه تهدّج الأصوات، والمعانقات الطويلة الحارة والأسى الفارع، فبلغتني تلك العواطف الجياشة اتجاه اثنين او ثلاثة سأفارقهم مثل فتى الريف فلم أقدر على بيانها. اعترف ان آلية الآلة الجامدة قد انتقلت لي، وصادرت مني عفوية المشاعر وخاصمتها خصومة شديدة، وكأني من جنس الروبوتات وقد تنكّرت بجلد الانسان وهيئته، منهك هذا التصنع الجليدي الذي يصنع أشياء ليست من طبعي، ويكبت أشياء تستقى من سجية فطرتي، ولا أدري كيف انهي هذا الازدواج، وحالة الالتفات على طبيعتي التلقائية واعادة الامر إلى سيرته الأولى؟ لا أفتأ اسمع دوماً تهمّة تصحر مشاعري، وأنها لا ترى ابعد من انفها، وعمياء عن الإحاطة بإحساس الآخر، ولا يعلموا أن ميزانية عواطفي مُتْخمة وفائضة، إلا أن الخلل في وسائل نواقل ايصالها غير الكفؤة، وليس في كميتها وشحّتها أو بُخلي باغداقها، وأقر بعجزي عن الاتيان بشهود قد اغترفوا من عاطفتي، فيعطوا دليل براءتي امام المُتّهمين، فلم يسبق لاحد ان فتح مغارة عاطفتي وعاينها، وانتشل منها ما

شاء، فحدّثكم عما تحوي من غزارة، فمحاولة وصول الاخرين اليها، كتسلق الجبال الشاهقة التي من الصعوبة البالغة متاخمة قمتها! فكم من صرخة فرحة قد آثرتُ كتمانها، والتحفتُ العزوف الظاهري عنها، وهي تتوسل لفمي ان افتحه حتى تدوي في فضاء الحرية وتعانق الموجودات، وكم اشتهت لغة جسدي ان تتحرك جذلة، وتتمايل وتشارك احتفالات الناس ومناسبتهم، فأشهرت بوجهها الكارت الأحمر وطردتها من ملعب الحركة إلى دكّة المتفرجين. ولطالما شعرت بالامتنان لبعض الأشخاص على ما قدموه لي، فركنت كلمات الشكر جانباً وهي أحوج ما تكون للإشادة بإحسان الآخرين وتضحياتهم، ولشدّ ما أفعم قلبي بالمحبة لبعض الناس الذين يحبّوني، فمنعت الحروف من حملها خارجاً والرسوْ في قلوبهم. أشعر بالذنب من اشخاص قد رحلوا او فقدتهم، ولم استوفِ نصيبهم من العواطف، أو أحسستهم بسمو مكانتهم في قلبي، أو صبغ تلهف عطشهم لي بشيء من طلاء احساسي. تبكي العفوية بداخلي وقد سُلبت حقوقها وجرّدت من حريتها، وتحن إلى ذكريات الطفولة حيث تشهق عند الدهشة، وتتقافز عند الفرحة، وتضحك عند الطرفة، وتندّ عنها الآهـ عند الوجع، وتقتني الشيء دون تردّد أخذه، وتمردها الذي لا يُملي اهتماما كثيراً للنظام، ومشاكستها المرحة التي تنْسف تكلف الوقار، والبكاء العارم عند الضيق فلا تراه ضعفاً، وإبداء الهبل التافه فلا تتحرج رأياً بأنّي قليل العقل، افتقد تلك التلقائية التي يكون فيها ما في القلب يطبع على اللسان، فأصبح الجسر ما بينهما شبه متهدم وما بقي منه إلا طرق ضيقة متداعية، لاتأمن الكلمات من المرور فيها إلا بصعوبة بالغة،

فيتقهقر الكثير منها، وما أكثر سقوطها لو تجاسرت في مغامرة للوصول الى جانب اللسان. صار ملتقى طريقي مع الناس في نقطة سوء فهم، ما بين شعورهم بضآلة اهميتهم لي، وما بين عجزي عن نقل جسامة اهميتهم في سويداء قلبي.

غمرتني فرحة كبرى بانتهاء دابر العذاب الذي كان يأتي من اتصالي بالكلية، وسأتفرغ الى البيت واسترخي فيه لأجل غير معلوم.

الرسالة الثانية عشرة:

سُبّوح قُدوس شهرزاد. أتذكر معلومات حسابي او صندوق البريد -كمّا اسميه- يبثّ رسائلي المختصرة لكِ، وجدار سجن اخربش عليه ما لا أستطيع ايصاله اليكِ. اضع فيه علامة الإنفينيتي -اللانهائية- كرمز حسّي لخاتم الارتباط بكِ، وقلادة اسوّر بها جِيد حسابي، وعندما تلتحفين الغياب استخدمه كأرقام تقويم وكأعواد سجين في جدار زنزانته؛ اعدّ بها زمن غيابكِ وحبّات اشواقي، وقد اتلاعب به وأضخّم أعداده واملأ به البايو، حتى تلتفتي إلى حجم لهفتي إليكِ عندما يطول اختفاءك، واقطع الرجاء من لقاءك ثانية، مع علمي اليقيني إنّكِ تتابعيني خُفية وبحساب زائر خاطف. تنزعجين من كثرة استخدامي له وتزعمين انه يشوش عزلتكِ، فأهددك مازحاً بنشره، واذاعته في كل غرف دردشة الشات ان طال امد احتجابكِ.

العصر الغزلي في حياتي بزغ مع فجر طلوعكِ، وشرعت اجعل من البايو شاشة ضوئية تعرض مقولات نصوص قصيرة متغيّرة اكتبها في خلوات نفسي اليكِ، مثل "أول العدد وآخره" او " ابدٌ لا يتبدّد، وتوحد لا يتعدد" او "الفردوس المفقود والمنشود"... وأميل الى الاقتباسات القرآنية وأوْردها في معرض الحديث عنكِ مثل "ما كذب الفؤاد ما رأى": ايّ ان الفؤاد لم يزغ ويتوهم باطلاً، وينتحل زيفاً رؤية حبه لكِ، او اكتب: رسالتي الأبدية اليكِ الآية -11- من سورة الشورى، وأعني بها مقطع "ليس كمثله شيء".

حزم من الخواطر تقف في طوابير، وتنتظر ان تركب حافلة الحروف. نظرت الى نفسي بعين الاستغراب وهي تتفتق عن هذه المقدرة الرومانسية في التأليف، فلم أكن أتوقع في يوم من الأيام أن أصبح فارس الفصاحة الرومانسية واشنف اذنكِ بمفرداتها، أن أصبح مثل أبطال الروايات الباذخة بالعشق وأحتذي سيرتهم في مذاهب تدبيج الرسائل إلى محبوباتهم، في كل نص اكتبه اليكِ اكتظ بالتهور والاندفاع الفارع، وتحتدم وتزداد ثروتي الغزلية في قلبي. قررت توقيف الكتابة في حجز الشحّة، كي لا ارتطم بحوادث العواطف الضارّة، وأخرج عن إجراءات السلامة العقلية، كي لا اهلك نفسياً من جبروت طاقة الكُلْف بكِ، وأخفف من موارد اضطرامها في قلبي، وأحاول تقلّد الروية في ريّ روحي من منبع روحكِ بلا سكرة طاغية تفتت صوابي. وها انا اليوم أقوم بأرشفة وتوثيق ما خطّته واحتوته ايامي القليلة معكِ. ألوذ بالكتابة لأحرسك من خيانة ذاكرتي البالية، وأحفظك في قنينة محاليل الحروف حتى لا تتفسخين من ذاكرة الكون، ثقتي عمياء بكبسولة الحرف أن تُجيرك من الثقب الأسود للنسيان التام، ان تصنع للكِ عمراً يقرؤه الناس في كل جيل. وهذا الاعتصام والحرص على بقاءكِ، سابقة لم يحظَ بها شخص اكتنفته في دائرة خواصي، ذلك لأننا نقوم بكل ما هو استثنائي للشخص الاستثنائي.

****

مرّت سنين عدّة على التخرج، ارتحت في بدايتها على أحسن ما يكون، لأن جسمي المريض كان نهماً إلى استجمام دائب وإلى عطلة نقاهة لا حد لها. وتحت التأثير الساذج للانغماس بالراحة، ظننت أن تخرجي كان منتهى المهام الواجبة عليّ، ولا شيء بعدها لأفعله في حياة الخارج العملية فكأنه ختام تقاعدي. بعد بداية التخرج بسنة او أقل، برزت أصوات تطالبني باستئناف حياتي والبحث عن عمل مالي، وبالأخص قد جاء ميعاد الطرح المكثّف لفكرة دراسة الماجستير التي لم يقصّر الطلاب بالأمس السالف في تذكيري بها، كأنها عضو جسدي بي حتى انّهم ظنوا أني لن أعتق من هذه الكلية إلى الابد. قالوا انّه حان وقت تفعيل ورقة يانصيب ابن الأستاذ الجامعي، واستلام جائزتي منها بسهولة التوظيف والعروج في سلّم الألقاب العلمية! لم أعد اطيق الشهادة التي تطاردني بكلام الناس عن ضرورة استغلالها، حتى أني امتنعت عن إيداعها في ورقة رسمية ومؤطّرة على الحائط تكون كريهة المنظر لي. بدأ فصل معاناة صراع طويلة مع الناس، كنت اظن باختلائي في البيت اني ارتحت منه، فالمرض كان دبوس ثقب بالون رحابة الأرض، واقتادني الى الانضواء في لواء الانطواء، وامارس به حياة أخرى في غرفة مكوّم بها على أحد أسرّتها والذي أسميه سرير المرض، فيراني الناس اقضي ساعات طويلة على اللابتوب والنت، فيظنّوا أنّ هذا الوقت من المستحسن والاجدر صرف طاقته واستثماره في العمل، وبما اني قادر على الجلوس مطولاً امام الشاشة لا أبرح ولا أنفك عنها؛ فهذا يعدّ برهان ملموس على امتلاكي من النشاط ما يُمكّنني من تسنم أيّ عمل يُسدى لي، وانبرى ظاهر معافاتي لهم

في تسديد هذا الزعم والراي. وأنا أعلم ان العمل هو قرين الشاب وجذره الذي يؤسس به مستقبله، وبه ينعزل عن العائلة الامّ ويغدوا مستقلّاً، ويشيد أسرة يقوم على أمرها ويمرر من خلالها تصريف عواطف الاحتياج للمرأة وتلبية مشاعر الابوة، وتنمية مهارات التعامل الحياتية لوحدك، وانفصال تدبير شؤونك والاستقلال بها من قيام الاخرين عليها، وتبْديد أوقات الفراغ الضجِرة، وإقصاء اللهو المفسد لاستخراج مالاً تنفقه على نفسك، وتعزيز الثقة بالنفس وتقييمها إيجاباً من خلال التطلّع إلى إنتاجك وإشادة الاخر به، ووقاية النفس مذلة العوز وسؤال الناس... وبالمحصلة فانه يساهم في تكوين القسط الأكبر في ترعرع ازدهار قوى الرجولة. كل فوائده معلومة فلست بغافل عنها حتى يذكرني بها أحد، ولكن العمل حركة تغذيها الطاقة الجسمانية، ولا طاقة إلا بمعافاة تامة، فإنْ خلوت منها اصبح شغلي عسيراً، وإنْ باشرت عملاً فان طاقتي لن تسعفني إلا لفترة قصيرة، ثم يتبعثر تركيزي ويعتزل ذهني تلقائيا مشاغل الخارج، ويتجه نحو الاندماج بالآلام والانهماك بها -والتي تزداد حدّتها مع بذل جهد العمل- والرغبة بالخلوة وهدوءها، وأن ينصرف الناس من حولي. كنت أعلم يقيناً أنّ أيّ عمل آتيه لن اتقنه، وستكون إخراجاتي له رديئة لا ترضي المرؤوسين. فأنا اجلس على اللاب توب وراقداً على ظهري، والرقود أحبّ الى المريض من الوقوف، ومعتزلاً عن ضوضاء الناس، والهدوء أحب الى المريض من الاختلاط مع الناس، وساكناً لا اتشعّب يميناً او يساراً، والسكون أحب الى المريض من الحركة، وصائم عن الكلام لا أكاد انطق إلا لماماً، والصمت أحب الى المريض من الكلام، ومكاني

مناخه معتدل، والمريض يرهقه تطرف المناخ الحار والبارد خارج البيت... وهذه كلها سلوكيات مستحدثة شاذة اتخذّتها مسلكاً يومياً لملائمتها حالة مرضي، وينبغي لمن يعمل أن يتخلّى عنها، حتى لا يتعرقل ويسير على ما يرام. لذا اتهرب من نداءات فرص العمل التي تقدم لي، واقاطع أيّ تمهيد للكلام عنه ولو تلميحاً، تتوالى عليّ عروضه وكأنهم يعاملون شخص صحيح البدن ومعافى، وينظرون الى استنفار كافة رفضي لها، على أنّه كسلاً وتعوّداً للقعود في البيت، وإخلاداً الى الراحة أو ضعف الشخصية وخجلها، وتخاذلها في ممارسة العمل وأخذه بتلقائية يسيرة. يهيأ لي احيانا أنى لو عملت لفترة وجيزة، لكان ذلك خيراً وأحسن مردوداً في تخفيف رهق ضغط الاخرين، فالناس أبناء الحسّ، والرؤية عندهم مقدّمة في الاقناع على العقل والنقل، وما كان مرصوداً ومشهوداً يتلقفه اليقين، ويتشرّبه بسلاسة وأسرع من استنباط عقل او خبر الناس، فالعمل يفضح المرض والتشهير به على رؤوس الاشهاد، ومن المتعسر التصنّع بالمعافاة واستمراء ساعات عمل طويلة والمرض ينخر جسدك، وأيّ محاولة لكبح المرض وادعاء الصحة سرعان ما تبوء بالفشل، ويهتك ما تحاول إشاحة نظر الاخرين عنه، فأعراض المرض تكون بادية للعيان، فيُعين ذلك في الحاق النكبة بالنظرة الظالمة اتجاهي وهي: إنّي قادر على العمل. على أي حال ذابت الحقيقة في غضون قصور مدارك الناس، وتحري دقتهم لم يحط بما لديّ خبراً، ودرع صبري بدأ بالاهتراء أمام سهام النقد اللاذع من محيط الناس حولي، والذي لا يفتأ يُذكّرني بأنّي مستهتر بنعمة فرص العمل المفتوحة أبوابها على مصراعيها. فأخي قال

لي في مرّة: «كيف لي ان أجهض نعمة يتمنى كثير من الشباب ولادتها في حياتهم؟ أنت حقاً مثال عملي على المثل الذي يقول: "الربّ يُعطي جوز للذي لا يملك اسنان" وتعمد على تدمير ممنهج لحياتك وتنشب اظافر الخراب فيها، وترسلها إلى قاع التهديم غير المبرر، متى تتلف هذه الصَدفة التي أحطت نفسك بها بلا مسوغ؟ ما تراه من أسباب تحسبها مثبطة لانطلاقك، ومسؤولة عما آلت بك إلى ذبول حالك؛ ماهي إلا أوهام اوهن من بيت العنكبوت لو تعلم! وبعض الناس بتلفيق وساوسهم تجعل نسج خيوط العنكبوت وكأنها خيوط من معدن التيتانيوم اقوى المعادن في الأرض! وأنت تقلب الاوهام إلى حقائق رسختها في هاجسك، كما يحوّل الأطفال الاشباح الوهمية إلى كائنات حقيقية تسبب لهم ذعراً! ألا يمتطي الخجل محياك، وأنت ترى أقرانك تقدّموا قُدماً في بناء بنيان مستقبلهم، ومازلتَ قابع خلفهم ومتأخراً في سباقك معهم؟ لماذا تدنّت همتك ورضيت بالدون وتثاقلت عن التساوي معهم؟ لا ينقصك شيء ولا تحوي عيوباً حتى تدع صعاليك صغار أقل منك إمكانية وقد تفوقوا عليك. هل بك جذاماً، أو عيباً خلقياً، أو هزيل الشخصية حتى تُمسك نفسك عن تطويرها؟ أنت زاخر المَلكات ولا عوق تحرزه إلا تعطيلك إياها اختياراً وعن وهم! فكيف تُحبط ما وهبه الربّ لك من نعمة ينبغي ان تشكرها عليه بتفعيلها والامتناع عن دحرها؟ أنت تتعرض للشجب والتنديد المستمر من قبل الناس، فادرأ ذلك بانتفاضة على نفسك تزيح ما ترزح تحته من لا مبالاة، وحافظ على صيانة سمعتك من القيل والقال التي تنال من مكانتك وألجم تلك الألسنة بإنجازاتك».

هذا الحصار الخانق، جعلني اتحفّظ على إبداء البشاشة، فذات ضحكة انبرت امي وقالت: «تقضي وقتك كسولاً وبالضحك المستهتر امام الشاشة، وتترخص أمام مستقبلك ولا تنشط في بنائه»! لذا عندما صرت التقط شيئاً طريفاً كوميدياً، فإن ضحكتي تلتف بعيْنها متوجسة، وتجري مسحاً شاملاً للمكان وتوثّق خلوه من الناس، حتى تطمئن على سلامة وسلاسة خروجها تلقائياً، وضمان ان نهاية مسافة صداها لا تصل إلى آذان أخرى، ذلك ان الضحكة علامة ضلال يُستنبط أن صاحبها يتبسط في سعة من رغد البال كما هو مشاع. أُداريها سراً كي لا تكون دليل ادانة تدحض صحة ادعائي بالمرض وتهمة تشن ضدي كلام جارح، وعندما اعلم بوجود اشخاص حولي أزمّ شفتايّ، وأحجزها في منصة انطلاقها تدوي بكتمة خجولة داخل فمي، أو أعمد على تحويل انجرافها المجلجل وتهذيبها الى ابتسامة رقراقه بجهد معرقل شاق، كأن الناس في حالة جنازة وعليّ التزام الادب الجمّ والنهي عن استرسال ضحكة في حضرتها. الفضاء المتاح للتعبير بحرية عن انفعالات الناس أصبحت فيه رهن الاعتقال التعسفي لو سنحت لي فرصة ضحكة مسالمة. ما هو معهود أن العبوس يزاوج دائما المرض، والضحك حالة نشاز شاذة لا تناسب تركيبة الوجه المتوعك! كُتب ان ارتدي روب المحاماة عن حالتي المزرية وأصونها من أي شُبهة يشكك في وجودها، وإنْ كانت ضحكة عفوية. اكافح فأتنكّر بشيء لا يمت لي بصلّة، وأنْكر حقائق من ذاتي حتى أقدّم دوماً التبريرات التي تتسق وتتحالف مع مرضي، أحاذر ان أرسل النفس على سجيّتها، واتربص بالأشياء كمشاريع تستهدفني فاستبق نواياها

التخريبية بالحيطة والصدّ، اكبّد بالتعبّ عندما اخطط بكدّ ذهني للأشياء التي يتناولها الناس بيُسر مبرمج.

هذا الضغط المجتمعي يسانده شيء آخر أعاني منه، وهو التزمّت بجدّية الحياة حتى تورّمت خلاياه وترهلت بداخلي. يشعرني ان الوقت رأس مالي، وتجارة لزيادة غلّة منافعك منه، وليس ملاهي تجول في قُطرها. وكل يوم يَمر يتبدّد فيما لا طائل أجنيه، ولا تعلو فيه لبْنات بناء إنجازاتي، فان الجزع يندّد بتبذير الوقت على غير هدى من الفائدة لي، ويعتبره غدر بهبة السماء وكفران لها، وهناك من يستغيث من ضيق وقته وودّ لو زاد يومه عن 24 ساعة. وكلما سلخت سنة من عمري وقاعة انجازاتي لا يزورها نجاح، ازداد الشعور بقيمة الوقت وضغطه الهائل، واكبسُ في اشتباك بين المرض وارغامه على تقاعسي، وبين الوقت وإملاءه المتزايد على الحركة والعمل في استغلاله. وتتوعد تلك الجدّية المتزمتة وتنذر، بان وقتي لم يبقَ فيه إلا القليل، والعمر قصير وأنت متسامح بإسراف مع الهزل. ألا تنظر الى الشاب يعمل بكدّ ويهرق طاقته حتى يدّخر لنفسه مالاً وبنيناً، فيحجز بهما لشيخوخته مقعداً مريحاً يتوكأ عليه من السقوط، ويكونا له قدم تسعى بعد ان تُبْلى ساقيْه من الاعياء! فمن الخير لي أن أفصل جلدي عن دلال النعومة، والنزول إلى حيث تشقُق وتقشر جِلْد كفّ يدي، وتلوّن خطوطها بأوساخ العمل، وألا أُرى إلا في حلبات النجاح منافساً عليها، غير متكئ على فرش بطائنها من استبرق. الركض وراء هدف ما حتى مطلع تحقيقهن يكسو الحياة بالمعنى

الذي يضفي عليك الرضا الذاتي...! ولكن لا سبيل إلى معاندة ورطة المرض التي سطرت في شريعتها، حرمة وصالي مع ايّ هدف، فأحرقت كل سبل الاتصال معه، فخبا معنى حياتي ورقد في العناية المركزية، وتدحرجت إلى الضياع والتشتت الكئيب، أتلوى ألماً لا يندمل إلا بإنعاش المعنى، وضخّه مُجدداً في مضخة روحي. هذه الجدّية المتزمّتة تفطر قلبي أسى، وأنا أنظر لذهاب العمر الذهبي لحياتي في سعة من الخمول والضياع واللهو، إذ لا أجد لمستقبلي ما استودع به شيئا، يكون ضمان تستروح له نفسي، فيما لو بلغت من الكِبر عتياً، وبذلك اشاطر غمّ العقيم الذي لن يجد عكاز يشدّ به عضده من وهن العظام، وتكلّس حياته ببرودة وحدة الهرم المتعطشة إلى دفء الأبناء والاحفاد، فلا غروْ والحال هذه أن يلح النبيّ زكريا في دعائه، ألا يذره ربّه فرداً يتيه في ظلمات خذلان الجسد له ومكابدة شعور اليتيم. مرضي يتضاعف كمتوالية هندسية بمرور الزمن، وقد يسلّمني إلى طور الشيخوخة وانا محمّل بما يشبه مشقتها، بدلا من امتلاك العُدّة للتصدي والتجلّد لها. ولا أحسب إلا أن جسدي سيُجْهز عليه سريعا من جراء التقاءهما- ايّ المرض والشيخوخة- فلن اعمّر طويلاً، وسيكون ذلك اعفاء لي من استجداء القدر وانتظاره أن يرحمني من الصراع المضني مع المرض العضال والهرم الثقيل وغربة العيش مع الأجيال الجديدة وتأفف عبأ الاهتمام بي.

على أي حال صار الرّد بأنّي مريض ولا أستطيع العمل، أصبح لا يلقى آذانا صاغية، ولا يوفر حجة دامغة، ولا يحرك ركود التعاطف

معي. اخفقت في الذود عنّي وكأنّها كلمات فقدت القدرة على الصوت فلا تستطيع إسماع الاخرين لها، وأصبحت أريد التحرر من اختلاق المعاذير الواهية التي أقدمها كغطاء وبديل عن المرض، والانعتاق من التسويف والترددّ المخجل الذي ألقى به من يقدم لي العمل. ينتابني الاحتقار وأنا اراوغ بشكل لا تَخْطأُه العين، وأُداري وادفع بسذاجة ولطف كل شخص يحادثني عن العمل، يصاب لساني بالتلعثم من يفاتحني بهذا الموضوع، أصر بأسناني داخلاً وأبتسم على مضض، وأعطي وعود بالنظر فيه، وانا اعلم أني سأنكث به بعد افتراقنا. صرت أضيق ذرعاً، واشبّ غضباً بعلائم الخور والكذب اللاتي أساير بها الاخرين، ومرضي ليحتجّ على مداهنة لساني لهم وهو يتفوه بكلام وكأنه معافى! وينتظر وطئ المجاملة بمطرقة الصراحة، والاعلان الثابت بلا خفاء عن حقي بالنقاهة الممتدة حتى الإبلال من التوعك الصحي، وأن أكفّ عن مؤازرة خطل رأي الناس الضال في امري، وفك لزوم الكبت المراعي لهم، لأن استمرار اجترار الألم باطناً، والتظاهر بالخير خارجاً، يُهشّم نفسي ويبشرها بعذاب اليم مستديم. أن الطم بحديثي كل من يجحد مرضي، حتى لا تَعلق بأغلال مجهدة تنجم من كتمان مهين. أن احلل عقدة من لساني تجهر برفض صارم وقاطع يبتر من يراني قادراً على العمل، ويتهمني بالتراخي الانثوي عنه! أن استبدل الابتسامة المفبركة بوجه حازم، ولسان هاجم على من يقول لي متى تتوظف وتُعيّن. أن اصدح بلسان جارح على المستخفّين والمستصغرين لمرضي. أن أنشّأ وأربّي لساني على كلمة "لا" لكل رأيّ يخالفني بجهل مرضي.

ظهر عندي فوبيا نفور من الصباح الباكر، وألوذ بالنوم متى ما لمحت تفتح الشمس من أكمامها. فأحيانا لو استيقظت فجأة، وسمعت قعقعة الصحون والاواني للإفطار، أو جلبة عمليات تغيير الملابس، أو تسرّبت لي رائحة عطر، او صوت طقّة المفتاح في القفل لغلق الباب.. ونحو ذلك من اشياء استعداد افراد من عائلتي للخروج في اصقاع الأرض من اجل العمل أو الدراسة وبقائي وحيدا في البيت، فإن ذلك يثير فراغ غُربة فزعٌ في فؤادي، ذلك لإن لهم-مثل الناس- معنى حركي مُعتبر يسعون اليه في يومهم، ويعطي لذواتهم تموضعاً ملموسا في مجتمعهم، والجدارة والجدوى في حياتهم، وانظر حسيراً لنفسي وقد زويت في ركن حائط غرفتي طيلة يومي، لا أفعل شيئاً جديراً بالنظر. كان هذا المشهد الصباحي يحكّ شرارة المعنى الذي اغالب لدفن مرارته، وعدم استجرار فكري للإجابة عنه. كنت ارتاح عندما تأتي أيام العطل مثل الجمعة او ايام غائمة كئيبة تعج بالمطر الشديد، لأنها تكون أيام اخلاد اجبارية مكوث في البيت، فاشعر بالتضامن بان الجميع مثلي جالس وقاعد لا يفعل شيئا.

واعترف أن التصوف كان لي منتهى الهوى، والهدف الاعظم الذي شتلته نُصب عيني عندما اتخرج، ولكن وجدت ان سلعة الله غالية في هذا الطريق، وتتقاصر يدي وامكانياتي عن نيلها. وبقيت أُراوح في بدايته لا أقوى على التقدم، على الرغم من فراغ وقتي، فتراجع تديني بصورة كبيرة، ولي سنين لم اتذوق شهد الايمان، وما بقي إلا اطلال يبكيها شوق قلبي، فيتمنى قيامتها بلهفة، والاستغراق في مباهج الروح تارة أخرى،

والنأي عن سخام هذا العالم الذي لا يلائمني. وكثيراً ما أعزّى نفسي باني قد عرفت الله حقاً، وبلغت سُمو مراتب فيه لا يستطيع أن يُدانيها سَواد الناس في كل حُقبة وجِيل، وهذا أجلّ ما يحققه أي فردّ في الوجود، فما حاجتي بعد ذلك إلى للبحث عن شيء أثبت فيه ذاتي؟

وكالعادة ظهر إلى جانب مرارة العمل توأمه الثاني وإن كان بصورة أخف وهو لماذا لا تتزوج؟ ذلك السؤال الذي حكم عليه باعتلاء صدارة الأسئلة عندما يطرح على الشاب. ولا أدري كيف اتزوج واضيف الى نفسي نفساً أخرى، تحتاج مالاً ورعاية وعناية وحماية، وأنا بالكاد أقوم على شأن نفسي، والذي اعتمد فيه على قوامة اخرين! فعندي من النقص ما أحتاج به الى العناصر التي تحتاجها المرأة من الرجل الذي يتزوجها! فلو تزوجت فإن قوتي الظاهرية الهشّة المتماسك بها امام الناس ستنهار، وقلّة حيلتي وهواني التي أجهد في طمرها ستظهر للعلن، ومثالب الطعن في رجولتي سيتهامس بها مجتمعي سراً. فالزواج معيّار للرجولة ومن لا يكون كفؤ له والقيام بشأنه، فإن رجولته ستلوكها الالسن بما يشينها، وتشبيهها بالمرأة سينزل بقوة! وإن الرجل مستعد لإنفاق الذهب والفضة حتى لا يقال عنه انه امرأة. أنا بليد في تدبير شؤون المنزل، أو اصلاح ما يتلف فيه، أو جلب السلعة المناسبة، فعمارة الاسرة وتلبية متطلباتها منوط بالتعامل الخارجي الذكي مع الناس، وامتلاك الخبرة، وانتفاء الحيرة في الوصول الى الحلول، في حال لو اندلعت مشكلة او أزمة أو حاجة فيما يتعلق بالبيت وسكانه.

واستطالة امد الانطواء عندي والابتعاد عن الخلائق ودنياهم، أدى الى تصفية رصيد الخبرة ورشاقة التعامل الاجتماعي، والتي كنت سأحرزها لو كنت منغمس في خضم الحياة، استحكام المرض عندي اورثني ركود في الذهن، وبوار في مهارات الحياة التي اكتسبتها سابقاً. اتعامل بارتباك مختلّ مع ما كنت مُتقن ومُتمكّن منه. بلادة وطيسة تتلكأ وتحكّ شعرها مع ماكنت انجزه بسرعة. اغلب ما صقلته من باع في البراعة تداعى الى عجز غير يسير. عُدت الى عجينة خام ولا أستطيع تشكيلها من جديد. استوطن وطن طفولة وخراب سنّ شباب عليّ إعادة اعماره لو اردت العيش في هذه الحياة. أفعم فرحاً وأتنفس الصعداء، لو حققت مهمة صغيرة في نظر الناس، واعدّها انتصاراً عظيماً اسبح فيه بحمد ثقتي واشكر الربّ على أن قدرتي ما زالت حية ترزق، وأصاب بإحباط كوْنيّ لو زلّت قدم النجاح عنه! مع كل عمل اباشره، صرت أعيش اختبار جدّي لمدى جدوى قدرتي، وفحص ما إذا كانت في حالة عمل او عطل. صار عندي قلق عندما أزاول ايّ مهمة مهما صغُر شأنها وأخفق فيها. تنْصّب امامي وفرة من العقبات الوهمية تجعل القنوط من إتمامه أمر لا مناص منه. أتفه الاعمال-تحت ضغط التوتر- استدعي لها طاقة فائضة شاذة لا تناسب قيمته حتى أقوم بتجويده. خسرت تلك البرمجة التي تأتي الأفعال بآلية واثقة لا أخشى معها رسوب.

أعود فأقول : ليس عندي عمل استدر به مال يوفر حياة زوجية كريمة رخية لا تجعلنا نعاني الحرمان، لا أريد ان أشعر بالخزي الزوجي

والعار الرجولي، لو قامت زوجتي بالنيابة في القيام بأعمال هي من وظائفي الرجولية حصراً، ولا اريد شفقة مساعدة من اخر ليساهم في تقوية استمرار أمر اسرتي، فتزيد من توحش المرارة داخلي. علاوة على غلبة صمتي، وفتور فورة عاطفتي، وكثرة الانفراد بنفسي، واهمال المشاركة في شؤون البيت، وزحزحة دوري فيه على الهامش؛ يؤدي الى شعور الزوجة بإنها تملك أسم رجل بلا مسمى، وكأنّها غير متزوجة! فينشأ بداخلها فراغ الحرمان الرجولي، وتقارن أزواج صديقتها واقرباءها بي، فتندب حظها على اختياري وتَتْعس، ولربما قد تنحرف نفسها الى رجل اخر قد تتعرف عليه صدفة في مواقع التواصل او في بيئة عمل، فيُشبع اهتمامها ويرْوي عاطفتها، ويلقي بظلال الرجولة عليها، فتُطحن بين مطرقة حبّه، وسندان وجع ضمير الخيانة! إضافة الى أنّي لو انجبت أطفال، فستظللهم سقف أبوّة باهتة ومنطفئة تشعرهم وكأنهم ايتام.

لذلك أتجنب الزواج حتى لا أظلم إمراة واولاد سأنجبهم، وانا غير قادر على توفية حقوقهم، ولكن أنّى للعقول المحيطة بي ان تدرك ذلك؟ وإن كان لا بُد اقتران مع امرأة، فلا يصلح لي إلا نسخة معدّلة من الزواج الشائع أقوم بتجريده من المقوّمات الأساسية فيه، ثم انسخه بشريعة تكون نواميسها وفق نازلة مقاسة على حالي! فمثلا يسيح كل امرئ منا في السكن الذي يستحسنه مقاماً له، حتى لو كان بين السكنيين بُعد المشرقين، فلا يشترط إقامة دار نلتئم فيها إجباراً، أو لا ألزم نفسي بأجراء نفقة ثابتة، فعليها التعويل على مصدر دخل آخر تتفادى فيه شظف العيش وبسط يدها

لتملي حاجاتها، أو مثلاً منع الزفاف وحواشيه المرافقة له، وتقليل مستلزمات تحضير الزواج إلى الكفاف المُقلّ، فقناعتي انها من الترف الذي ابتدعه الناس. وأما المهر عزيز نفيس على قلوب النساء، إلا إن حالة اللاجدّية المحيطة بنسختي المعدّلة، تجعلني استسخف إنفاق الملايين حوله. وأموري العاطفية -من اهتمام أو رعاية أو أن أغْزَل من كلماتي الغَزَل لها-قد عمّتها سنين يوسف المُجْدبة، فلا أعدها بمروج خضراء يستنشق فيها وجدانها ملاحة تأسرها بالمسرّة. ومعاشرتي سيسودها صقيع يتذمر منه القلب إذا جاورها، ولا تتوقع أن أكون سفينة نوح تعصمها من طوفان مصائب يلمّ بها فاهرع اليها بالنجدة، ولا تّظن ان أكون شركة سياحية تطوف بها المتنزهات، ولا هوْدَج تمتطيه وأجوب بها في الأسواق، ولا صراف آلي يأتي لها بما تشتهيه نفسها وتلّذّه..ّ

تلك بنود من شريعة الزواج المعدّل الذي يناسب حالتي المرضية، فمعي تشاكس الأشياء الحلوة وتقرصني بعكسها. فأيّ امرأة ترى سبّورة أحلام الزواج عندي، قد خلت من طبشور وردي يلوّنها، فأنها لن تقبل بي ولو كنت الناجي الأخير من الرجال على وجه الكرة الأرضية، ولا حتى حبّ امرأة لي بقادر على تضحية العبيد المجتثة لذاتها! وإذا قادْتها حَمْية العشق للرضا والقناعة، فأنها سرعان ما تتلاشى وتهلك عند مباشرتها واقعاً. ولن تقبل عائلة من محْتدّ أصيل وشريف أن تقيّض ابنتها الى رجل مخبول، يستعرض مواصفات ومعاملات في الزواج لا يقرّها إلا المجانين! ويختزل المرأة إلى رجل إطفاء حرائقه

الجنسية! ولا يرى أهلي إمراة ترضى بهذه الشروط، إلا مُومْس تبتغي حياة التحرر من أصفاد الزواج، فلقد انتهى عصر الجواري الذي لا يجد حرج في التصديق على شروطي والرضا بها واعتبارها طبيعية! وزواج المتعة القريب إلى هذه البنود يرمقها بعين التحريم المذهب الذي انتمى اليه، لذلك كل قنوات الزواج على طريقتي أغلقت بأغطية من حديد التقاليد المتعارف عليها، واعتبارها هرطقة مستقذرة تستنكفها النفوس الكريمة، ومعهم حق في ذلك.

من الصعوبة السير بخط متوازٍ مع الناس، وما كان في بعضه مستقيم لحالهم، يعتبر معوجاً لي أو العكس. لذا كان الزواج عندي من عجائب المستحيلات السبع عندي، وأصبح كقنوط شروق الشمس من مغربها. لا يجب أن أعاند سنة الحياة في التدرج، فكل خطوة مكلّفة بتأهيل جزء منك لا يستطيع غيرها القيام بها، ولا تكون الخطوة فاعلة إلا إذا أُتمّت ما يسبقها من خطوات بنجاح؛ وإلا خرج الشيء قاصراً لا يؤدّي ما عليه بصورة مؤثرة وصحيحة، وكما أن الطفل لا يستطيع إجراء عمليات الضرب والقسمة إلا بعد يسبقها خطوة تعلم الأرقام وحفظها، فكذا أنا لا أستطيع القفز إلى الزواج إلا بعد انجز خطوة تقوية صلب عود رجولتي والركون الآمن اليها، لا ان أكون حائط من نايلون ظاهره الحماية والستر، حتى إذا أُسند كف زوجتي عليه هوى ارضاً! وشيء آخر يؤازر تغييب الزواج في قبو الهامش عندي ولا يميل اليه كثيراً، فحتى لو كنت معافى فإن بين جوانحي يتردد اعتراض وممانعة سلوك الحياة العادية،

حيث يحيط الأطفال بي ويذرعون المكان امامي ذهابا وإيابا وانظر لهم بحبور، أو يكتنفني حضن امرأة في البيت يكون لي منصة استراحة من تعب الحياة، أو موظف يقبع وراء مكتبه ومسدّد النظر الى أوراقه، أو تاجر منهمك بالمفاوضة مع المتبضعين... لأني لا أجد نفسي إلا أن استوي في قبة سماء العظمة، وتكريس نفسي في ريادة القضايا الكبرى، حتى لا يبقي منى شيء لأهوائي. وحياة أعيش في ثناياها خامل الصيت أفضل عندي من منتصف عادي. وحتى أحيانا إذا شرعت بشيء استهواني، فأكره لنفسي التأرجح بين درجاته الوسطى، واستحسن ان لا أدخل فيه إذا لم ابزّ وأتفوق وأصل منتهى ابداعه! لذا أرى نفسي سامي القدر وضمن كوكبة الافذاذ النجباء الذين لا يشبهون الناس في شيء. أتوقع ان آتي بشيء مستجدّ لا يعهد له الناس نظيراً، ومهيأ لقيادة أمر مهم وجلل سيأتي عما قريب. ليس هو مسّ "جنون العظمة"، فانا أعلم واعيا في دخيلة نفسي إن قدرتي الحالية أقل من القيام بالأعمال العادية، فكيف على انتهاك مألوف الناس والاتيان بما لم يأتِ به الأوائل أو ان أكون ألمعي؟ وانما هي دفاعتي النفسية التي تثير عجاج هذه الأفكار وترسخها بي-رغم عدم واقعيتها- حتى تكون صمام تنفيس لضغط تكتّل الإخفاق والذل، أو قد يكون -بدرجة ثانية- بأن حياتي مذ بلغت وهي تفترق وتباين حياة الناس، فشبّ طبعي على صحبة الاستثنائية، فأفضى بي ذلك إلى الايمان بأني منقطع النظير! ولا أنسى هدف التصوف الذي تشرّب اوصالي والذي يحتاج الى انقطاع عن الزواج والبنين.

لذا نتيجة وضعي هذا كلّه، أصبحت أريد العيش وسط الاغراب. أخرج إلى الشارع فلا يلتفت لي أحد، وإذا ما سلكوا طريقاً تجنبهم وسلكت طريقاً اخر. أن لا التقي بمن يطرح أسئلة يشيع من اجوبتها الفشل والعطالة والركود فتؤلب مشاعر الضعة والتقزم داخلي، ألا احك شعري واخفض عيني الى الأسفل كأن على راسي الطير بسبب الارتباك، هذه الأسئلة تزيل الندّية أمام نظيري السائل فيكون هو الأعلى وأنا الأدنى، فيتضاعف الاشمئزاز والخسّة بي، لا أدري لماذا لا اقطع عليهم الطريق للسؤال واخطف نفسي بسرعة من أمامهم قبل ان يستمكنوا بأسئلتهم؟ أبغض ان يغلفوا فضول معرفتهم لإخباري بالاهتمام الزائف. لا أريد أن أسمع نصائحهم التنموية الساذجة الآمرة لتغيير حياتي، والتي تشعرني بعدم تقدير واستخفاف لوضعي المركبّ التعقيد. من الصعوبة عندي استبدال الابتسامة، بتكشيره نافرة وابداء الوقاحة باعتزال السؤال لشؤوني.

صار مرضي الجسدي مصيبتي الكبرى وقد استهلك كميات واسعة من طاقته، فإذا ما أتت مصائب صغرى جزئية تتداخل مع حياتي؛ استعظم أمرها عندي واشتط في ثقلها، وقد كان جسدي فيما مضى قادر على امتصاص زخم ارتطامها العنيف ولا يحدث فيه تصدّع إلا قليلا، فكانت تأتي عابرة لا تقرّ لتهرس راحة بالي، وكأن المصيبة تدفع روحي من علو شاهق ولا تهوي إلا على فراش واسع ليّن يقيها من الوقوع على صلادة أرض التحطم والتكسّر، وروحي لا تنغلق أمام خرسانة المصيبة

لتمكث عندها فلا تتجاوزها الا بشق الانفس، ولا تقف إلا كما تقف السيارة امام إشارة المرور مؤقتا لتنطلق بعد الضوء الأخضر. اما الان لو غمرتني المصيبة البسيطة فأنها تقتبس حجم أعتى المحن، وتتقلّد عين المجهر فتترعرع الى عملاق ضخم يجثم على كاهلي، وتستنفر بالكلية كامل وجداني وتتغلغل الى عمقه، وتحدث ردات فعل عاصفة تهز كياني، فلم يعد في الوسع متسع لاستيعاب ايّ ضائقة طفيفة، واشعر بانفجار يجلجل داخلي كلما تناهى الى سمعي حدث سيء او حدث مكروه صغير لي. أصبحت كالريشة تقلبّها وتتلاعب بها رياح الكُرب. واتفقت تطلعاتي على أن أفضل شيء تصبوا اليه ألا يحدث جديد سيء! وروتين يعج بالفشل والملل والضياع خير من مستقبل يحبل بسوء ليس بمقدور صبري مجاورته أو تحجيم امره. والحق ان جِلد روحي صار ناعماً لا يتجلّد لمجابهة خشونة مأزق صغير، وما أصعب عالم ينقلب فيه أيسر الأشياء إلى عُسر تقاسيه، وتشعر ان جاذبية الأرض تزايدت حدّتها عن المعتاد فتُعاظم سُمْك ثقل الأشياء. فالنسبية تتحكم بحجم الأشياء، فقطرة الماء تصيب النملة بالغرق والانسان لا يسمع لها همساً او تأثيراً لو سقطت عليه، ومناخي النفسي صار تستملحه أدق البلايا وأصغرها شأنا، فتزدهر أدغالها المضرة بسرعة فوّارة وتحدث ندبات كبيرة، فلا راحة لي إلا باعتزال رياح العالم التي تأتي ببذور كوارث تلقح نفسها بخصوبتي فتنجب ما يرهق امري عسراً.

انبسطت رخاوة الاعصاب إلى درجة أنها تفزعني أحيانا بعدم شعوري بها. فصار ضجيج حركة الأطفال الدؤوب الذي يستأنس به الكبار يصيبني بالتشويش ويهيج أعصابي وأطرده أو أفرّ منه لو تقرّب مني. لو تلاحى اشخاص بلسانهم من حولي اشعر بأنّها نهاية العالم، إنْ علا صياحهم أراها كصيحة اسرافيل يوم ينفخ في الصُور، وإن صفعات وضربات ستنهال عليّ، فتتحفز يدي لا شعوريا لحجب وجهي حتى لا تنالي! اود وقتها أن اصرخ بهم حتى يقلعوا عن الكلام، أو أملك سلطان عليهم فلا يعلوا لهم حديث في حضرتي إلا همهمة خفية غير مسموعة، أو اكون في غرفة عازلة في الصوت فلا أرى الا حركة الشفاه تتلاحم بسرعة مع بعضها البعض! اشعر وقتئذ ان السلام رفع من الأرض ولم يَعد يُعتدّ به، اتلو آيات من الذكر الحكيم حتى تثوب الأمور الى السكون، اكرر داخلي ان الشيطان انتصر ويرقص فرحاً على أنغام المتشاحنين، أن شرايين الناس شُحنت بالعصبية فيتقاتلوا على مثقال حبة من خردل، أن الكل متأهب ليدكّ الاخر دكاً عند أقل سنوح للفرصة ويراهم مكب لنفاياتهم النفسية. أحسد الاصم وحرّاس قناته السمعية المحترفين في دحر ذبذبات الصوت فيخلص له هدوء تام، ليت فم العالم يغلق ويريح سمعي من لغطه المليء بالتباغض الذي يصل لسفك الدم.

استكانت نفسي للهدوء المتطرف العنيف وتضيق ذرعاً من انفلات الناس بالكلام، فأتعقّب الأمكنة التي يصل إليها أقل مقدار من الذبذبات الصوتية، وحيثما كنت فانّي اولّي وجهي شطر مقام الهدوء،

وأشع فرحاً لو علمت ان افراد البيت برمتهم سيخرجون في اصقاع الأرض فأعبّئ نفسي من الهدوء بنهم. أعصابي التالفة ادمنت النهل من السكون ويدركها الهياج لو تناهى اليها الأصوات المتتالية الاعتيادية، وما يعتبر طبيعيا من الأصوات لدى الناس يكون عندي تلوث ضوضائي شبيه بصرير آلات الحفر التي تصمّ الاذان. قد استنفذت جُلّ طاقتي كالمُقبل على النوم والمستفرغ من قوّته والمتطلّع إلى سكون أصوات الحركات، وإذا كان الليل سباتاً للناس فان حياتي تائقة أبدا إلى هذا السبات لا تريد الانفكاك عنه. وأنا طفل كنت استنكر قيام كبار السن بمنعنا من اللعب حولهم أو إصدار أصوات عالية، والان بعد ان دار الزمان وألقى لي ما ألقاه عليهم من الوهن، أصبحت أتفهّم أوامرهم الصارمة والتي لم تكن ناجمة إلا عن حاجة ضخ الهدوء والتمتع باستجمام اجواءه، وكنت اظن ان لهم ما عندنا من العنفوان العارم الذي يجعل اعصابهم تكدّ بمثابرة واحتمال أوسع لا ينتشر فيه الهشاشة الرهيفة، أو يكون عدواً للأصوات الكثيرة، هكذا.. فلم أدرك ما لديهم إلا بعد ان قامت يد الدهر باستنساخ تجربتهم واجباري على تقمصي إياها.

وعندما يعوز البيت طلب أو تنال بعض اشياءه العطب، فان كثيرا من التنازع حول قضاء حاجته وإصلاح تلفه يحدث بين افراده، حينئذ يتّقد بين اضلاعي ميل الى الانزواء الخائف، أو تسوى بي الأرض فأكون أثراً بعد عين لا يُرى، اتفرج عليهم عاجزاً من زاوية تقلص مساحة الأنظار اتجاهي وهم يتخاصمون، فأتسمر كتمثال وتعابير وجهي كأنها

طفل قام بتكسير شيء وينتظر بوجل عقوبة والديه، أو أكمم فمي بكفّي كأني في ورطة كبرى، أو اجعل من اصابعي أسنان مشط تخلل شعري من التوتر، تتبرأ مني ارادتي وتنحل وأصبح جاهزاً لفعل أي شيء بانقياد بلا عناد، وأهفو ان تلين السماحة في صدورهم ولا تحتقن بالتأزم، ولو صدرت عصبية منهم، فان بحيح صفيرها الخشن سيطن بعنف يرتج له هيكل نفسي، وينشط سوء الظن في خيالي، فأرى أطراف الخلاف يلمزوني في داخلهم بالمثل الشهير "خرّاعة خُضرة" وهو مثل يضرب بالفزّاعة التي فقدت تأثيرها المرعب في إخافة الطيور والدواب من اضرار الحقل فصار وجودها كعدمها! او الهمز بالمثل "لا يهش ولا ينش" الذي يشير إلى من نهب التقاعس امره فلا يدفع او ينفع شيئاً! أو يسخرون من هذا الطفل الذي ارتدى مبكراً شوارب ولحية! أو أرى أعينهم تنحني باللائمة عن عزوفي من اسداء خدماتي إليهم وكأني لست من افراد العائلة! أو من إحالة المشاغل قاطبة لهم وانتظاري المستهتر لمشاركة قطف جهودهم ولم ابذل فيه قطرة عناء وكأنهم نادل المطعم يعملون بين يدي...! وتترادف تلك الخيالات المتهمة التي عسى الله ان يصفح عنها، وابتهل ان تجدّ غارة الله مسرعة في حل العقّدة ولا تبطئ في رحيلها، واردد قول النبي لوط وهو يشكو قلّة حيلته "لو أنّ لي بِكُم قوّة أو آوي إلى رُكنٍ شديد". أُلقم طعم المنّة المرير، لو سمعت أحدهم يُحدث جلبة في صوته، ويتحدث عن الاحتشاد الغفير للمسؤوليات على كاهله وتكاسل الاخرين عن تحمّل شيئا منها، فاستشعر أن كلامه مسدد صوبي حصرياً وإنْ تسربل بصيغة عامة. تشتعل الحساسية في وجداني ويمرض

الذوق ويشحب كثيراً في تحسس نكهة الشيء إذا لم ارش عليه شيئا من مجهودي. إعداد الطعام إذا لم اترك فيه بصمة -كتحضير الملاعق مثلا- فإنّ اللقمة المهيئة للابتلاع احسها حجراً وهي تزور بلعومي! أرغب ان أكون في رتل الاطفال مرفوع عنه تكاليف الكبار ولا يُؤاخذ على اهماله لها، أو أكون نطفة منحدرة من سلالة الأغنياء ويصطف عن يميني وشمالي الخدم والحشم. يجمد الدم في عروقي، واتخشب من الحرج وأتمنى ان أكون هباءة تتطاير في خط شعاع الشمس، لو كلّفت بشيء خاص بالبيت ثم جئت به على غير المطلوب! اتذكر كيف ان الرجولة مأثرة تطير بها الركبان في مدحها، إلا عندي قد تصدعت من جراء المرض فنُقض الاعتماد عليها، وأصبحت مثْلبة وفضيحة قد انقلبت وبالاً، وسوءة ارغب بنزع جلدها عني، والنجاة من شقاء لوازم مسؤولياتها.

هذا الضعف الجسدي الذي انيط بي، جعلني اتهرب من تعليق ايّ مسؤولية أو عمل على كاهلي. التعهد بقيام شيء صار يغزو راحة بالي بالتوتر والتشوش، ورأسي يصبح كأنه قِدْر مغليّ من الضغط الكابس عليه. إذا ما بذل الناس الفكر والجهد في عمل شيء معين، فإن الجهد والفكر عندي يتضاعفان فتعزز المشقة داخلي بسبب المرض، كأني احمل فوق كَتفيّ رجل يحْني ظهري فلا يبرح مفارقتي كحلقة كارتون سندباد (الرجل الغريب)، فينبثق وسواس قهري مشكك يحوم حول امكانيتي في إتمامه، أشعر ان العراقيل ستهطل وتدبّ في طريقي لكبحي عن إنجازه، والقلق يقوم بدفع كل جهودي للتوحد وإعدام ما سواه من المشاغل حتى

تحقيقه، فالأولوية القصوى تتجه اليه وإهمال وقت الراحة واللهو تكريسا له، كأنه واجب مقدس لا محيد عنه، ويحول القلق من استطابة وقت الفراغ والتمتع به إذا ما تلكّأت عن إكماله. وإذا كان العمل المسدى إليّ لم آتِ به كاملا والنقص يُداخله، فأنّي أتخيل من عهد لي بالعمل قد تنهّد غاضباً من سوء ادارتي له، فيجيش خاطري بمضض الاستحقار والفشل، وانّي غير مؤهل لتوكيلي بأي شأن يخص الاخر. وايّ فشل في مهمة فان أعين الاخرين تشكك في قدرتي والنظر لي أني طفل بجسد رجل! وكثيراً ما لو حمّلت مسؤولية وانتهي من امرها، يظن الناس أنّي بخير وليس صحيحاً ما ادعيه من المرض، وهذا شيء مما يفتت كبدي كمداً فيجعلني اعاديها وامقتها. الاختلاء الطويل فصل قدراتي عن تنميتها، وبخل التطور ان يُوسع امكانيتها، فإذا ما لاحت التفاتة لإيلاء مسؤولية كبيرة أو متوسطة اتسنمها، فانهم ينظرون لي بعين التشكك في تحقيقها، وينجم في خاطرهم عاقبة الفشل المؤكد، فيسرحوا بأنظارهم بعيدا عني. ولشدّ ما يساورني الذل وانا أرى من هو أصغر مني عمراً، وهو يتبوأ بجسارة القيام بالمهام الجسيمة، فمنطق الحياة أن زيادة العمر يرافقه زيادة الخبرة في قيادة زمام الأمور، أما انا توقف استطراد نمو قدراتي مبكراً وتفاقمت الإعاقة فيها، فلم تعد تستوعب القيام إلا بالأشياء الصغيرة التي تناسب الصِغار! وايّ محاولة عنيدة لترأس مهمة ضخمة، فأني اشعر بخروج الامر عن السيطرة، والتلعثم يستولي على تصرفاتي، وكل جهد لإعادة التماسك والإمساك بناصيته واللحاق للقبض عليه، يبوء بالإخفاق فيكسر الندم عنادي، وأودّ لو ان بيني وبين المهمة امداً بعيداً، وأن اتملص منها

ولو بوسائل قبيحة، وأعرف وقتها حجمي الضئيل الذي تطفل بما لا طاقة له على إتيانه، واذرف الحسرة التي تنصحي ان لا اغتر بتزوير إصرار العناد والحمية الهائجة لواقعي.

وهكذا أصبحت مسيّر وتصنع يد المحيط بي ما لا أستطيع دفعه إلا بشق الانفس، وتجري الاحداث وتمر بي دون ابداء أي بادرة قوّة لصدها، أو لتغيّر شيء من مسارها، أو قبولها عن رضا عزيز وليس عن إكراه خاضع. وقد يفصح عقلي عن رغبة تملّك شيء أو تغيير او حذف أشياء ولكن تبقى حبيسة داخلي، وأنهاك المرض لا يضخ الحيوية لتنشيط الرغبة خارجاً عنها، فاستكانت نفسي الى الهمود وعمدت الى نفي الرغبة وكبتها بدلا من المطالبة بها، فالعجز المرضي يجعلني اناشد شخص لتلبية رغبتي، ولكن انهمار الذلة في حياتي واستحكامها، استنفر بقايا كرامتي في كفكفة بسط يدي ومدها للآخر حتى يملأها بما اريد. فانا أريد منع الذلة من زيادة رقعة رحابتها عن طريق إظهار الاكتفاء النفسي الزائف والاستغناء الدائب، وسلب حالة الامتعاض من مَحيا حياتي ما استطعت إلى ذلك سبيلا. علاوة على أنّ كثرة طلبي من الاخر، يولد بداخله نفور وإنّي عبأ ثقيل عليه، ولربما يصل الامر تمنّي فكاكه مني، ويبدأ بالتهامس سراً أو من وراء ظهري يشكوني الى خلصائه، ونفسي تأبى ركوب أكتاف الاخرين واستغلالها، وقصدها دوما ان تكون خفيفة عليهم. فإما ان اكون ثقيلاً على غيري حتى أخفف احمالي، أو أكون خفيفاً فاحتمل جُهد تلبية رغبتي أو مرارة قمعها، وأنا اخترت الاخيرة. إضافة الى ان عندي

وفرة من المنّة مكبّل بها وأسعى الى تخفيض حمولتها، وهذا الفائض منها جعلني أسيراً تحت المحسن إليّ من حولي، ولا أقتني رصيد من العطاء أقدمه له، حتى أهشّم قيد المنة وأتكافئ معه، لإنّي في وضع مستقبل لتفضّل الاخر، ولا أرسل له بالمقابل إنعامي أو معروفي أو مُنحة مبادلة؛ لذلك لم يعد لي من الامر شيء حتى افرض إرادتي كمنازع لإرادة الاخر، وبثّ ارائي وإشراكها أو اعتراضاتي، أو ردّ ما يريد تنفيذه، او إمضاء أمري فوق امره. هكذا يقضي الوضع ان لا أرى نفسي نداً له، وانما اشبه بالخادم الذي يسمع ويطيع ويحتفظ بآرائه لنفسه. لا أريد ان يستشعر علو صوتي أو إرادتي فوقه، لأنّي أعدّها صفاقة، ودناءة أخلاقية، وجحود لإحسانه، لا اريد ان يصل الوضع إلى جعله عصبيا يذكرنيّ بالمنّة ويسردها عليّ فاشمئز منه ومني.

الرسالة الثالثة عشرة:

سُبّوح قُدوس شهرزاد. ايامي معكِ كزهرة صناعية لا أتحسس منها إلا مقاربة وشيكة لطعم الوردة الغضّة الطبيعية، أو كالفاكهة المُعرّضة لضروب الإنتاج الصناعي، ففقدت رواءها الريّان الترِف. نقص دفين واجتياح شره اليكِ لن تعوضه الحياة الالكترونية، انا لم ابدأ معكِ حياة حقيقية وكل ما سبق وعشته معكِ، تمهيد وافتتاحية تتر مسلسل لم استهل حلقاته للآن. دائما ما اسمع منكِ انّك اخذتي الكفاية معي! وانا لا أرضى بأنصاف الحياة المختلسة من وراء جُدر، فهناك حياة متخيلة لم اعشها معكِ، وعمران من المخططات التي ابتغي ان تلامس تراب الواقع.

جدار سميك أعيشه مع الانثى في الواقع، مذ دبّ لي نفس على هذه الأرض، وأرجوا أن يُحطّم على يدكِ. أريد ان اذهب معكِ إلى شارع المتنبي واكسر لعنة انغلاقي عن الكتاب الورقي وابتاع منه لأول مرة في حياتي وتأثيث مكتبة كاملة. لوحدي ارتاد في مرات المتنزه ذو الحدائق البهيجة، فأرى كل شخص ملتئم الى قريب منه يناغيه بكلام فَكِه، فارتدّ بنظري الى فراغ المصطبة الجالس عليها وهي مغبرّة، فاشتهي وجودكِ الذي يزيح غبار الغربة واتنزه بكِ عن منتجع الخضار حولي. ودائماً ما امشي في الشوارع لوحدي واتلفّت يُمنه ويسره، فتضخ لي مختلف التعقيبات والانطباعات من اعجاب بواجهة محل، أو رائحة زكية صادرة من مطعم، او أشياء منزلية خلّابة في مظهرها، فأتخيل انّكِ بجانبي افضيها لكِ في سريرتي. ولشدّ ما أستيقظ من نومي مكتئباً ارتجي إفراجه

عن قبضان البيت التي سئمت منها، وأتمنى وجودكِ كي نخرج سوياً نجوب العاصمة ونزور حواضرها الانيقة... اشياء كثيرة احتاجها، اتقاعس تعباً عن مباشرتها لوحدي، ولو كنتِ موجودة لقطعت شوطاً كبيراً في تحقيقها والانتشاء بمردودها. سابقاً كنت حريص على قمع جزء شراكة الحياة مع انثى وخدرته في أوعية اللامبالاة، أظهر الغطرسة وتصنّع الاكتفاء الزائف، كلّما رأيتُ مُتحابيْن يرْتعون في أنس ووضاءة الحياة. أعظ نفسي بان هذا الجانب وحدهم الاحياء الطبيعيين القادرون عليه، وامثالي من المرضى النفسيين لديهم قصور قلبي عن بلوغ تلك العلاقات العاطفية. بعد دخولكِ في حياتي فُتك هذا الجرح وكنت اظن سيضمدّ على يدكِ، ولكن علمي انّك كرمضان، وجودكِ أيام معدودات في حياتي زاد من فداحته.

الحقيقة المرّة انّك لستِ لي ولن ابلغ معكِ قيد انملة في الواقع، فراغ كبير خلّفه غيابكِ، وعلّيّ أن ابذل الجهد لردْمه او لردمكِ شخصياً حتى ينتهي، فهل سأنجح بذلك؟ أحيانا تقولين لي ان هناك نسخ مني وستجد خلائف من بعدي، فُقلت حتى لو كان هناك من هو أفضل نسخة منكِ، فلم يعدّ بي طاقة رغبة على الارتباط الجاد. انتِ الذروة الختامية التي تعلمت منها انّ لو حتى حصلت على الانثى المناسبة لي، وظننت فيها الكمال، فإنّ أشياء ناقصة ستبرز منها، وتعيث خراباً بنفسي في غنى عنه.

******

عندما يفتح باب الغرفة من طرف شخص، فسيراني مستلقياً على السرير والوسادة إلى اعلى ورأسي عليها، وبعيون شبه كسلى وثكلى، فكان بحقّ مشهد مريض قد انتهى من عملية جراحية وفي فترة نقاهته! لابتوبي متلاصق فوق بطني أحدق النظر إلى شاشته لساعات طوال، فكنت أعده بمثابة ابن رضيع لي أسهر على خدمته من مسّ الاوساخ وأرعى منظره واكسبه النضارة. إن ضربته بالحائط بغير قصد فأصابته خدشة، شعرت بألم كأنما كشطت جلدتي بشفرة موس، ويغشى وجهي هم مستطير ويرهقه قترة لو تداعى عطب الى جزء فيه، واستحمل بصبر رحب لو صدرت منه أشياء متعبة كحرارة مروحته او ضراوة اشعاعه! مقدسّ سامق عندي لا اسمح لأحد بلمسه والاطلاع على محتوياته، كما لو كان قلادة مرصعة بالجواهر لا تقبل صاحبته أن يطوق في غير جِيدها. ينام فوقي لا أضيق بثقله أو أراه قطعة مباينة عني، وكأنّه وصل امرأة أضاجعها وأنصهر فيها، فينسل منّا شعور الثنائية المفارق. لطالما فكرت لو حدث حريق في البيت، فأيّ الأشياء الأولى التي سأنقذها؟ فكان يأتي الجواب فورا هو لابتوبي؛ لأنه أكثر شيء ارافقه وامسكه ويتدفق معه نشاطي اليومي، هذه القطعة المعدنية من الالمنيوم استطاعت أن تستأثر باهتمامي وانكبابي وانشداهي ما برح الزمان يخلق أيامه. عندما انكمشت عن العالم المحسوس وبردت معه علاقاتي حتى نسيته، وكأن البيت هو اليابسة الوحيدة على الكوكب الأرضي والبقية محيطات ماء، كان لا بد من خلق عالم آخر بما ان الطبيعة البشرية تمقت الفراغ، وبما انّي فشلت في إعداد التصوف لشغل هذا العالم الموازي، فكان أن طرح لي عالم

النت يستغرق كامل يومي، بعد ان كان فيما مضى يستقطع ساعات عدّة منه وتابعاً للواقع وسيداً عليه. وكان اللابتوب الأداة الوسيطة الذي يوصلني به، فكأن النت جسد واللاب روح له يغذيه بالحياة. وبالطبع لم يكن الهاتف هو بوابة الولوج للنت كمثل سائر الناس، لإني اغلقته واستغنيت عنه بعد التخرج مباشرة وأخذه أخ لي. كنت عازماً على قطع كل صلاتي مع شخوص الكلية، وأغلق عنهم آخر ما استجد من حياتي. قدرت سلفاً ان حياتي الواقعية ستدخل في غيبوبة بعد التخرج، فلا يضاف لها شيء ذو قيمة كما سينزل من أشياء لزملائي، وقطعت علاقتي واخباري حتى لا يعرفوا اخفاقي الذريع وتدثري بالبطالة، وسددت آذاني حتى لا أسمع انتقادهم لتقاعسي وأواجه فشلي في تقديم السبب المُقنع لجمود حياتي، وهربت منهم حتى أقفل سرد منجزاتهم وتطورهم بوجهي، فلا تعتريني غصّة الذل من تفاوت الحال. لا أطيق ان يقول لي أحدهم مقدار راتبه الشهري وأنا مازلت أخذ مصروفي من أهلي، أو يحكي عن سيارته ومواصفاتها وربّما أعطالها، وانا لا أستطيع قيادة سيارة حتى الان! لذا كان هذا البتر حماية نفسية اتقي بها مثيرات الواقع وهياجها المؤلم في تحقيقها. قال لي والدي ان عدد من الزملاء سألوا عني وعاتبوني على هذا الانقطاع غير المبرر، ولا أعلم كيف افهمهم ان نذالتي تحجب عني السقم النفسي الذي يحرّكه لقاءهم، وأن لا شيء يجتنيه أحد من صداقتي سوى التفرج البليد عليه! أتلفتهم من حياتي كما فعلت مع ملازم المحاضرات الدراسية عندما وضعتها على سطح البيت، تتقاذفها مختلف الظروف الجوية القاسية، حتى نالها الضمور والذوي، وأذهب

التراب الوسخ وطين الامطار بكثير من حروفها، وعلمت فيما بعد انها رميت في القمامة كجزء من عملية تنظيف السطح، لان وجودها زائد وشكلها قبيح. هي أنفة نفسي الحامية التي مازالت تكافح وتريد انكار ذاكرة تلك الحقبة الدراسية المرهقة، والأفضل عندما أكون بالقاع ويعجزني الخروج منه، فإنّ أفضل ما افعله في هذه الحال، هو ستر وجودي فيه، حتى اموّه على الاخر بأنّي في ارتقاء، أو اجعله حائرا في معرفة موقعي من الحياة، لان رؤية الاخرين لك وانت في انحطاط يزيد من ألم تلبّسك فيه. الموبايل اصبح عصب التواصل الاجتماعي، ومُتعة الترفيه الكبرى وقوام مهم في إتمام المهام اليومية، فكان عدم امتلاكي الموبايل مثار جدل مع عائلتي، شد وجذب اعانيه معهم في سبيل اقناعي أن اقتنيه، حتى لا الطخ بالهمسات التي تعيبني وتضعني في خانة المتحجّر عقلياً، والمتخلف عن مواكبة العصر، والنظر لي بعين الاستغراب الساخر من شخصي. كيف لا اقتني هاتف وحتى المُعدْم صار يملك أحدثها؟ والغلام والطفل لا يستغنون عنه! فالضغوطات تُمارس اتجاهي من اجل إزاحة هذا الشذوذ المُخزي والعودة بي إلى قطيع الناس الذين يملكونه حتى لو كان امتلاكاً ظاهرياً لا استعمله على الاطلاق، فالزبدة أنْ يبصروا يدي تمسكه واصابعي تقلب فيه وأذني تعانق سماعته، حتى اكتب من الذين رضي الناس عنهم! وقد يشتدّ شنّ الحملة ببراهين منطقية بانّهم قد يحتاجوني، أو احتاج إليهم في امر طارئ، فلا بد ان يكون بين يدي موبايل للتواصل! وأحيانا عندما اخرج من البيت لدفع فاتورة النت -مثلا- ويطلب مني رقم هاتفي، فاني اخجل واعطيهم رقم

آخر من معارفي على أنّه لي، او أكون بجانب شخص ويطلب مني اخراج موبايلي لغرض معيّن، فاني أتعلّل بنسيانه في البيت، أو أنه قد تعطل وقيد التصليح! ولا اعلم متى سأستمر في المقاومة والرضوخ في نهاية المطاف.

اخترت الاستغراق في عالم النت الذي قد استمر يومين متتالين اتصفح فيه ولا انام فيهما ولا يقربني ضجر منه، لان انقطاعي عنه -أيّ النت- يعني انتصاب فراغ يدفعني الى القيام بأعمال في البيت لتزجية الوقت مثل غسل فناءه، او القيام بتلميع اثاثه من الغبار، وأستنكف أن أُرى بهذا الحال الذي قد يدفع البعض الى الاستنكار المستفسر كيف يقوم بهذه الاعمال الصغيرة، ويأبى الخروج الى المتاجر والمصانع والشركات للعمل فيها؟ أو يلبسني هيئة انثوية لا تناسبني فتستفحل عندي ازمة الرجولة التي ستنقض عُراها لقيامي بما يخالف مقتضياتها، وأنا بالكاد اقاوم تعطيل رجولتي- والتي صرت اضيق بالأحكام المسلسلة بها. ازمة تجعلني أتمنى ان أكون جنساً ثالثاً، ومحايداً بارداً، غير مشدود إلى مجموعة قيّم يحاكمني المجتمع على أساسها، وأن امرّ من بينهم ولا أسمع حلوق الامر بالرجولة والنهي عن الانوثة تتابعني، وتدقق في مطابقاتي ومخالفتي لها! أن تبتكر علامات وشارات توشم بالشخص حتى إذا ما رآها أحد فيه أوقف جهاز التقييم اتجاهه وتجاهله! فئة ثالثة متوسطة مجازة عن المجتمع ومتغيّراته فلا يقربهم أحد! أن اتخلّى عن هوية الرجولة واعفاء منها فقط وليس غرضي التخنث! لا أريد أن اسمع إذا

فشلت بعمل بيتي يقول لي: كبرت ومازلت لا تعرف القيام به! وهذا ما يجعلني أحيانا أعجب بعنف نيتشه عندما يدعو لتجاوز مفاهيم الخير والشر! فهناك أوضاع استثنائية كثيرة تجعل من صالحك القيام بأعمال شرّ ينْبو عنها الناس حتى تكسب معركة سلامك النفسي معهم. تضخم الجسد سنة بعد أخرى يجعلني مطالباً بعمل المزيد، ومُداناً يجب ان ارفع عني تهمة التراخي الرجولي، فصرت أكره لذلك عيد ميلادي الذي أصبح موعده تنبيه سنوي بالخيبات، وأحاول أن اخفيه عن الأنظار حتى لا اتلقى التهاني التي تهرس قالوني بالوجع، وإخطاري كأنهم يحتفلون ساخرين بفشلي! ولكم تمنيت ان يكون تاريخه مجهول لم يدمغ في سجلات الحكومة، حتى أستطيع التلاعب به فيما لو سألت عنه. لا أدري كيف أوقف تمدد جسدي الذي يفضح تقدم عمري؟ وأحمد الربّ أن هيكل جسمي به نعومة غير عملاقة، ويُساهم في تقليص وهمي لعدّاده المتصاعد. هناك توقيتات عمرية من صناعة المجتمع إن لم تفعل بها أشياء معيّنة، فان الالسن تسّن سِكينها استعداداً للفتك بك، أتخيل ارقام العمر مثل 26 أو 30 سنة هي عناوين لغرف تعذيب نفسية من قبل المجتمع عندما تدخل فيها. القطيع ماء حميم يقطّع امعاءك ان اقتطعت نفسك منه، ولا يرى صلاح امرك إلا الهجوع في مقره.

كذلك فان ابتعادي عن النت قد يضطرني الى الخروج للبيت قليلا لغرض التنفيس عن ضِيقه، فاقع صريع لقاء بعض المعارف. وصار عندي أن مخالطة الناس يدّ تنزع عني اللباس الذي يستر عورة ضعفي،

والاقتراب منهم يعرض تفاصيلي الهزيلة إلى ان تكون كتاب مفتوح، فيقرئون ما أكرس له جهدي لإخفائه عنهم، ولا أقدر على انهاء معترك الصراع بين ذلّتي وكرامتي واجراء تسوية بينهما، ونفسي تنكب مع الكرامة سوياً في تحالف وطيد في إسدال البرقع على الذلة، حتى لا يكون لها موقعاً يراه الناظر لها، والنفس السوية حريصة على كتم ما يُشينِها أمام الملأ، وشموخها يعْدل بها إلى الاعتزال حتى لا تستمطر نظرات الشفقة. لا أملك من يقين الايمان العازف عن الحياة حتى لا أقيم لاعتبارات الناس وزناً وأمرّرها مرور الكرام. واخفقت في برمجة عقلي على تحييدها جانباً، والعمل بفردية مفرطة وفق معايير تذوب معها الاخذ بنظرة الناس فيما ادع او اترك، فمن الصعوبة ان أكون غصناً مفصولا عن شجرة العقل الجمعي لهم، ولا أملك موهبة استثنائية ترمي بعباءتها على ذلتي وتزيحها من الواجهة، وتعرج بي الى الدرجات العلا، وتعوّض كل خساراتي وفقداني لألق الشباب. أحيانا أقول ليتني انحدر من الطبقات الفقيرة في قاع المجتمع والذين اعتادوا حياة المَسْكنة، والذين اغتيل لفظ الذلة من اذهانهم، نتيجة حادث الاصطدام بعيشة البهائم الخسيسة، ولكن يدحض ذلك أن المرض والفقر لو اجتمعا معاً؛ فان الهلاك سيعجل بحتفي سريعاً. لست متحدثاً بارعاً لبقاً يستطيع الاحتيال بلطف على الطرف الاخر، ويوحي له بانطباع الثقة المكينة والتجذر في الثبات، ويعمي عن عينه مظاهر الضعف، لذلك أريد حرمان الذل بداخلي من شفقة الناس إذا تفرجوا عليه. لا يصلح لي التنكّر بالقوّة أو تضليل حالي الضعيف إلا بالبعد عنهم. أتهرب من اللقاء معهم حتى لا أُستجوب بالأسئلة، او أُكلف

من قِبلهم بعمل، او أبدي سلوكيات تفصح عن ضحالتي، والفشل يبسط بجناحيه على حياتي، وأريد حجب اعينهم عنه بالاختفاء، وشبحه سيتقدمني بارزاً ولست إخصاّئي لطلائه عنهم. من بلغ عمري وليس له قسط من النجاحات الأساسية التي ينالها اغلب الشباب، فعندئذ لا يستطيع ان يخالط الناس وهامته مرفوعة، ليس عندي من الإنجازات التي تملأ نفسي ثقة بمقارعة الناس وجهاً لوجه، لا أريد ان أُسئل في كل مرّة وليس عندي نجاح اتباهى به، ولا أستسيغ استمراء مرارة اجابة الفشل المكررة، واتنزه عن الكذب في افتراء إجابات لامعة تنقذني من لفح هزائمي في الحياة. لا أملك تصالح مع ذاتي يسكب التصلب والتجلّد في مجابهة الناس، ويعزل افراز هرمون النقص من بلبلة ثقتي وتوريث مشاعر الذلة، إذا لم احز القبول لدى نفسي والرضا عنها فلا أقدر على تقبّل الناس على الاطلاق. كذلك فان كثرة مرابطتي للبيت ولزوم التوحد خلقت تأفف من ازدحام الناس حولي، ومنافستي المساحة التي أعيش بها، وما رأيت موضعاً فيه ناس أو دخلوا مكان منفردا به، إلا انسللت من بين أيديهم الى حيث لا أحد. اشعر بضياع ذاتي وامكانياتي تتصدأ لو تغلغلت في زمر الناس، كذرة رمل لا يعْبأ ولا يُنتبه لوجودها لتماثل لونها وحجمها مع الملايين من اشباهها! ولا يُرجع شتات نفسي ويلتئم إلا بالتنحي عنهم، فاستشعر تضخم قيمة ذاتي عند انعكاسها امام نفسها. أمقت مشاركة عيونهم وتلصّصها لِما افعل، وأوصد خلف تتبّعها الأبواب، ولا ينفعل لي نشاط أو أستمتع بعمل إلا بغيابهم، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني بحضورهم، لا أريد أن يتقصّوا شيء من اخباري وينفرج لي باطنهم

ليغترفوا ما يشاءون، أو مداولة شأني وجعله عرضة للمذاكرة وفاكهة لمجلسهم. وإذا رأيت محاولة منهم لتوجيه بوصلة الكلام اتجاهي أتفف، وأقوم بصرفها عني بالسكوت المُبتسم، او إنزال الايجاز في الإجابة التي تشير من طرف خفي لعدم رغبتي بالإسهاب. كل ما عندي يريد الاعتصام بقلعة الخصوصية وصدّ كل من يحاول تسوّرها واختراقها، وحتى ما يعتبر عام للمشاركة قد دفنت رأس نفسها كالنعامة في تربة الخصوصية لا يبصرها شخص. الخفاء ما يذر على شيء من مساحة العلن إلا ونكّس رايتها واحتلّها. لو رأيت عيّنة من العيون تنظر لي، أشعر كأني على شاشة بث مباشر عالمية قد جذبت كل انتباه الناس لها فَجُلّ اخباري وآثاري اضعها تحت لافتة عنوانها سرية للغاية، وإذا ما افشيت كثيراً منها، فان الاطمئنان يتعذر عليه مواجهة اضطرام القلق بداخلي، وكأنها أعلنت اسرار تهدد الامن القومي لي! تستحي أشيائي ويعتريها العراء المخجل لو علمها أحد، استشعر إباء اسراري وأنفتها من جعلها مُلكا مشاعاً تلوكه افواه الناس بسهولة، وإذا ابتغى شخص ان يغترف بكفّه حفنة من اكوام اسراري، فإن طُرقاً وعرة وعقبة كؤود ستصادفه وينحسر حسيراً ولم يظفر بشيء منها، أرى أن شؤوني كعزة الذهب المندسّ بين ذرات الجبال، ومن يريد نيلها عليه ان يتحمل مشاق حفر المناجم العويصة والفوز بغنيمتها. كما إنّ أكثر الناس ليسوا بارعين في الاستماع والوعي بكل كلمة اقولها، ولا يقدرونها حقّ قدرها بالانتباه الكامل، ولا يضحي بنفسه ليفسح المجال لأتكلم عن نفسي بإسهاب، ولا يكبح غريزة الكلام عن ذاته ويُسدي للاستماع الأولوية، وما إن تتكلم عن نفسك قليلاً،

حتى يُقاطعك ويقصّ أنباء ما تعرض له ويغوص في شذرات حياته، وينسى ما كنت أتكلم به أو يستفسر عنه، ويطارحني التبادل فيه كأنه كان متعطش ليأتي دوره! لذا لا اريد تمريغ اخباري واسراري في تراب الهامش وظل الحاشية، ومع من لا يحرّك وجدانه معها وينصهر في ثناياها، فالأنانية شدّت عضدها مع الكلام وداست بحوافرها على الاستماع، فاغلق على بوابة اسراري حتى لا تذل بعدم الاكتراث لها، ولكن أحيانا التمس العذر لهم وأرى أنّه من القصور البشري الذي لا يستطيع استنفار الادراك، ومد قرون استشعاره لتحسس تفاصيل ميدان الاخر، وإنّ سيادة الكلام هي الغالبة على عموم الناس، لان الاستماع بمثابة الصمت الذي من الصعب عليهم إجادته، وإنّ احتكار مقاليد الكلام واستعراض ما عندهم نابعة من حاجة إلى طرف آخر يكون دائما وعاء يكبّ فيه ما يتلجلج في صدره. وهناك قلّة من الذين لم يُعمي الإسراف في الفضفضة لديهم عن الالحاح في رؤية ما عندي، فارشقهم بحديث من الدرجة الثانية يتناول قضايا عامة ينفي ما أستطاع سبْر ذاتي، او الأشياء التي اتهرب من ذكرها، وكثيرا ما أعمد إلى توزيع حديثي-وخصوصا ما يتعلق بمحفظة ذاتي- فاستخلص لكل شخص بقطعة معه ولا اركزه في بقعه واحدة، لإني اريد ان تبقى حقيقتي كقطع الزجاج المكسرة لا يستأثر بها أحد. ومازال هناك عقبة في صدري تصدّ كل من يتصدى لاقتلاع القضايا الحساسة وفك شفرة غموضي، او اتخاذي الهيئة الحالية الشاذة والغريبة أو سرد معاناتي وعواطفي، أو تفاصيل حياتي اليومية الواقعية، أو علاقاتي المتعددة... ونحو ذلك من الالغاز المستعصية على معرفتها.

كما ان اللقاء المتكرر مع المعارف يؤدي إلى انشاء حقوق أبرزها ضيافتهم أو زيارتهم! وأنا ليس عندي رحابة أهش بها لها للضيوف وأحملهم فوق كتفي، نضُبْت عندي سعة الصدر للقيام على خدمتهم وطول الإقامة لمجالستهم، وليس عندي إلا الصمت استقبلهم به، وهو شيء سيبعث السآمة في نفوسهم، وسيفسّر على أنّه تبرّم بهم، وسيعدّوه من المثالب غير اللائقة، ورسالة صامتة مني مفادها ان لا تأتوا تارة أخرى! كيف أقنعهم ان الزيارة وصلة الرحم عندي قد توفاها عزرائيل الوحدة والمرض؟ وأن التواصل سجّل نفسه في قائمة السلوكيات المندثرة عندي، وقد ضم إلى متحف الأشياء الاثرية التي أحن إلى رجوعها؟ ولا حتى أنا بارع في اتيكيت الضيافة والزيارة وقواعدها، وسأغفل أو اضيف أشياء فيها تثير غرابتهم والسخرية في سريرته، والمجاملة عندي قصيرة الأمد، وسرعان ما يحتدم التنرفز داخلي، وتتجلى بوادر ذلك من التنقل من طقطقة اصابعي، أو بسط وقبض كفي، أو كنس وجهي بين يدي وكأني امسح العرق عنه، أو كثرة الالتفات، أو تبديل وضعية الاستلقاء، أو حك شعري ولحيتي... وغيرها من العلامات الجسدية. وإذا ما خلوْت للحظات مع نفسي اعوض كبتي الانفجاري بدوامة من السبّ الذي لا يتورع من التقاط أي كلمه من قاموسه، أو اركل أشياء انتزع منها قليلا من الاحتقان المتوقد بي! لا أريد سماع سؤالهم السرمدي المعاتب لماذا لا تزورنا؟ وأنا لا أريد أن اذهب واضطر لفض بريد الاسرار المعبأ بأخباري الذي لا أستسيغ إشراكه معكم، ولا أرغب بانتشارها وقد علمت ان مستودع صدورهم يعاني من الثقوب التي

تتسرب منها الاسرار بسهولة، وأذني لا تستحلي سماع سلسلة الأسئلة الكريهة التي لا أفتأ اشحن بها لو صادفتهم في لقاء نادر، ومع ان الإجابة الحقيقية عنها هي أنى لا أستطيع او لا أقدر، ولكن المارد الجبار للطاقة الإيجابية داخلهم لا يقتنع بذلك ويهزأ بها، ويشرع باستعراض طائفة من المقولات التحفيزية التي يظنون أنّي لو أخذت بها، فإن حياتي ستتلألأ ويتورد وجهها الشاحب، ولو دققوا في ايماءة زاوية فمي اليمنى لعلموا اني أعض شفتي السفلى تغيُّظا من كلامهم، واشعر لا إراديا أن جسدي كأنه مستلقي على كرسي من مسامير ويريد الوقوف والانسحاب فوراً من مجلسهم، وأحيانا تنفرج ابتسامة ساخرة عندما أعيرهم اسماعي، وما دروا أني خُضتْ بحار كتب التنمية البشرية، وجمع دماغي فأوعى كل سبل تحسين الذات وتطويرها وتغييرها الى درجات أبعد في سلّم الكمال، وهم ما بلغوا معشار ما حفظت وفقهت منها، ومهيّأ لألقي محاضرة يعترفوا لي فيها بالأستاذية، بيد أني أنصت لهم وكأني لم اتلقى معلومة منها في حياتي قط، والحياء الأخلاقي يلطم الوقاحة التي تأمرني بزجرهم أو الاستخفاف من كلامهم، ولكن النهي لا يشمل باطني ويفسح له بحرية السخرية من حديثهم الذي لا أرى مفعوله يشمل حياتهم التي يرفعون للناس التشكي والاستياء منها، أو لا أرى لغة جسدهم تنضح بإلهام يبهرني وهم يطوّحون بخطابهم لي. انتظر بلهفة يد القدر ان تنتشلني مما فيه، إلى حال تنتهي فيها دواعي هذه الأسئلة الى الابد، فكان من الصعوبة الزيارة لهم أو زيارتهم، وهذه أحد الأسباب الذي جعلني اقطع الصلة بزملاء الكلية او بناء علاقات واقعية.

إذن انتخب وقتي خيار النت لإجراء معاملات يومي. البعض كان يستغرب كيف ان شاشة صغيرة استطاعت ان تغرسني امامها منتصباً في تحديق لا يزيغ عنها ذات اليمين والشمال، إلى درجة ان قال لي أحدهم: كأنّي أعبد صنماً وثنياً معتكف في معبده، واني أحد سدنته القائمين على خدمته. فما الذي دحرج هوى نفسي للوقوع في كلاليب شَركه؟ العالم الافتراضي كالواقع رأس ماله البشر، ومن أخصّ خصائصه هو توفير البيئة لإبراز مقتنيات الذات، والتعبير عما يجول في خواطرها بلا علّة فوقية تقيّدك، وحجب نفسك وإخفاء هويتك، فلا يلتقطك فرد من معارفك. وحالتي كانت في اختناق فكري وخم صامت لا يجد في الواقع القناة التي يثرثر فيها حتى الغريبة والشاذة منها، وشخصيتي معبّئة في كيس ومشدود عليها لا تَرى ولا تُرى، فنشأ بها شغف للظهور المُحتجب، والنت ساعدني في سفح كثير من افكاري وأهوائي المباحة والمحضورة والمكروهة والعجيبة والتي اخجل منها، فلا اخشى لوائح مثبطة تجعلني اتردد في بوحها، وهيأ لي نوعاً من "الظهور الإلهي" الذي يحجب الذات وهويتها عن النظر، ويبيح لي بيان آثارها كما أشاء، فشرعت اتحرك وانتقل وأتفاعل وأنا ساكن في مكاني، كأنّ يدي ورجلي وعيوني وكافة حواسي، في جلبة حركة وصخب وتعرق، أنّي لم انقطع عن العالم أساسا، وإنّما دخلته من منفذ آخر عصري اصبح يُنافس المنفذ الواقعي. الكتابة هي الحجر الأساس الذي تتجلى ذاتي من خلالها، فاستطيع الانتقاء من سوبر ماركت الشخصيات ما أريد وصياغتها وفقها, فالتفاعل الكتابي اصبح ماهية ذاتي "انا اكتب إذن انا موجود"، مخلوق لغوي، انا معدوم وتأتي

الكتابة وتستوطنني وتسكّ صلصال ظهوري، فوجودي وعدمه صار معلق بإرادة الكتابة والامساك عنها، احتكرت ممر خروج اشيائي فلا إجلاء لها صوب العالم إلا بإشارة من يده، لساني البديل الذي تنصاع له الحروف بلا تلكأ، وبها شققت طريقي بين الناس ازاحم انفاسهم والاحي السنتهم واصارع كبيرهم فلا رهبة تعتريني من أحد، اعتبار ذاتي المسحوق بالواقع قد فار وانفجر وتمرد بسخونة، فترمّم شموخي وتهللت كرامتي وصرت اتحسس اني شخص مُشخّص ملموس له مكانة ينظر لها بجدارة، الكتابة هي رأس مالي وبضاعتي التي زادت من تصبّري على الحياة والمضي فيها.

فشرعت بنهم اطوّر وأبني لَبنات برج ثقافتي وإعلاءه قدْر ما أمكن، وإيصالها الى مستوى النخبة كي أتمكّن من الكتابة المتألقة، وأملك ناصية سحر البيان فيرتدّ على شخصيتي بالجاذبية التي يُسمع لها إذا ما حضرت، ويبزّ وجودها إذا غَشيَ لفيف من الناس. فاقتطعت من وقتي عدّة ساعات اقرأ بها الكتب الالكترونية وأمرّغ عقلي في كل فن منها، فشيّدت منها حصيلة فكرية ولغوية أشاد بها الاخرين بانبهار، وساهمت القراءة في استعمار مساحات كبيرة من عقدة النقص التي استفحلت واشعرتني بهوة هائلة اتجاه الناس. وصحيح انها بقيت تُؤتي أُكلها شعوريا في شخصيتي، إلا انّه عقليا قلّ انبهاري بعظماء وافذاذ يتخذهم الناس سلاطين على عقولهم وارواحهم، فلا اشعر باستصغار المتعجب المتلذذ بعظيم شخصياتهم. القراءة ابرزت لون آخر من الغربة في حياتي وتعميق

الشرخ مع الناس، لاستقلال عقلي بعميق الأفكار التي لا تتناسب معهم، حتى انه صار من العادة ان اسمع كلمة "لا تتفلسف"، واضطر مُكرهاً أحياناً إلى التنازل والانخراط في بساطة اسلوبهم، فاشعر بضياعي واستنكاف أبيّ كأني دخلت منطقة وضيعة! ولكن للثقافة جفاف وجدّية مرهقة قد تضيق بها النفس ذرعاً، فاهرب منها بلغو القول والتفاهة والسخافة والأفكار البدائية، فاخلع رداء الثقافة مؤقتاً حتى اشيع النداوة والطراوة فيها. ولما آلت لذة الروح إلى التقلّص وما بقي منها إلا رذاذ خفيف، وازدادت مِحنة الجسد فانتهب معها مزيد من اللذات، فإنّ غطاء بيضة العقل قد تحطّمت وفقس منها مُتع فكرية ضخمة، فتصدرت لذة العقل بقية لذاتي في الحياة. هذا الكنز الثقافي الذي أعبّ منه قد تأثر به لساني اللحمي، فصار يستطيب الكلام بالفصحى التي قوضت من شرارة اللهجة العامية، وغيّب الكثير من مفرداتها عندي، فكدت أفقد تلقائية الحديث بها، وتضخم غزارة الفاظ اللغة العربية في مقابل انكفاء اللهجة. جعل من الأفكار تنحو إلى استخدام المعجم العربي في البوح عن نفسها، وتراها الجديرة والكفوءة في احتواء أي فكرة لا تستطيع محدودية اللهجة وتراجعها في تلبية كسوتها بالكلمات كما تشاء. وإذا تبنّت افكاري التبضّع في سوق الفصحى، فإن عادة المجتمع التندر والسخرية للمتكلمين بها، فاخجل والوذ بالصمت واجتاز بذلك ألسنة المتنمرين، لذا أعض شفتي السفلى ندما عندماً أرى أفكاراً كثيرة أود طرحها، وأزيد بها من وجاهة شخصيتي في بيئتي، وأستعيد بها فعالية لساني واستردّه قليلا من استرقاق الصمت، واسترجاع رشْحة من التواصل مع العالم الخارجي؛ فأجد ان

الفصحى لا مكان لها في الوعي الجمعي للناس كوسيلة للتعبير الصوتي فيرتد اللسان حسيراً، فبقيت ثقافتي منحصرة في النت.

لا أستطيع بالطبع البوح والتبجح بثقافتي وقراءتي أمام معارفي، لان آلة نقلها غير صالحة للاستعمال، فأكون بذلك مدعياً ولا أقدر على تقديم الدليل عليها فأقع في تهمة الكذب. فمن كان مثقفاً لا بد أن يُستشار ويقدّم في الرأي، ويستمْلح كلامه ويفرض نفسه على الكل، وتلك أشياء قد خلوت منها، فآثرت الكتمان كي ادرأ التناقض بين تحصيلي الثقافي وعُسر ابراز آثارها في الواقع. ولا اقوى على الحركة للبحث عن النوادي والتجمعات الثقافية فيه. لا أعلم لماذا كل الطرق المؤدية الى روما التواصل مغلقة؟ ومن أبرز منافع الثقافة هو قدرتها على خلق مساحات ومنافذ جديدة امام أبواب مغلقة نحسبها بلا مفاتيح، ولكن عندي بقية معطّلة الفعالية على ارض الواقع، وفشلت في خلق أذرع التغيير وتحسين وضعي، وذلك حالي تكدست بالمفاهيم والمعلومات والتي اعتبرها مواد أولية وعدّة أدوات، فلم أستطع منها بناء شيء مفيد في واقعي من هذه الخامات. أقدر ان اشرح نظرية المُثل الفلسفية لأفلاطون ولكن متفرج ابله أمام تحطّم حنفية الماء لا أقدر على إيقاف جريانها الذي يغرق أرضية البيت! أو أقدر ان استوعب نظرية رأس المال لماركس ولا أستطيع لو دخلت متجر ملابس أن اشتري قطعة مناسبة، لجهلي بمقاسات جسدي وأنواع الماركات! وربّما لن يسعفني قراءتي لكتاب "الامير" او كتاب "قواعد السطوة" في حمايتي من غش البائع الذي قد يستغل بلادتي ويرفع

ثمن القطعة بشطط! ألا أعد نفسي هاربا من وجه الناس، فلماذا لم ينفعني كتاب "فن اللامبالاة" في التصدي لهم؟ ألم اقرا كتاب "مغالطات منطقية" وكتاب "تكوين المفكر" وهضمت كثيرا من منطق ارسطو الذي يعصم الذهن من الخطأ من خلال كتاب" ضوابط المعرفة واصول الاستدلال والمناظرة"، فلماذا تعتبرني عائلتي غشيماً وساذجاً غير مؤهل في تسليمي زمام أشياء عظمى، ولهم الحق في كلامهم هذا؟ ألم أقرا كتاب "فن العيش الحكيم" فلماذا حياتي ضائعة لا تستقيم على جادة الاستقرار...؟ هذا غيض من فيض على ثقافتي الباردة التي لم تكسبني مهارات الحياة المعقدة. كنت اشعر بتفوقي الفكري الجسيم، وعُلوِّ على من القائهم، ولكن لم يفتح غطاء قنينة عقلي ويسكب في افواه العقول ويُذهلوا من فحواه الفاخر. هذا الجانب المظلم هو سبب رئيس في إخفاء كوني عضو ضمن فيلق "القارئين"، فالتعلّم إذا لم يعصر زبدة تدابير للشخص ينفع بها حياته العملية، فانه يصبح كمثل الحمار يحمل أسفارا! وهبّ أني استطعت نفسيا أن اسرد للناس القائمة السنوية لمجموعة الكتب التي قرأتها، فهل هناك أحد سيحفل بهذا ويراه انجاز عظيم يعادل شراء سيارة، أو فتح حساب مصرفي وايداع الأموال الطائلة فيه؟ قطعاً سيتم تحقير هذا الإنجاز واطراءه بشكل عابر كما يفعل مع طفل أنهى واجبه المدرسي، ولكن سيتم التعامل معه بفخامة إن أدت القراءة إلى الارتقاء في وظيفة او مردود مالي او شهرة نافعة مثل كاتب صحفي او مؤلف كتب. جانب رئيس من إخفاء كوني قارئ حتى احتفظ بمتعة الإنجاز وعزته في نظري، ولا يأتي رأي الآخرين ليسلبني لذته، ويبتذلوا من أمره بالتقليل من شأنه،

والوسواس كعادته متعطش الى سبيّ المناطق السالمة ودحرها فخلق وسواس الإنجاز، فأيّ شيء اتقنه أو نجاح بسيط أحرزه، فان الوسواس يشمر عن ساعديْه وقسري الى كتمه، لأن في اظهاره مسؤولية قد يدفع الاخرين الى حاجة اليه، فاقع في ارباك عدم اتمامه لهم، نتيجة انهاكي الذي يفقدني التركيز والسرعة في إكماله ، وأقع في الادعاء بما ليس لي، ولكن لإنها-أي القراءة- لديّ عصب الكتابة على النت، فاني سخرت جهدي لأجل القراءة، وادخل في خصومات واسعة لو كلفني أحد بمهمة بدنية ورفضتها؛ لان طاقة جسمي محدودة، وبعثرتها في طلبات مثل جلب معجون طماطم تحت حر شمس قائض يؤدي الى استهلاكها بسرعة، فأقعد امام الكتاب فاقد التركيز لا استطيع مجاوزة صفحة، لأن قطب وقود قيمتي هو قراءة الكتاب وبدونها أرى نفسي هباءا منثورا، فاعمد إلى صدّ كل ما يبعدني عنها.

علاوة على ان اقتحام القراءة والسفر في عالم الأفكار الكبرى والكلّيات المجردة، وأدراك مفاتيح الفهم ومقدمات العلوم، والسياحة في تاريخ الأمم والملوك وقيام الدول ودمارها، واجتياح عوالم النفس والمجتمعات التي تقدمها الرواية...، تولّد اعتداد وترفّع متغطرس عن إتيان اعمال البيت مثل الاهتمام بأصيص نبات أو كنس السجادة ورؤيتها بازدراء واستخفاف. لا أنكر إن إصابتي بهذا الداء المختال الذي انضاف مع تكوّم الذل بداخلي واستطالة جمود الوضع المزري، والعزلة وما سببته من انتفاش ذاتي، وحب الاعتصام بالبرج العاجي النفيس وفرادته، والتنزه

عن الهبوط الى عالم الناس والتلوث بأشيائهم العادية، والخوف على بقايا فرديتي من الطمس، والتي طحن وتناثر كثير منها تحت رحى ضعف الشخصية وإذعاني للمرض؛ أقول: كلها أشياء اجتمعت وشحنت صدري بغليان الثورة العارمة على كل شيء، وعلى أهبة الاستعداد جيشان من التمرد تمور امواجه بين جنبي. اشمئز لو عرض لي موقف يقحمني في نطاق المرؤوسين، جمر ادوس عليه لو طلب مني أحد ان اعمل تحت إمرته، غثيان يشاطر نفسي لو نصب أحدهم نفسه مرشداً وموجهاً لي، وتطرف عندي مقت الانتماء لجماعة او فِرقة، واشعر بالترفع لو دعاني أحد للانضواء إلى عُصبته أو مجموعته، لم أعد اطيق إلا أن أكون سيداً لنفسي وألا أنتمي! الانتماء يشعرني باني جزء من شيء ولا اريد إلا أن أكون كل شيء لا يشاركني أحد. تجتاح نفسي انفة من الاندماج إذا ما تخندق الناس حول شيء، او التأسي على منوال طريق يسلكونه. تتعالى على الاقتران ضمن الأشياء الغزيرة حتى لا تكاد تُعدّ، وتتعزز ان تكون قطرة مطر تنهمر مع اخواتها التوائم التي لا تحصى فتتوارى ذاتها في زحمتهم ولا ترى. تريد ان تكون كالرقم الواحد الذي تتوالد وتتناسخ منه الأرقام اللانهائية ولا ينبجس من رقم ابداً، أن أكون كالكبريت الأحمر الذي عزّ وجوده لا ضمن معروض قد استفاض عدده ورخص ثمنه. وقد يتجاسر شرر هذه الانفة وأنكر امتلاكي شيء لو سألت عن حيازتي له، وذلك حتى لا أسجل في دفتر ممتلكيه فأكون واحد منهم، إلا أنّي أفرمل هذا الإقدام المنافي للأخلاق! وقد تمتد هذه الحالة الشاذة إلى عالم الخيال ومخالفة سنن الكون، فأروم الولادة من غير ابوين، أو البس الخشن من

الصوف في الصيف، أو امشي على الماء. وصار عندي انجراف مرعب اعمى قد يطال الاصفاد المحمودة التي تضبط حياة الفرد! وإذا رأيت عزيزاً في قومه أو شخص مرموق المنزلة، يتكبّر داخلي عليه وأسلمه دبري تجاهلاً له، وأوّد لو أطأطأ كبرياءه وأنال منه، او امتلك هالة فارعة تحذف ضياء ابهّته ويعترف أنّي الأعلى. قوة تحطيمية لكل من يتعجرف بجاهه وسلطانه وماله على عباد الربّ. الأشياء تعرف بأضدادها، وعلية القوم هؤلاء يتسلط منهم شعاع واسع يفضح ذلتي على نحو فاقع وصارخ، وليس حسداً من عند نفسي على حيازتهم على ما أفقده، وأعلم بقرارة نفسي أن مسلكي هذا ذميم. تضخمت ثآليل الغطرسة بداخلي وعلى فوهة البركان ترتجي الانطلاق، ولكن كان لهذه الانفة المتعجرفة التي ولدتها تلك الأسباب جانبها المشرق والمتطرف أيضا، والذي يريد غرسها بالأخرين والتساوي معهم بها، فبداخلي جبروت قد انفلت من قمقمه يريد الثأر على كل القيود التي سامته سوء المسكنة، وكل قيد أدمى وأنهك الناس، يتمنى لو امتلك عصا السلطان فيسوق الناس إلى شيوعية بدائية القبائل تقلصّ كل ما من شأنه أن يزيد سلطان الناس بعضهم على بعض. إباء بداخلي لا يرى نفسه إلا ثائر في ساحات تكتظ بمجموع المنتفضين على الظالمين المستبدين، ولو رأيت مشهداً للجماهير الغفيرة الثائرة فاني اشعر بأنها ناقصة بغيابي عنها، واشتهي التواجد في صدارة واجهتها، وتعلق أديمي بغبارها وأوضارها، والعيش في عنفها وصخبها ودوي شعاراتها. اتوحش على داعمي الطغاة وارشقهم بقسط واسع من نقدي إلى دركات الهجاء والذم والتنديد بهم والحضّ على اجتثاثهم، ولا يهدأ لي بال

حتى يشنق اخر واحد منهم بأمعائه، وأعشق احتقار كل من يساند من بغى وتجبّر ويهلهل لما يفعله أو يبرر جرائمه، وأتمنى لو أن كل مستضعف يُمكّن على سيّده الجائر فيرد له عذابه ضعفين. اشعر أن صدري مصب تتجمع فيه روافد كل إذلال يحيف بأحد، واتحسس بحساسية مفرطة ناقمة كل من يهين شخص أو ينتقص من قدره بغير حق، وأبغض عصور الملكيات والديكتاتوريات المطلقة والاقطاعيات والبرجوازيين والنبلاء والرأسماليين الجشعين وتجار العبيد والجواري وذكوريات الرجل المستبدة على المرأة... وكل طبقة قد تعارف الناس على وضاعتها في استرقاق الناس وهدر حقوقها. بين أضلعي ثورة ارغب ان اضخها لكل من استكان وفقد مقاومته، فاستنهضه من كومة الرضوخ.

أتخيّل لو أنّ الكتب لم تدسّ انفها في عقلي، ولا انجرفت ولا اكتسبت خبرات الحياة ومواكبتها من عالم النت؛ فعندئذ سينكمش مخّي وتتراجع قدراته الى طفولية ساذجة، لا تجيد بإحكام الربط بين الأمور، وانفصل عن مجريات الاحداث، ولا اعرف -مثلا- اسم الشخص الذي يحكم بوطني، واعيش حياة الخدم البسيطة التي اقصى اهتمامها تنفيذ أشياء صغيرة، مثل نقل قطعة في البيت من غرفة إلى أخرى، وسيتلقف وجودي اشياء ضئيلة يكتسب منها قيمتها، مثل تقشير البرتقال وتطهيره من حبّاته المرّة، وتقطيعه وخلطها بالخلاط، لغرض إعداد عصير لوجبة الغداء، فاستمتع بهذا التوكيل اليومي والذي لا يجيده بإتقان مثلي، فانظر الى تنهيدة ارتياحهم بعد ارتشاف عصيري واشعر بالبشاشة وانتظر بلذة

اليوم التالي لصناعته! ولربما كثرة الفراغ سيحيل عقلي إلى أحلام اليقظة والدخول في وسواس لا حدّ له يُفقدني الحد الفاصل بين الجنون والواقع! أو قد أقعد وأنصت الى حكايات العجائز والثرثارات من صديقات او قريبات أمي، فأتابع آخر الانباء عن فلّان وعلّان والتي بالطبع لن تنقل بمصداقية، ولن تخلوا من تعقيبات مجحفة وجائرة بحقها، فيأخذ عقلي يقلّدهن ويصبح عندي فضول لمعرفة-مثلا- خبر فلانة هل سترفض العريس للمرة الرابعة التوالي، أم سيجبرها أهلها هذه المرة على الموافقة! أو أتابع مسلسلات عربية على التلفاز ذات طابع نمطي مكرر، وانتظر بتشوق الحلقة القادمة عن ردّة فعل فلانة عندما تكشف خيانة زوجها الطاعن في السن مع قاصرة لم تبلغ الحلم! أو أذهب لزيارة جدتي واتلقى منها حلويات او مبلغ مالي بسيط كأنّي طفل بنظرها، واجلس عندها تقص أنباء اعوامها الغابرة وتسرد ذاكرتها المتخمة، والتي ستخونها وتضيف فيها ما لم يحدث، أو تنقلي للحاضر وتلكز خاصرتي وتقول متى ستقرص إمراة-في إشارة للزواج-؟! سأعيش بروتين قاتل ضيق، واشياء دونية وضيعة لا تناسب جموح خطر سن الشباب المغامر وحياته الثرية المتنوعة.

أتكلم بنفور عن حياة متخيّلة وقد عزّز من اشمئزاز مقاربتها هو الكتب التي تبث همّة طموحات سامقة في النفس، واجتراح صفة المنطاد في حُب اوْج العلو، وما أعظم العذاب عندما يكون عندك عزيمة صقر تعانق القمم وامكانيات معوقة تلجم جموحها. جرح نرجسي اضطرم

عندما قامت الكتب بتربية إرادتي نحو السعي إلى الكمال، بينما أدهى رغباتي الحفاظ على مكتسبات ضرورات البقاء. خيال الكتب لا يفتأ ينزع بي إلى أشياء اعجازية ويجعلني اهفوا إليها، يعمّق وعيّ بحجم الذل ومحيطه الجسيم بي، وأنا في أمسّ الحاجة الى ضربة غفلة وجهل عنه. يناصر التمّرد الجائح على وضعي المُزري وإلحاحه الشاق والمزعج لمَردّه، وأنا اريد راحة اليأس الخاضعة! أحيانا أغبط العبيد وأتمنى امتلاك همتهم الخاملة التي لا تطوف بهم نحو ابعد من انفهم، فلا يعانون أرق المقارنة والتفوق على غيرهم، خالدين إلى راحة الاستكانة، ويعلمون ان هذا قدرهم الموروث لا مرّد لصدّه وابعاده! فلربما لولا قراتي للكتب ما كنت أعلن التنزه على هذه الحياة المتخيلة البائسة ولا رأيت فيها الدون. انا حقاً محدود القدرة، فلا يجب على الرصاصة أن تحلم وتصبح بقوة الصاروخ!

الرسالة الرابعة عشرة:

سُبّوح قُدوس شهرزاد. بكت انسانيتي عندما محيتي عنها بممحاتكِ المسخ الذي غطّاها، وتلت بيان آوبتها الى مكانتها المعززة بداخلي. صُعق جسدي-الزاعم بأنه السيد المطلق الذي قضى على سحابة روحي- من هول المفاجأة وقَلبِ الطاولة عليه، وهو يُقصى بإذلال وبرود من احتكار دافع التواصل عندي. كنتِ حركة تصحيحية لواجهة الانثى التي لطالما مقتّها وحملتها مسؤولية انتكاسي إلى حثالة الاوباش، وكنتِ أوجٍ روحي ثوري على ذلك الهوج المنحط بي، وكسر سطوة الجنس الذي لوى ذراع نفسي وساقها لِلْعق البوائق. ما كنت اظن امتلاكي استطاعة ان ازيح رداء جسدي وان اجالس انسانا رُوحاً لروح تزهق معه الغريزة! نهرتي ابدية اعتقادي بتسلط الشهوة عليّ، واثبتّي انكِ رُعب يهددّها بالزج في معتقلات الروح، حتى إذا ما خلوت مع نفسي واستحضرتكِ في خيالي فإنّ الشيطان يخفق في بعث وساوس الزنا، وإنّي لأختبر نفسي فأستثيرها جنسياً وأعمد إلى خيال الالتئام الجسدي بكِ، فإذا ببخار الانطفاء يتصاعد من جمر الشهوة من ثلجٍ حط عليها، ثم أحاول -بخيالي- المرة والأخرى إجبار نفسي على تلطيخكِ بِكرات الطين الملوثة، فأخفق كعجوز طأطأ رأسه خجلاً من فشل دخوله على صبية في ليلة زفافه. عندما احادثك اشعر بعفة يوسف، وتصبب مني طهارة روحية فكأنّ الملائكة تحفّنا وتعكس أنفاسها الصافية على نفسي. صار وِرداً عندما ادخل عليكِ ان استفتح قولي بـ "سُبّوح قُدّوس ربّ الملائكة والروح"، لا اعلم سِر اكتساء الرغبة امامكِ

بلباس الراهبات، سرٌ لم يفسره الموانع التقليدية عن الرغبة مثل اعتباري انكِ اختٌ من محارمي، أو امرأة مقززة المنظر أو إنّكِ امرأة قديسة فائقة التديّن، مع أن المتديّنة لم تسلم من مجون خيالي، ولا يعني هذا غض البصر عن جسدكِ واهماله ودفنه عن محيط رؤيتي، فلطالما تخيلت اننا فلقتين متعانقتين في بذرة واحدة- أنا الذي اهرب وانفر من فكرة النصف المُكمّل والشراكة المقاسمة لي- واشبك يدي بيدكِ ولا تحتج فرديتي على انصهارها فيكِ. الأنفة التي ابتليت بها قد تحدّبت امامكِ، وصرتِ انتِ الأعلى والبيت المعمور الذي لا يتحرج فيه كبريائي من الطواف حوله واللهج بجماله، وحصل أن أرضى طوعياً بالإذعان لكِ ضارباً توجيهات الكرامة التي ترسل نشراتها الإخبارية اليومية، المذكّرة بضرورة الحفاظ على صحّتها المتهاوية من مؤثرات الذل المتكالبة حولها. إنّ فيك شيئاً ألّف وجمع بين التعالي والانقياد، وأخرج منها بانقياد اشعر بتعاليه لا انسياق الدُونية الذاتيّة! وهل في ذلك غرابة وقد امتثل سفّاح النساء الشهير شهريار الذي لا يفلّ غصّة قلبه من الخيانة إلا ذبحه واحدة منهن يومياً؛ إلى شهرزاد فامسك عنها، وساسته بدهائها، فأرخى واستسلم لها وأصبحت ملكته!

******

شروعي في عالم النت فعّل وأيقظ مفردات بالحياة كانت معطلة بالواقع لا تحتويها خبراتي وأبرزها وفي مقدمتها المرأة. لم أنس قط ذلك اليوم الذي دخلت فيه فتاة في ميعة الصبا وكامل إغواءها على الماسنجر، باغتتني بهذه الاطلالة المنحرفة، وما علمت عليها قبل ذلك إلا الاحتشام في الكلام! ناوشت الجنس فيما مضى من نافذة أفلام البورنو وخيالي المنتج لها، ولكن هذه المرة بزغ من شق مغلق أتهيب من فتحه ونفسي تميل إلى دخوله، وجاءني الأشجع ليفتحه ويأخذني بيده وكأن رغبتي كانت تنقم على خذلان خطواتي، فجاءها الفاجر المنتظر وينقذها من الحبس، وتركب خطواته المُقدامة نحو تجربة ثنائية الرذيلة بين الذكر والانثى. هذه المرحلة المتطورة انهت مرحلة الفردية الجنسية القائمة على التفرج والانطواء، والعودة الى نظام الطبيعة الاصلي بإيجاد شريك المُتعة والتفاعل معه، فكانت نقلة نوعية أضفت للجنس نكهة انكرت ما قبله من لذة، وعاب ابطائي المتأخر عن دخوله. لم أنجرّ وأهوى بهرولة نحو الفتاة وأمامي اسلاك شائكة من الدين والعادات ووجل التجربة الأولى. بدأت هي باستعراض مكوّنات جسدها، واستخدام الفاظ فاحشة للدلالة عليها، وتطلب مني إرواءها بلمساتي، وفي مقابل تسلل الخدر الذاهل في احشائي، انبرت كتيبة العفة تكتب بارتباك عن حُرمة انتهاكها، وتنذر بان القدر سينزل اشد العقوبات إنْ تمادت أكثر في حمأة الشهوة. كان وضعاً معكوساً ان تكون الانثى هي الهاجمة والرجل من يدافع عن فضيلته! انفرجت اسارير الفضيلة عندما لُقّمت تلك الفتاة بالحجج الدامغة التي حتماً ستزجرها عن الاعتذار، وتبعث الصواب ليقضي على عيث النزوة

الهائجة، هكذا سذاجتي منحتني وثوقية الانتصار في هذه الجلسة ما دمت مسلّحا بُحراس كلمات الشرف القاصمة لدابر الابالسة. جاءني ردها المصمم والمتأفف بعد ثلاثة ثوانٍ من إرسال كلامي، واستنتجت إنّها لم تعره انتباهاً من عينها، بل كان لها وقود للعناد والايغال وفتح كافة جبهات الكلام الغاوية بعد أن كان بعضها قيد الاحتياط والانتظار للاستدعاء! خسئت راية العقل التي كنت أظنّ نجوعها في تسوية الموضوع إلى بر الأمان. كنت بين شد الانضباط وجذب الصبوة، والطرف الاخر في متناول غرائزه السفلى، فَساد واستأسد نفح الشهوة، وتداعت رويدا أطراف المسافة الفاصلة بين أعضاء التناسل لتحقيق التشابك. وانقاذاً اخيراً للموقف من التزحلق الزاني، رشقت مرة أخرى بكلمات الحشمة، ولكن كانت مثل محاولة البخ من قنينة عطر فارغة لغرض تغيير رائحة غير محبّذة، ونفسي ذاتها عندما قالت هذه الكلمات شعرت انها تخرج من فم شخص آخر يقع على بُعد مسافة كيلو، فلا يصلني منها إلا همهمة صدى بعيدة غير مؤثرة! إذ إنّ جسدي بعد ان كان تغوص قدمه في بحر الجنس وقريب من يابسة النجاة، أضحى غارق حتى اخر شيء مني كان طليقاً بالهواء.

لم أعتبر نفسي ضحية وأتأثر بالدعاية التاريخية المتوارثة عن إغواء حواء لاستدراج آدم للخطيئة، وأنهنّ أم الخبائث الملعونات، لأنّه كان أمراً مفعولاً هذا الانزلاق، بعد ان أثثت الظروف ما يلزم لإنشاء سيناريو الفسق، وأيّ انثى كانت لتكون قشرة الموز التي اتعثر بها لو

اجتازت شارع رغبتي، وكيف لورقة الشجر تصنع الثبات لو مرت بها الريح الصرصر العاتية! السور العفيف الذي احطت به النساء في خارطة تصوراتي لم يستطع تجشم التهشّم، فطاحت نظرتي السابقة البريئة حولهن، واخترقت اذني بواطنهن لسماع حسيس لفح نار غريزتهن، بعد ظنّي احتكار الرجال لها، وهنّ مستقبلات باردات! لا يملكن أثارتها المتكهربة في عروق أجسادهن! كمثل اعتقاد طفولي ان الرضيع يأتي من قُبلة بين الرجل والمرأة فقط! صحيح أنّي شاهدت أفلام الإباحية ولكن كنت اعتقد ان النساء هناك مجرد ممثلات، ولا يملكن على الحقيقة مثل هذه الحماوة أو هنّ استثناء. هذه التجربة لأول مرة آنست منها ضوء رجولتي حق اليقين وارتشفت نضج غددها، وكأنّي الان شببت عن الطوق ونعيت الطفولة إلى الابد. اكتشف أن برهان التنويه بالرجولة لا يكون إلا بأنثى تغشاها. أن الرجولة شيء منسيّ حتى تأتي الانثى تمزق غشاء بكارتها القابعة تحتها وتبرزها للوجود. انت طفل أو خنيث إلى ان تأتي أقلام جسد الانثى لترسم ملامح هوية الرجولة! الرجولة بالإساس لا تشعر بانفرادها داخلك حتى تلتئم بأنثى فهي صناعة حصرية من لمستها. لفظ الفحولة الذي يتباهى به المجتمع والذي لا بد لكل رجل ان يتّسم به، لا يتم الإشهاد عليه إلا بالافتقار إلى انثى تعطيك الاجازة والشهادة بوجودها! وليس هذا فحسب ما توارد من ايحاءات هذا المشهد، بل أشار إلى خطير عِظم المرأة وحيازتها جبروت أقوى سلاح لذة مخفية في ممراتها السرّية، واستعماله في تسخير الرجل والتأثير عليه، أفهمني ذلك الاستغراب من قدرة الجواري في قصص ألف ليلة وليلة في إدارة دفة الامارة والسلطان

من وراء ستار، ولماذا قادت عِمادة الابيات الشعرية فلا حديث للشعراء إلا التغزل بتفاصيلهن، ولماذا يتهافت الرجال ويركب الخطر لانتزاع ابتسامة منها، أو يقضي ليلة ساهداً في التفكير بنظرة وجهّت من عينها... واشياء أخرى كنت جاهلاً بها لانفرادي الجنسي مع نفسي، فتهدّم ما ظنّ معه ظاهراً أن المرأة ضعيفة! هذا البذخ الجنسي المكتشف دخل في عدّة أدواتي الرئيسية لتفسير النفس البشرية وفعاليتها في تحريك كثير من أحداث حياتنا.

في المجموعات على النت سكبت ثقافتي في الحوارات وحركت المواضيع الشيّقة وانتدبت ردود فاخرة في المبنى والمعنى. فأحاط ذلك شخصيتي بهالة من الجاذبية بما لم أكن اتوقعه، وحققت نجاحات باهرة في ارتقاء يرمقني به الناس بعين التطلع والاقتراب مني. كان سبب اندفاعي العنيف، والمقتحم في خوض سُبل الكلام، وترْك تَرِكة آثاري ببلاغة تشد الاعين؛ هو الثأر من واقعي الذي يتعمد دفن شخصيتي، فأرد له الصاع صاعين بصنع تمثال ظهوري على مرأى منه. وبدون أن أدري فان سرية حياتي وتفاصيلها، ساهم في تضخيم قامة وقيمة شخصيتي وتشوق إلى معرفة فارس الكتابة اللبق، فدفع ذلك برهط من النساء الى الشغف بمحبتي! سابقا كنت أرى نفسي لا أملك المؤهلات، وأرخص وأدنى من ان تحبني إمراة، حتى إن كانت قبيحة وبها عيوب جمّة، لم أكن أرى نفسي كما تقول الأمهات "ألف بنت تتمناه"، وانما انتصار للدونية ترى لافتة رفضي منتصبة على فم كل امرأة. فرحة كبرى اعترتني عندما

صرحت أوّل امرأة لي بحبها، كان اعتراف بعاطفتها، وكان لي اعتراف والتنويه بان لنفسي وضاءة تلوح وتغمر الآخر وتؤثر فيه، ويكون طوع بنانك وتحت تصرف يديك. هذا التصريح بمثابة احتوائي على صفات مرموقة تمنحني المقبولية النضرة في هذا العالم، وأنّي مازلت على قيد الوجود وأنا الذي كنت اشعر دائما بجحود ذاتي، ولا يمكن لأحد ان يعلو بها ويميزها باصطفاء على بقية الناس. صحيح أني سمعت جماعياً الإشادة بي وشعوري بحظوتها، ولكن كنت اراه تقريظ لصفات معيّنة لفتت انتباههم فلم يشمل كياني، لذا فان الاعتراف الانثوي الفردي كان له طعمه الخاص الذي غذى نفسي بالانتفاش والانتفاخ وملأها بقوة سطوتي، لأنه لم يختصرني بصورة جزئية وانتقائية، وإنما استغرق نفسي قاطبة كشيء ليس له نظير ولا ندّ! انتشال انثوي اشاح اللثام عن مكامن من قوتي، وشدّ بها ساعد ذاتي الهشة. رائعاً سماعي لأنثى وهي تقصّ في شكوى احتلالي لخاطرها وبلبلة وقتها! وتسترشدني الحلول إلى اعفاء الوقت مني! يزهو طاووس كبريائي كأنّي مستوفي الكمال عندما تسرد ضعفها، وذوبان إرادتها المستقلّة اتجاهي! وانا الذي اعتبر نفسي "انْتيكة عتيقة" نبذت في مخزن الأغراض القديمة، وقد اعرضت عنها ذاكرة البشر واعتلاها غبار السنين. الجنس مع حواء أشار إلى رجولتي، وحبها لي أشار اعتبار وإجلال ذاتي!

مع توالي الاعترافات بدأ ينشأ ميل إلى تسخير جهدي في الكتابة لخطف انظار النساء، واسماعهن صدى صرير القلم وهو يخط آيات

الأفكار الخلابة، كي يستمر تسلسل زيادة ارقامهن في محصّلتي. ولربما قد تنفض إمراة اعجابها عني، أو تمر فترة فتور ولا يستجد غرام، فاستجر الاحتقار لذاتي، حتى يستحدث اعتراف، فاخلد له راضيا إلى حين من الدهر! وقد اكتب الرأي في السياسة او الدين، ودافعي هو ارسال الانتباه للنساء، فتزحزحت إلى الدرجة الثانية تلك الدوافع الأولية القديمة للكتابة من اهتمامات ثقافية او العناية بمشكلات الناس مع حظ وافر في تصدير ابهة نفسي، وكأنّ كل انثى تبذل قلبها لي فانه يعادل اعتراف كافة فئات وأنواع العالم بي! وبتجذر وامتداد علاقاتي مع النساء، فأنها اتخذت طوراً آخر عندما افتتنت بالجنس معهنّ واستيلاء الشغف بأجسادهن. قبع عقلي في جهازي التناسلي فاختزل النساء في قوالب حلوى جسدية، على غرار الدمى الجنسية الصناعية التي تروج لها تُجّار الإباحية. استملح بإدمان ركوبه واستهلّ يومي بأمنية الحظوة بواحدة منهن. وحتى لو جاء يوم والمس استراحة وخمول غريزتي، فأنّي اكنس ضمورها واوقظها بإجبار تحت باعث جنسي قهري. أستفحل الامر عندي من ضآلة كنت آتيها مرة مع انثى خلال عدّة شهور وآل إلى أيام شُبْه متتابعة! كل انثى هي مشروع وغنيمة تقتات منها شهوتي لو ألمح منها اعجاباً، كأن العالم صار عندي غرفة نوم وحرفتي هي امتهان الجِماع! هيام إلى درجة رغبتي لو أن بي قوة عشرة رجال في المضاجعة فلا تنطفئ الرغبة رمشه عين، أو املك في الحُسن صورة يوسف-ع- وجسد موديلـ حتى ابتلع الفتاة تلو الأخرى! ولا غرو ان زادت مثل هذه الرغبات في ازدراء هيئة جسدي والحط من شأنه ولومه على قبحه!

صنع الهوى إله للجنس اعبده واتوكّل عليه في صناعة لذة يومي، من يصدق ان هذا الخجول الهادئ الذي يخفض عينيه لو مرت امرأة بجانبه، ولا تبدو على سيماه البريئة نزوع للفجور؛ يعربد بداخله زير نساء لا يعلمه به أحد. من يراني يغلب ظنّه أنّ بي سذاجة وبلاهة في معرفة الالاعيب وممارسات الأزواج ولا يخطر بباله أني متقن لها، وحتى لو وسوس له الشيطان معرفتي بها؛ فانّه ما إن يرجع البصر لي ويستشهد في ملامحي وتاريخي علامات النقاء؛ يستعيذ منه ويطرده! ومن يظن أنّ متدين جميل الشمائل، يكون زانيا راكعا في محراب فخذيّ أمرأه؟ من يقتنع أن وقاري الجامد وجفاء معاملتي وسوء لباقتي العامة للنساء، تخبّأ وراءها لين ورقة وحرارة إذا ما خلوت وانفردت بها؟ ومن يقر أنّ ثقافتي التي ترفع من قدر الانثى وتعظّم حقوقها، تُخفي ديْدن سعار يحصرها في إطار مادي رخيص بحت؟ بالطبع كنت محترفاً في تدعيم علائم الثبات والتعفف، ومحو اقدام آثار شهوتي التي تكشف عن هذا السر، واكبح أنفاسه من الهروب خارجاً. لم أستطع تنقية هذه النظرة التي نهبت الروح من كيان الانثى وسلبها جزءها المعنوي العفيف، ولا ترتقي بها نحو آفاق أخرى معزولة عن الخطيئة. صحيح أني اتبسط في مواضيع شتّى معهن، ولكن كانت هذه المواضيع شطراً ضرورياً لضرب أحادية الشهوة من الاستحواذ التام على العلاقة، وما يستجره من رخص يعتري الانثى، والظن أن باعثها جنسي فقط! فيدفعها إلى الرحيل او الغياب الطويل، فالمزاحمة بمواضيع أخرى تنجي العلاقة من وصمها بالدعارة، وتضفي لها أشياء نظيفة معنوية تقلّل من ألم وساخة الاثم. كان الجنس عند

اللواتي عرفتهن أثر للحب، وتتويج لذروْته وقمة الاتصال فيه، وهذا ما يخفف أو يدرأ تُهمة قد اظنّها بزعمهن وهي مكب تفريغ شهوةٌ.

قد افرطت في الجنس وما به من متعة، لأقاوم به شظف حياتي واشذب به اغصان الألم المرضي التي تتفرع وتستطيل بين الحين والآخر. اسد به حواسي مؤقتا عن سماع مؤثرات نكد العالم الخارجي، أقوم بعيادته مؤقتاً إذا حزّبني قلق فاشنقه بطوقه. لم يكن لي متاحاً لذائذ بمثلها عنفواناً وأقيم في جوانحها حتى اكسر هيمنة واستئثار الجنس. لا يوجد عندي تنوع وترف في متاع الحياة حتى أردع حدّة تلك الشهوة. استعين بلذة الجنس على وسواس هادم اللذات-الموت-، الطريق معبّد بلا منافسين لارتقاء عضوي التناسلي سدّة حكم أقوى أدوات المتعة عندي، وحالتي من الضنى شكلت بيئة رخوة صالحة لغليان الجنس حتى لو كانت قطباً شمالياً متجمداً. وأنا على ارتيادي النت وانخراطي في مجاله الاجتماعي، ولكن بقيت منطوياً لا أستطيع التصدي للعلاقات الخاصة، والميل لها، وافتعال الكلام بتلقائية وقت اشاء فيها، لذا عندما اضيق ذرعاً بالعزلة والمس حاجة للتواصل مع الناس، استخدم الجنس كوسيلة في تنشيط جزئي الاجتماعي، فيجري عندي تبسط وثرثرة في الحديث بما يستغربه صمتي المطبق! هذا التلف المزمن في الاتصال، يأتي الجنس ويقيم إنعاش صناعي له، استثير خلايا جسدي بنشوة تنتشر فيه، فيحلّ لجام الجمود عنه، وانْقاد إلى لهفة وتيسر ونزوع إلى الآخر، ولربما أقضي يومي بحكّ مواطن الشهوة دون إسالتها، حتى استنفر روح المرح

وحُب الحياة كأن كل حكّة هي شرب رشفة كأس من الخمر لاستدامة سَكْرته! أو مزاجي يحتقر الكلام فتدخل انثى أعرفها، فيوعز للكلمات ان تهيأ حالها للخروج ولو عن اكراه، لإن في ذلك مكافأة بجائزة الجنس التي تبهجه. وقد اصبر على حديث لا اطيق سماعه، وأبدي حلماً ومرونة في تعاطيه، لعلي انال في نهاية مطافه جلسة على سرير المتعة. فبالجنس أُشبع نقصي وارتوائي لرفقة آنس بها، ولا أستطيع ان أقيم صداقة مع أحد إلا لو وهب لي جسده، ومقدار القرب والبُعد يعتمد على مقدار ما يعطيني منه، والبُعد النفسي عندي مع الناس لا يلتحم إلا بالمرور عبر قارب الجنس. والناس هنا اناث فقط! فلم أجد في الرجال شيء يحرضني على الحديث، فأقصيت الارتباط العميق معهم باستثناء واحد او اثنين، لأن الجنس هو منبّه وحافز حديثي وليس عندي ميل مثْلي اتجاههم. وما اكابده من قسوة المرض يحرّك نفسي على مزاوجة اللين والرقة والتي أجدهما في الانثى لا في صحبة الرجال الجافة، وفي المرأة المُحبة خضوع لطيف كان يعزز ثقتي ويضمد جرح نرجسيتي، على عكس الرجال الذين يعاملوني بندية ولا يبدون اعجاباً بقدراتي إلا قليلاً، وتُبدي اهتماماً ورعاية وحناناً لي لا يمنحها الرجال بالعادة لخلوها في أصل جبلّتهم، وتُقدّم تمسكاً وتطلعاً وترقباً وتميزاً لي لا يقوم الرجال بفعله... وبالمحصلّة ما كنت احتاجه في تواصلي موجود عند الانثى، وما احتاجه من الرجل قد تعطل، وكان ليزدهر بشدّة لو كُنتُ طبيعياً اباشر الواقع، والعزلة على النت هو عالم مخيّلة يناسب مُخادنة الانثى، والواقع المنعزل عنه هو عالم عملي يُوائم مسامرة الرجال.

الجنس هو من سخّر وجسّر علاقاتي الخاصة، ولولاه لبقيت في مأتم العزلة التامة على النت، اتحسس واتهيّج من تقرّب البشر كما في الواقع، حيث أنشأت خط دائري متسع المدى، وفضاء لا أرتاح لأن يجوسه أحد، فما إنْ يجلس شخص قريباً مني ويتعدّى حدوده الليزرية، حتى تدوي صافرة الإنذار الحمراء ويتبلبل حالي، كأنّي في الحمام وقد دخل فيه أحدهم بدون استئذان، واستثقل وجوده كأنّه لوحده جماهير غفيرة تحيق بي، ويضيق بي المكان على رحابته، لأني أراه كالعرش لا مندوحة فيه لإثنين أو أكثر، وأكره مقاسمته لي الحيّز، لأن سيادة العزلة بداخلي لا تقبل الشِركة فيه حتى في الهواء، وتطلعات عيونه الودودة حولي اعتبرها تجسس لئيم وسرقة لخصوصيتي بلا رخصة مني، وقد يطيل النظر لي فأخالها كمن ينظر لي وأنا عاري، وحركاته وتجواله عندي يشعرني كأن سريري بالشارع تتلقفه النظرات لا في غرفة بيت، وقد يبرر زيارته بأنها صلة رحم وما علم ان صلة رحمي بقطع نفسه عني، وقد يتكلم وهو يحسب أنه يؤنسني، وما علم أن كلامه قِطع من الحجر تُرْجم بها اذني، ويظن بأنّه قريب مني وما يحسب انه بقياس المسافات الشعورية يبعد عني أميالاً كثيرة، وقد يحييني بتحية السلام وما يدري ان مجيئه يبعث القلق والفوضى بي، ويظن انه من نسبي يألف دمهُ دمي، ومرآه عندي كنزول الثلج في الصحراء يثير استغراب الانفس! ويتوقع ان مس العناق المجامل يجدد حميمية الصلة ويعبر عنها، وما يفهم ان لمس جسده كعناق مادة صلبة لا تبعث الإحساس، وكالسامري اود ان أقول بوجه "لا مساس"، وقد تعبث يده بمقتنياتي، وداخلي يتلمظ غضبا كأنه يتحسس بها مواطن

عوراتي وأتخيل انّي أقطع يده عن لمسها! ويدرك أن وجوده مفيد لي، وما يُبصر ان ما يجده الناس في الاجتماع أجده في العزلة، وما يكرهونه من ضجر العزلة أجده في اجتماعي معهم! وقد يودّعني ويعتذر مجاملاً على طول بقاءه وعبء وجوده، فيرد لساني الباطني مُقراً بما يقوله، وبخلاف لساني الظاهري الذي يداهن بحُسن تواجده وخِفة مجلسه...! وأعلم ان هذه أشياء غير سوية ولا تأتيها الانفس السليمة، لذا كانت نشوة الجنس تُعيد لي خصائصي الإنسانية المفقودة في العلاقات، والمسلوبة من بشرية صُنعت على مزاج المرض النفسي والعضوي، وقد يندّد بي الناس لو علموا تطرفي الجنسي وأنّي من جنس البهائم الوضيع، وما علموا أنيّ بهيمة عجماء خرساء لا تصلح للتواصل، ويأتي الجنس ليستردّه لي مؤقتاً! وإذا كان الجنس يؤدي وظيفة إيجاد النوع البشري، فعندي هو إيجاد تواصله، وإذا كانت الحاجة هي أصل اصول التواصل البشري، فعندي ان الجنس هو أصله.

إذا غاب ذِكر الموت تطيّبت الاذهان بأمل العيش دهوراً متطاولة فتنبري تسعى وتعمّر حياتها، والجنس يساهم بعظمة في تشتيت انتباهي عن التركيز بذلك الوسواس الدموي المُزمن الذي يستهل يومي باحتمال ان يغمى بي إلى الموت. لا يمكن التطلع إلى شيء والتحرك قيْد انْملة وذهني مسروق من فكرة اعيش الآن لحظات ما قبل الموت! أن وقت حياتي ليبدوا مقسم إلى وحدات زمنية قصيرة الانقضاء في ظل هذه الوسواس، فألوذ بالجنس وكأنه يُؤجّل أجلى، ويضرب على عقلي غشاء

البلاهة عن قُربه، أرغم نفسي بهذا المُشتت الوضيع حتى اسرق انفاس الحياة واستودعها صدري. اقاوم فكرة مؤلمة سخيفة بشهوة دنيئة. حرب مفتوحة اضطر بها إلى المظاهرة بالمستنقع المظلم في النفس لإتلاف بضائع الأفكار السقيمة. يحتاج عقلي إلى فكرة الاستمرار حتى احفظه من جنون فكرة الموت، فأزرع فيه نفحات الأبدية، واخادع النفس بتلك اللذة التي تمنح وهم الخلود، واصرف بتلك اللذّة الرخيصة أيادي الموت القابضة والمشدودة على عنق حياتي. وأنّ نفسي الهشة لتُهدّ وهي تبذل جُهدها وتعذّب، وهي تستعين بالرذيلة في مناضلة أعظم مخلوق مهُيب يهرب منه الانسان-الموت-.

وبالطبع لم يكن الجنس هو القُطب المهمين في تفتيت الفكرة القلقة إلى أشلاء متناثرة، فهناك العكوف امام القراءة ساعات طوال، فتفصل عقلي عن ألم جسدي وتُذهب عنه رجس الوسواس. يركب عقلي مكنسة القراءة الساحرة ويطير في آفاق بعيدة عن اللحظة الراهنة. جُلْت في رحلات الشك الفكرية للغزالي في منقذه، واندرجت في احياءه لسبر غور روحانيته، وطويت القرون ولبست لباس أهل الأندلس وعشت بُرهة استجلي زمانها في ثلاثية رضوى عاشور، وتسللت في دروب حواري مصر القديمة، أتشرب نظامها وعادات اهلها في ثلاثية نجيب محفوظ، وكنت روسي انتمي إلى طبقة النبلاء، وجندي فرنسي في حروب نابليون في الحرب والسلام لتولستوي، وكنت فارساً مغامراً وحالماً اجوب البلاد في القرون الوسطى في دون كيشوت لميغيل، وارتشفت عطر السيرة

النبوية من الرحيق المحتوم لصفي الدين، ورافقت غزل الرافعي مع مي زيادة في أوراق الورد، واتصلت بالحضارات القديمة المندثرة في موسوعة قصة الحضارة لويل ديورانت، وواكبت دوستويفسكي وهو يعري طبقات النفس البشرية في الجريمة والعقاب والاخوة كرامازوف، واهرقت دموعي في النظرات والعبرات للمنفلوطي، ورأيت جرأة الكواكبي تدك اركان الديكتاتورية في مصارع الاستبداد، وتعلمت مراوغات العقل واحتيالاته في المغالطات المنطقية لعادل مصطفى، واستمتعت بعذوبة وبراعة تطويع اللغة في ثلاثية ذاكرة الجسد لأحلام، واستوطنت احدى قبائل افريقيا أفتش في طقوسها وتقاليدها في الأشياء تتداعى لأتشيبي، ورأيت كيف الأخ الكبير يراقبك ويعبّد الناس له في 1984 لجورج اورويل، وتتبعت سيرة هتلر من المهد إلى اللحد وهوسه بالسلطة وتكريس نفسه لإعلاء العرق الآري على البشر في تاريخ المانيا الهتلرية لوليام شيرر....

لم يكن الجنس بهذه الإيجابية المستحكمة والدور الوردي النقي، ففيه من فداحة الضرر النفسي الشيء الغزير. فما ان يستفرغ الجسم شهوته وترجع الرغبة إلى قلاعها، حتى تتلقفني عزلة شديدة واستغناء لا يضرني معه لو تم ايداعي بالسجن بمدى الحياة، واكتفاء لا أستوحش فيه حياة البرية لو قضيت عمري فيها. اعتداد مُحتدّ يحلق فوق البشر ينطمس فيه الحاجة إليهم. على انه ينتابني شعور النفور من النساء قاطبة كأنّ عقد خيط سحرهن انحلّ عني، وانجابت الغشاوة عن عيني وهن مخضبات

بالعيوب الكريهة، كأنّ زينة المرأة عندي بالجنس المؤقت وليس بحيائها أو مكياجها أو عقلها! لا أطيق وجود شيء اسمه انثى واحنق من كل لحظات مخالطتهن في تاريخ حياتي، اراها خصم مزعج للحياة وتُظهر اسوء ما في داخلي وتستحق الإبادة والتنكيل به. تخامر نفسي نوبة تقيّأ لشيء مجهول وهي ترى انتقالها المتطرف من العشق إلى البغض، وقد يبرز ازدراء الذات بقوة وأنّي شيء يجب ان يرمى إلى حاوية القمامة! ويبزغ الاستنكاف المتعالي ويوبّخني على هذا التمازج بالأنثى، وضياع ثُقلي وثباتي وذوبان فرديتي فيه. اتقزز من حذف عيني للأشياء في الكوكب واحتباسي بعالم النساء وأسر نفسي فيه، وائتلافي إلى نمط طباعهن وتعاهدي على اشيائهن الخاصة بما لا ينبغي لرجولتي أن تواظب اعتياده. طباعي الاصيلة الذكورية لتحتج كثيراً على غزو تأثير التأنيث لها وتوهين أجزاء منها. هذا التشبع بالأنثى يثير حنق الرجولة وحاجتها إلى توسيع فضاءها الخاص المنعزل عنها. أن اعتبر النساء في حالة حيض لفترة طويلة لا أقربهن حتى لا اندمج بتفاصيلهن وتؤثر في مجرى سلوكي. يرشقني الضمير بكدماته اللاسعة، وتأففه من أتّساخ أخلاقي بهذا المنكر، ويحمي الوطيس على دماغي بالتعنيف الدائب! يتدخل الدين ويهز راسه أسفاً، فابتلع ريقي ذعراً قد تشتد لدرجة أنّي اجحظ عيني في الظلام، منتظراً عقوبة من الربّ تأخذني أخذ عزيز مقتدر، أو قارعة تحل قريباً من داري. يتفتق في الروح شوق إلى نفحة نور من ربها تمسح لطخات السواد المُوحشة في جلدها، انكسر إلى الله ان يعجل في وضع خطواتي على طريق السلوك اليه. وبنظرة خبيثة تسرد

الوساوس العواقب المخيفة من احتمال أن افضح على رؤوس الاشهاد وأُخزى إلى يوم يبعثون، أو كيف سأطيق زوجتي بعد انتهاء الجماع فيما لو صحّ لي زواج؟ او بما أنّي امتلكت أسباب الرشد من دين وثقافة، فإنّ سلطتي بزجر نفسي يجب أن تكون اقوى ومرجّحة امام كل انثى تعلم انها لا تحوز هذه السلطة! وعليه فان كل تجديد اغواء مع انثى هو استغلال لصالحي، وما يستتبعه من جريرة ذنب فأنّي اتحمل جميع مسؤوليته، فافتعل من جرائه صوت عالي يغطي ويغلب همس الوسواس، كأنه عواء الذئب في ليلة مقمرة حتى اقهره. ويأتي جانبي المنطقي ليخفف من التواء هذه الوسوسة، بأن ما حدث هو عن تراضٍ وتشاورٍ بين الطرفين، وأن شيء يتولد من شيء في الحديث، حتى لنجد أنفسنا تحت قبّة الغواية فلا يعلم أحداً من المسؤول عن نقطة الشروع! ولكن لا أزكّي نفسي من توجيه الغريزة لدفة الكلام إلى الاستثارة من حيث لا اشعر، بما ان النوايا مبيّتة نحوها مسبقاً، ولا ابرء الطرف الاخر الذي يستدرج الحديث إلى التلاحم الجسدي تحت تأثير غرامه نحوي. ومع أنّ ما نقترفه يبقى إثماً، فان نفسي تبتلع الابتذال، عندما ترى المرأة تطاوع الجنس لغاية الحُب فيكون في ذنبها رُقياً اغبطه عليها، على عكس ذنبي الذي يشبه الدوافع الساقطة لأهل المبغى! وكان للألم النفسي الذي يعقب الجنس أنّ يخفّ لو أنّي أفعله عن حُبّ، ولكن لم أستطع أن أطارحه مع واحدة، مع أنّ فيهن جديرات بذلك، فالحب انجذاب غاصب لا يُطلب، فلذا كنت ارفض الحاح بعضهن بأن أحبهن. والحق أنى كنت أرى باسم الحب ترتكب جرائم في حق الذات فتَسوم الشخص وحشية العبودية، وسوء عذاب تقييد حركاته، ويتلقفه

الجزء الجاسوسي يتعقبه بحثاً عن زيغ يتلبس به المحبوب، ويفرض عليه أشياء تنافي رغباته. ونفسي التي ترسف بأغلال متينة في الواقع، وتتوق إلى الحرية بشراهة وتوفر لها المساحة ما استطاعت؛ تأنف من الوقوع في احتكار شخص قد حصل رُخصة ملكيتي من بنْد كتاب مرقوم فيه شروط وأركان الحب. نفسي الحبيسة ملبّدة بغطرسة لا تُسأل عما تفعل، ولا تَرضى بغيرة أنثى التي تكدّر عليّ شبهات الخيانة المستمرة من حيث لا أدرى، فأجادل عن نفسي بتقديم براهين الإخلاص والولاء الكلي الذي لا يقبل الاشراك بغيرها وإنْ كان بريئاً. انا مسجون ابحث عن خلاص لا أنْ أجدّد سجن داخل سجن. كل تُملّك لي حتى لو كان مُباحاً اشعر انه استباحة لكرامتي. الحرية حاليا عندي هي عدوة للأشياء وتدابر التعلق بها، ومسح كل مشاطرة تأكل من فرديتي. فأمر مزعج لصمتي ان اسمع اسئلتها المُطالبة بفض مكنون نفسي، والثرثرة باسم حقوق الحب التي تنص على المكاشفة المتبادلة اليومية، وغثيان لعزلتي أن تطالبني بالمكوث عندها كقرط في أذنيْها لا يبرح عنها ابداً، وأذني قد تعودت سماع الأشياء من فم الكتاب، لا تطيق سماع هذر أدق تفاصيلها والتي في أغلبها غير مُهمّة، وأقطّب وجهي من تفاهة دراما الأسئلة الغاضبة التي تفتعلها لغرض اختبار مشاعري وقوتها، مثل أن تقول لي "انت لا تريديني" حتى تسمع إجابة مني "انا اريدكِ، ولا اريد سواكِ!"، ليس عندي مرونة اتجاه عادة مزاجها الطفولي المتقلب الذي يأتي الاضداد كالرضا والغضب في لمح البصر، ولا أدرى كيف أبدي اهتماماً بها ونفسي أصبحت بهيئة كالمتسولين من إهمال عنايتي بها؟ وكيف لي أن

ابذل لها وعندي امساك مزمن وزهرة عطائي عقيمة لا تنتج ثمرة العطاء؟ وكيف لي أن اقترن بأنثى وانا شاذ آتي بسلوكيات تناقض سلامة ورسوخ العلاقة؟ فتجد نفسها في حالة استنزاف تجعلها في نهاية المطاف من الزاهدين بي. لذلك كنت لا اثق كثيرا باعتراف حُب لي، لأنه كان ينطوي على اعجاب بشخص غامض لا تعرف عنه سوى النُتف القليلة، ولو علموا تركيب حياتي المعقدة، فان اهتزاز سينال عقيدة حبّها لي، فيَضعف او تَكفر بي. والحق أني أفضّل او لربّما أحب الشخص المُتفهم الذي يلتمس لي الاعذار، ويتكيف مع دروب مسلكي في التعامل، ولا يدّقق في حقوقه واستيفاءها كاملاً، فأنّى تجد مثله؟ كنت في أحيان استعيد النظرة الوسطية السوية اتجاه المرأة، فأعاملها كمخلوق متعدّد الابعاد، ويملك صفات جديرة بالأعجاب، والتوقف عندها من ظرافة أو ثقافة أو تدين أو جمال او تهذيب....، ولكن الاعتدال سريع الزوال إلى تلك المعايشة المتأرجحة بين حلاوة الجنس وبين ما يعقبه من حموضة بشعة لا تستساغ. ولكم أتمنى من المرض ان يصيب غدتي التناسلية بما يشبه الاخصاء، وتتوقف عن انتاج تلك اللذة الملعونة، وتستثني -مثلا- لذة الطعام فانشغل بالتهامه وتحضيره والتفنن بوصفاته، ويكون بديلاً لمساحات الوقت التي يقرضها الجنس. ولكن مُرعب استحضار ان جسدي قد ينقرض عنه الجنس، لأنه اللذة الوحيدة المتبقية التي تدل على وجود جسمي وأهميته! استدل منه ان جسدي مازال يعمل بكفاءة وينتج الإفادة لي، وليس كُتلة لحم أفرغها المرض من عظيم أمره، أن فيه علامة على صحة تقاوم تكالب السقم عليه ولم يستسلم بَعدُ له. أقول: لو تخلّى الجنس

عني، فإنّ غُربتي عن جسدي ستبلغ الغاية، فلا يرى فيه سوى محراث يقلّب ويُداور أفانين الوجع. ولطالما واتتني هذه الغربة عندما استهلك حصتي اليومية من الجنس وملذاته عموما، فيخدر من تفاني الألم لوحده فيكون مثل غربة سن صناعي غرس حديثا في فمي.

هذا الإرث من الخبرة نحو مفردات الحياة من المرأة والجنس هل كنت لأعرفه لولا النت؟ فانا أدين للنت بفضله الجزيل في ضخ معاني الحياة التي لا تنشأ إلا من خلال الاحتكاك بالناس. تلقفتني "الفضيحة" ردحاً من الزمن على يدّ شخص اخترع من عنده، أن عندي غرفة ماسنجر سرية اضم لها المتزوجات حصراً، مُدعيا اني أقوم بطبابتهن نفسياً واستغلهن لمآربي الخبيثة، فقضمت الاظافر من قلق سقوط السُمعة، وتناهى إلى سمعي الألسنة، وهي تتداول بسرعة صاروخية وتبلع كالإسفنجة أقاويل هذه الاشاعة التي تذّم مكانتي، وانشغلت متصدعاً في تفنديها، والأغارة على بطلان مزاعمها.

وعرفت "الحقد" وما يعمله في نفوس البعض من تقصّد تتبع اخطائي وإن كانت صغيرة، فيعمد لتضخيمها كأنها خُلقي الأصيل، أو اختلاقها من عنده واضافتها إليّ حتى يُصدّرني كأنّي ظل الشيطان في الأرض غير صالح للاقتراب منه! فأحدهم – وهو جهاديّ متطرف- اقسم اغلظ الايمان أن لو استطاع ان يظفر بي، لما ندم على دخول النار في قتلي، كُلّ هذا؛ لأن من يعشقها قد مالت لي وأعطته ظهرها! ثم توعدني

ان عصبيته سيورثها لأبنائه، لينجحوا في اقتلاع روحي فيما لو لم يدركه العمر لفعلها!

وعايشت "الظهور الاجتماعي" المُصغّر وكيف تنحنحت متواضعا-بغرور- من رسائل المعجبين بي، واستحلاء ان أكون شجرة يتيمة في صحراء تحج إليها انظار المسافرين المتعبين، والثناء على ظلها المُريح.

وعرفت "الخيانة" واستئمان نفسي على شخص أداوله شيئاً من خاصة امري، واكاشفه بطمأنينة عيوبي وزلاتي، ثم اجده يسلمها لغيري وغيري لغيره، فأصبحت حمام عُمومي يدخله من هب ودب. ولقد كنت اعرف شخصاً سنين عدداً، ونحلت في قلبي مودّته، وباغتني في يوم بأن أسامحه على اتخاذه دوراً تمثيلياً ودوداً معي، من اجل استخلاص معلومات خاصة بي ينقلها لصالح شخص يريد منها النيل مني، وضمن صفقة اتفّقا عليها!

وهذه نبذة وغيض من فيض....، من تعلّم المعاني والمفردات التي تتحكم بحياة البشر من خلال النت، فكأني لم انقطع عن العالم ولم افعل سوى أني غيّرت المدخل إليه، وإذا خسرت خياراتي في الواقع، فان في النت نُسخ معوّضة لها. ولقد شيّدت شخصية تجمع ما ينقصني في ذاتي الواقعية، وأزحت عنها الآفات المعلقة بها. فبينما شخصيتي الافتراضية على النت تحْفل بالقوة والأمر والاستقلال، فأنها بالواقع تَحشد

بالضعف والتبعية والتلقي، فصار عندي ذات افتراضية تمثّلني كما يجب وأريد، ومتساوقة في اجزائها وافخر بتكوينها، وحتى إنّها لتحتقر نسختي الباهتة المشوّهة في الواقع، وتبتغي أن تحلّ محلّها، وتُنهي حالة التشظّي وكسر جدار برلين بينهما فلا أستطيع، وهو أمر عسير، ولربما قادة دول استطاعوا توحيد أراضي مشرذمة بقوّة السيف، ولم يقدروا إدغام أجزاء متنافرة في أنفسهم! وكأيّن من مواقف تمر بي في الواقع استغيث بـ "ذات النت" كي تنقذني، وتنحو بي نحو السبيل الذي ينبغي ويرضيني فلا أقدر! وصار أمراً عادياً عندما يأتي حدث، فانقسم ازاءه في الرأي نصفين، فتغلب "ذات الواقع" على أمري، وعندما ينتهي الحدث، تقوم "ذات النت" بتنظير مُتماسك وحصيف استحسنه، فأتحسف على بقاءه حبيساً، واستهجن مروق ردود فعل لا تمثلني وازدريها، فما أريد إخراجه للعلن انضوى كامناَ، وما أريد اخفاءه انبرى واضحاً! مسلوبة اطرافي ولساني من قبل قُوى لا تمثل شَعب نفسي ولا منتخبة من قِبله، ولا أدري كيف ان جزء هزيلاً وكليلاً أمام الناس يكون بتلك الشوكة والنفوذ على نفسي؟ سأقضي عمري بهيئة مزورة فُرضت بقوّة عُليا، وعلى أمل ان ابدأ حياة بشخصيتي التي اريدها، ولربما سأموت ويبقى داخلي يتشوق بداية حياة منحوتة بإرادتي. إذن ثنائية الواقع والنت عندي مثل فيلم ماتريكس، تأتي شخصية البطل نيو في الواقع ويتم توصيلها بجهاز فيدخل المصفوفة - العالم الموازي الافتراضي- وتتضاعف عنده المهارات والامكانيات.

على أنّ النت شيء من صناعة البشر، وما كان بشرياً يقلّد وينسخ مصنوعات الطبيعة الواقعية، فإنّ لذته ناقصة لا تكون بثراء الأصل المبروء إلهياً او الإنساني الواقعي، فكان النت هو مجال لاستكشاف طعم الشيء، ولكن دون ان يبلغ تمام طعمه، كما تفعل المرأة عندما تطبخ وتتذوق بمسحة من لسانها نكهته للإبانة عنه، ولكن دون أن تصل إلى كامل لذة التذوق، أو مثل لحم نيّء تأكله بشكل خام ولكن غير مشوي تحت نار هادئة حتى يشبّ إلى منتهى لذته. الملمس الذي تهبه الحواس الخمس عندما تتفاعل وتباشر الواقع لا يمكن للنت ان يعوضه، فينتج لذة عرجاء غير مستوية على التمام، حتى إنّه ليُخيّل لي أحيانا أنّي عِشت الحياة في عقلي وخيالي، أكثر مما عشتها بعنفوان حواسي. فالبون شاسع عندما تقرأ كتاباً ورقياً وتستفرد بامتلاكه لا يفصل بينكما حجاب، وتتحسس بأناملك الصفحات وتناجيه في خلوة صفية لا يشوشها شيء، على عكس الكتاب الالكتروني الذي تشعر بتباعده، وتواجده ضمن شاشة فيكون شيئاً في شيء، ويتزاحم ضمن أشياء ترسل تأثيرها أثناء النجوى معه، فتستقطع وقتك بوقاحة- مثل دقة الشبابيك المزعجة في يوم عاصف وهي تقطع عنك نومك كلما تغلغلت فيه- فتخسر بذلك لذة الكمال في القراءة، أو مرات عندما افتح فيديو لمناظر طبيعية بدقة عالية تمنح للطبيعة واقعيتها امام عيني فكأني لا أشاهد من شاشة، فاستمتع-مثلا- بنقاء جدول الماء وخريره الساري، فاشعر بان حاسة الملمس تتحفز بشراهة أن ترتوي قدمي شرْبَة هنيّة من الماء، وتتنسم عذوبته الباردة في انحاء جسدي، أو حاسة الشم وهي تتوثب لإن تستنشق صفاء الاوكسجين

الخالص الحائم في الطبيعة، ويدوخ المخ من لذة سريانه فيه، ولكن ترتدّ هذه الحواس حسيرة وهي ترى العين تُمْلي مادّتها من المشهد، ولا يوفّر لهم النت فرصة الاغتراف منه. وكان لهذا أثره السيء في التعود على هذه اللذات الالكترونية المنقوصة؛ هو الرضا بها بديلا عن استيفائها بالواقع، فأقنع بالنقص كأنه التام، حتى إذا ما صادفتها في الواقع شعرت بدهشة ضخامة مُتعتها لطول انصرافي عنها.

الرسالة الأخيرة:

سُبّوح قُدوس شهرزاد. تراجع عندي وهج عالم النت، ودحرت لساني عن مقاربته إلا قليلا، هذا العالم الافتراضي الذي عمّرته واستبشرت بعمادة تعميره طويلاً؛ قد تآكل وأصابته الشيخوخة، ويعيش زمنه الأخير ما قبل القيامة عليه وتهدّمه، فلم أعد قادراً على مجاراته واتخاذ مكان فيه يلائمني، ولا أدري من بعده أين سأتجه وكيف سأعيش؟ أريد مكاناً أخلد اليه براحة الطفل في رحم أمه. ثقْب الفراغ يتلقفني بقوة وما بقيَ إلا حاسّة العين تتفرج وتواكب وتستبصر تغيّرات العالم. قدراتي الذهنية تراجعت، وركبها ضعف تركيز يحتاج إلى وقت كي يربط بين الأشياء، وتهالك دماغي امام القراءة ونفضت عنه قراءة الكتب الدسمة والثقيلة كي لا يصاب بدوار الفهم واختناق العقل في تبديد الغطاء عن معانيها، وانكفئت واكتفيت بالروايات، لأنها لا تستوجب نذر جهد عميق في قراءتها، وكأنّ عقاب أناله الآن جزاءاً وفاقاً على انتقادي الدائب في حصر الثقافة في الروايات ودرأ النظر عن بقية العلوم حتى أني اسميْتهم "مثقفي الروايات"! فالقراءة معقلي الأخير الذي اتحصن به من بأساء وضراء الحياة واحمي بهل عقلي من الجنون؛ قد بدأت بالتخلخل، ولا يبدوا أني سأصمد في قادم الأيام على قراءة حرف واحد. هناك لمحة جنون بدأت تداعب عقلي وتُزاحمه، وتبرمج سلوكياتي على أشياء خطلة مثل ضرب الرأس بالنعال او الضحك بلا مبرر واضح! مازال الوعي متمكّن ويبسط السيطرة عليها ولا يسمح لها بالتمدّد، ولكن أخشى ان يتفاقم

الامر مستقبلاً وتتسرطن وأصبح كائن غرائزي لا يملك قُبّعة عقلية تهذب سلوكه. الموضوع مخيف؛ لان وعيّ بنصف إغماضة، وبالكاد يدرك من الشيء نصفه أو اقلّه، على عكس بقية الأصحاء الذين يدركونه كلّه. غُمامة أحيانا تحجب عقلي واتساءل من أنا؟ ولماذا أعيش هنا؟ أظهر استغراباً، وكأن أحد نقلني الى هذا العالم بالخطأ! أقول بداخلي متى اعود الى عالمي! لا أعلم ايّ عالم أقصد؟ أنا ثابت في نقطة واحدة على سريري اغلب اليوم، ولكن أهرول بخطوات مخبولة متخبّطة غير معلومة الوجهة! وضعي مختلّ ويجعل من الملائكة -انقى مخلوقات هذا الكون- حيوانات برية مفترسة تحدّ مخالبها عندما تراني! لماذا؟ اكتب هذا الكلام حالياً وقيامة الحرب العالمية الثالثة قائمة في داخلي. إذا متّ فأتمنى ان يُكتب على شاهد قبري "قتله الصمت والخوف". اشعر امام هذا العالم بخوف نمْلة سُلَيْمان-ع- عندما رأت جيشه العَرَمْرم ولا طاقة لها بمقاومته. لا أحد معي ولا أفهم كيف انّ مليارات البشر تخلّت عني؟

انقطعت عن رذاذ النشاطات الصغيرة في العالم الخارجي وانسحبت بالكلية عنها مثل قيادة دراجتي الهوائية في الأصيل لرياضة النفس، أو شراء الخضروات والفواكه، او إتيان المسجد... فمشوار بسيط اخرج به، يثير بي ألف تساؤل من القلق الحذر والتعب واختلال التوازن. أوقفت مصروفي الذي كنت ارتاد به المطاعم في الامسيات او لشراء البضائع الصغيرة. المال الذي يعض عليه الناس بالنواجذ فاني لم اعد أستسيغ تكريسه لملذاتي وحدها، وأصبح الضمير يندد بجعله وقفاً جارياً

لي لا أطرح منه للمحتاجين، لذا اتلقف الحصة الأكبر من مدخراتي وأنفقها على المساكين، وأرى ابتسامة الربّ في ثغورهم عندما أبصر وجوهم المستبشرة بالعطاء، وانظر لدعواتهم كاسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، واغتبط بها وهي تعرج الى السماء ببراق إخلاصها وليس بينها وبين ربها حجاب. لذا تنتشي الروح ويصفق الضمير بحبور على هذه المشاركة مني، ويحتج الجسد بأنانية على هذا الاقتطاع من المال؛ لأنه يرى نفسه الوحيد المخوّل بإدخال السرور إلى قلبي، وإن على جميع دنانيري ان توضع تحت يده حتى ينتج من المباهج أقصاها، إلا ان الضمير لا يعتد به ويمضي قُدماً. ولعقلي رأي اخر يدغم به تبرم الجسد فيرى إنّ في إنفاق المال مدد ينعش جدوى وجودي في الحياة قليلاً، ويخفف من عذاب إفلاسها المحبط، فاخلد الى هذا الراي المستنير، ثم يعزز الوازع الديني بقول نافل يرى ان الذنوب لا تنضب في حياتي، والانفاق بمثابة الأحجار التي تسدّ شيء من منابعها فتقل الاوزار. ولو اقتطعت من مالي وابتعت بها سلعة مادية فان تنغيص يدعك متعة اقتناءها. وكثيرا ما يراودني عندما اضع المال في محفظة المسكين أنّها ستكون الفأس الذي يحطم استحكام حلقات الضيق فينفرج همّي، فعندما يستشعر الانسان تجمهر المصائب حول عنقه، ثم يساهم في تقليل ثقل شخص آخر مثله، فانه يحس بلذة قوية -لا يجدها الانسان المتيبس من النوازل- وهذا ما يحصل لي عندما اعطي، فما أكثر الأيام التي اشعر باني فقير في نفسي وروحي، واحتاج إلى ردفها بالإثراء الذي أحظى بشيء منه بتفضّل فقراء المال واخذهم من مالي. ولو طرق الباب مسكين ولا

أجد عندي مالاً، فاني استحيي من لقائه واتوجع ردّه مكسوراً خالي الوفاض، فابغض قلة حيلتي على تكسب المال الوفير. وهذا الاتجاه مع اهل الفاقة لا يرهن ويحبس نفسه عندي فحسب، وإنّما يستنكر ويستعجب أن يكرع الناس من الكماليات بنهم ولا يتلقف الفقير منهم إلا فُتاتْ اعجف لا يسمن ولا يغني من جوع، ويشجب تملّق الناس بالبشاشة لأهل اليسار وتلقّي أهل العوز بوجوه عابسة وواجمة وأحيانا متأففة. وقد يُرى ذلك على انها مثالية مبالغة مني، ولكن لن يفهمها إلا من اكتوى في فرن البلاء فما الفقير والمرض إلا "فُولة واقتسمت نُصيْن" ولا أجدر من توائم الشدّة على فهم بعضهم البعض. ولكن اخلاء جيبي الدائم وفي أول الشهر لأجل المحتاجين على ما فيه من لذة روحية؛ فانه يشعرني بأذى نفسي، فمن موارد الرضا النفسي لشاب في مقتبل العمر، هو جلوسه على رُزم من المال حتى لو لم ينفقها في شيء، لذا يأتيني الاستياء عندما أرى خزانتي فارغة ويخامرني الفقر وسط منزل يملكه افراده رواتب عالية، وتأتي لي أيام لا املك ثمن شراء بطارية بسيطة لماوس اللابتوب، وأتعفف عن طلب المال من أحد، ولربما يطلب مني طفل مبلغا بسيطا أو شراء حلوى له، فاستعر خجلا من انتفاء قدرتي، وأزداد حرجاً عندما أرى أحد والديْه ينهره بعينه أو بكلامه من الطلب مني! فمصروفي بالأصل يأتي من ايجار بيت ورثته من والديّ ويقتطع لي حصة منه، ثم يأخذ الباقي أحد اخوتي لإشراكه في الانفاق على البيت، لعلم الجميع أني اتقاعس عن تدبيره، وعندما ينفذ مصروفي المقتطع استحي أنّ اطلب وأخذ من مالي الذي يُديره!

أرجع فأقول دفنت نفسي تماما في غرفتي بعيدا عن العالم، وتسميتها بغرفتي ليس دقيقاً أو كان في الماضي هذه التسمية. فالإنسان عندما يكبر يميل إلى غرفة خاصة به يمارس فيها سيادة خصوصيته، ولكن غرفتي ازاول عليها سلطة جزئية، لان فيها مواد غذائية مصطّفة على طول أحد اضلاعها، فتصبح مرتع للغادي والرائح عندما يريد شيئا منها للأكل والطبخ، مما يجعل لها تسميتها الثانية هي المخزن، كما أن فيها اسرّة يرتادها الضيوف ويشاطروني فيها أيام عديدة، مما يجعل لها تسميتها الثالثة هي غرفة الضيوف، وقد يأتي أطفال في البيت ليلعبوا فيها وقت ما شاءوا ويقلبوا عاليها سافلها، مما يجعل تسميتها الرابعة هي غرفة الأطفال. لذا خصوصيتي منتهكة والجميع يعرف ما فيها من صغير وكبير، حتى ألبستي الداخلية والوانها، ولا اشكال أخلاقي لو دخل أحدهم وانا في حالة تغيير الملابس، أو لا أضع على جسمي سوى قطعة شورت! ولا أستطيع الاحتجاج في بيت ليست بيتي، ولا اريد مراكمة النفور ضدي لو ابديت المعارضة المستمرة. أحب ان أبقي محبوباً وديعاً حتى يسلم لي وصول علف الطعام والشراب الى حضيرتي، وإبداء خفّة حضور ولو ان ذلك يكون على حساب زيادة ترهّل ثقلي، والبقاء صامتا منحني تواجد ريشة الهواء الذي لا يُزاحم مساحات الاخرين. حققت التواجد غير المنظور لدرجة لو جاء زائر للبيت، وكنت خامس افراده المتواجدين، فإنّه سيعدّهم أربعة وينسى حضوري، ولا يأتي للسلام عليّ، أو لو خرج اهل بيتي جميعاً فان الباب الرئيسي له يقفل من الخارج ويضعوا المفتاح

عندهم ولا اقفله أنا من الداخل، فيكون وضعي اشبه بالمسجون! هي إهانة ولكن عليّ دفع ضريبة صيغة الحضور التي اريدها.

هذه التغييرات حصلت عقب عام الحزن الذي توفي فيه والديّ. لا شك في أن موتهما أهاج وأفجع حاسة الفقد لبشر لأول مرة في حياتي، ولكن موتهما كان مريحاً لي. لوهلة هذا الكلام يقطع صلة النسب مع الإنسانية فلا استحق الانضواء فيها، ولكن وعيّ الحقيقي بوجودهما بدأ مع بداية محنتهما الكبرى في حياتهما. فهذه امي لم أفقه منها شيء سوى الشكوى من معاناتها المرضية بكراً واصيلاً، وملك مجامع لسانها الحديث عن المرض والتدقيق في جعبته وعلاجه والتغذية الصحية فتحيل جو البيت الى مستشفى. كنّا معاً في أغلب الوقت داخل البيت واسمع أنين وجعها المستمر فاكرب من قلة حيلتي، وأنا اضطرب نفسياً امام تأوه قطّة فكيف لو كان انسان من لحمي ودمي؟ وجودها يغطي على تلبية كثير من حاجاتي، ولكن منظرها المُنهك يبعث تعباً لم تكن تعلم به، كنت أقرب الناس إليها وبالتالي المسؤول عن إيفاء ما تريد، وهذا المرض نشف ريق طاقة جسدي واقعدني عن المبادرة الفورية إذا ما استدعاني شخص وطلب مني شيئاً، فقلّدني ذلك سوء في الاخلاق لم يكن له موقع شبر عندي فيما مضى. يثور التعب في داخلي ويحتجّ نافراً ومقطباً لو طلب أهلي حاجة مني، فادخل في لُجاجة كلامية وعناد معهم واختم بمغبّة أخلاقية فادحة وتدابر إلى حين. فأخلو إلى تأنيب ضمير مستاء من فضاضة لساني واندلاعه المُتدني المستمر، وأمعن في كره ذاتي التي يكشط جلد جمالها

بموس التعب. كنت أنهى نفسي عن الشَكوى المرضية ولا أتخذها ذريعة أقدمها مع كل طَلب مني، فأظفر بالإعفاء عن خدماتي، فأورث ذلك حُسن ظن بقوتي وقدرتها، فكانوا يحيلون لي طلبات متوسطة، فلم أكن في قرارة نفسي ضدهم، أو أقيم عليهم اللوم لو هاجوا وماجوا اتجاهي، إذا أظهرت استجابة قبيحة. كنت احامي بلساني الحامي دفاعاً عن ذاتي، وقلبي مع معسكرهم يقرّ بصواب تعنيفهم. أنا مريض كُتبت عليه الظروف ان يتلبس المعافاة زوراً فوقعت ضحية صراعات سوء التفاهم مع محيطي، فَهْمِي أصبح أكبر القضايا التي أحاول إفهامها للناس. وكان لأمي النصيب الاوفى من حظ هذه المعارك، فأحيانا تطلب منّي غرضاً فأتردد عنه، فتقوم هي به على مضض ولهاث حارق، وهي تنْصح أو تتوعد بعذاب عقوق الوالدين، وتنوّه إلى انحدار نُبل مروءتي، وتستبشع تغيّري، وتمردي نحوها، من بعد برّ كنت احوطها به وتستحسنه مني، أو تصمت وكأنّ في تعب فعلها الضعيف إشارة إلى قساوة في قلبي فلا يُرجى معه كلام لصرفه عن كف الأذى وبذل الندى، فكان ردود فعلها هذه تحرضي لتأدية طلبها وإزاحتها عنه بشكل عنيف، لان الاستجابة تتأتى من وجدان الضمير الناقم، والشراسة المرافقة له تتهيأ من مشاعر التعب؛ فيخرج بتلك التوليفة المزدوجة، فينحطّ الوضع سوءاً يُشعرها ان استجابتي ناجمة من منّة وكراهية وليس من رحمة حانية، ويزيد عذابي عندما أعلم إنها ستحجم عن الطلب مني مستقبلاً فتُضاعف من مسؤوليتها، أو تطلبه على خوف من ردّة فعل جافية مني. لا يمكن أن يعيش مريض مع مريض تحت سقف واحد. هي اجتماعية تريد دائما الانيس المحاذي لها فاستجيب

لها تارة، ولكن كُنت اغلب وقتي في وحدة، فاتركها مع ألمها تصارعه منفردة فتنقم عليّ ذلك، وتقول في حركة مسرحية "يا جبروت العزلة الي عندك"، وجودها المعذّب، وتقصيري في تخفيفه، كان عذابا دائباً، وعندما يشتد التقصير كانت تقول «عندما اموت ستتحسر على ذلك»! ولم تكن تعلم وتدرك أنّي اتحسر في تفريط حقوقها في حياتها قبل مماتها. يظن الاقرباء أنّي مفتقدها وكسر عمودي الفقري بموتها، ولا يعلمون أني لا أريد عودتها من راحتها الى شقاء الحياة! وأفضل ان أعيش مُهملاً من خدماتها الامومية على الاستنزاف النفسي الحاصل من وجودها. هذا المرض يزيد بقع الظلام الأخلاقية داخلي، وجزء من اعتزالي سببه تجنيب الناس شرّه الارعن. ولولا الخجل الحازم الذي يجعل مساحة اللسان البذيء باطنية؛ لناوشت اهلي اللسان السافل الذي لا يرحم. وهذا ابي الذي انخذل من زوجته الثانية التي جرّته الى مشاكل طاحنة وطوّرتها الى محاكم كسر العظام، فارْدَته مّحطّماً ووحيداً، وهائماً، وباكياً في أواخر عمره لم يستحمل ما جرى من عنف بحقه، فرَحمته جلطة دم..

كنت أعدّ ذاكرتي وعاء صرف محايد تضخ المعلومات عند الحاجة، صخرة صمّاء غير منقوش فيها أثر للعواطف المهيجة الفاقدة، تصافحني بسلمية تخلو من مشاعر عدائية تشن حرباً ضروس، وها هي اليوم تبدأ عملها في إثارة كوابيس الاوجاع التي خِلتُها ستنتهي بموتهما، تستعيد سيناريو معناتهما واجترار طعمها في حلقي وتقمصها كما لو انّي صاحبها. طغى على ذاكرتي مأساتهما فكأن عمرهما من المهد الى اللحد

مقتصر عليها. لا أعلم شيئا عن أيام سعادتهما المستقرة في الصبا والشباب والكهولة وبداية الشيب، سنين المحنة القصيرة أكلت أعوام البهجة الطويلة، قطع حياتهما الهانئة التي رسبت في ذاكرة طفولتي أصابها آفة النسيان وتبتلع التشويش الضبابي لو حاولت استدعاءها، لا أدري لماذا اجتزأت تلك القطع وجُزّت من حقول ذاكرتي، ومن المسؤول عن ذلك؟ أجد اهلي بسهولة يسترجعون ماضيهما الزاهر مع والديّ، وانفردت أنا بالجزء التعيس منهما، هل هو مرضي يعمد على تضليل الذاكرة والتحكم باختيار الأيام المستبشعة حصراً ودهس كل ما يمت للسعادة بصلّة؟ أم سنة الحياة أن العام اللاحق يتسيد ويغلب في الذاكرة على العام السابق فاستنسخ نخالة أعوام والديّ الأخيرة أعوامهم السابقة الزاهية؟ هل كان ادراكي متأخرا للعبة الذاكرة فكان عليّ ان استنطق ذاكرة والدَيّ وأعبّ ذاكرتي منهما لتكون زاداً أقاوم به أسى عمرهما! لعابي يسيل عندما يطرق اذني خبراً قديماً عن نزوة عابرة لأبي، أو تكريم عن شيء تفوقت به امي مثلاً، يشتدّ الحنين لمثل هذه الانباء السالفة واتأكد منها ان طيلة حياتهما لم تفعم بالوجع كما تتوهم الذاكرة وتدلّس عليّ. اعترف أني قصرت في الاستزادة من التعرف عليهما، وزادت عزلتي من فجوة تكوين علاقة مشوّهة انتصر فيها الألم على اللحظات الجميلة، فأبي عندما كان يزور أسلم عليه سلام المجاملة الدبلوماسي، وانتحي ركناً قصياً متفرج اثناء تواجده ولا ابادله كلاماً إلا قليلاً. أتأسف عندما استدعي ذكرى لطيفة معه عندما كان يعضّ معصمي، فيصنع فيه ساعة لحمية منقوشة على الجلد، وأقارن هذه الذكرى وامتعض إلى ما آل اليه الحال

من برودة لا تصح ولا أستطيع إصلاحها. الابوة عندي مغيّبة في ظلال ماضي الطفولة وشيء مضى عليه دهراً طويلا، لديّ عاطفة قوية اتجاهه، ولكن كلما رميت سنارة اللسان لاصطاد كلمات حميمية يستدعيها موقف ساخن بالمودة، ويتعيّن فيه ان اطارحها شخص قريب او غريب اجامله؛ فإنها تقابل بساتر سميك يصدّها عن الخروج، فأتحصن بالابتسامة وهمهمة خافتة غير مفهومة كمنجى وحيد يرمم خذلان اللسان. وهذا حال قديم عندي واستغرب من الناس تواطؤهم السهل في مبادلتهم كلمات الوِداد مثل قلبي أو عيوني أو حبي، حتى لو جمعهم حدث عارض مع عابر طريق لا يكنّون له محبة خالصة عميقة وسابق معرفة! ولا أدرى هل امتدح هذا الاسراف في الكلمات -مع كل من هب ودب- الذي يدعم اللباقة والوئام بين الناس، أم يحط كثرة استعمالها الباذخ من قدر فخامة هذه الكلمات وجعلها مبتذلة وزلفى للتملق المصلحي؟ احتداد الخجل عندي يميل لإغلاق العواطف بصرامة جامدة وحادّة، وهذا الشيء عزز من الجفاء الظاهري مع المقربين. ونشأ اعتقاد مرضيّ يرى عزة المشاعر في كتمانها، ورخصها في اشهارها، وأن الضعف يتعلق بأذيال المشاعر ويرافقها عندما تظهر، وهذا تلازم شائع في تلافيف ادمغة عالم الرجال، لذا فان تفشي وباء الضعف عندي وحرصي على تطويقه، يجعلني اظهر مشاعري بمقدار نادر. على أي حال من الصعوبة ان أجد استقرار نفسي اتجاه والدَيّ، مادام هناك عدم توازن في الذاكرة بين الحلو والمرّ من عمرهما...

يتغذى اليأس ويتكتّل بداخلي سنة بعد أخرى يا شهرزاد، وكلما يتمادّى بقاء الأوضاع الراهنة التعيسة، ولا يُخْلق شباك في روحي لتهويته من عفن ركوده، فانه يهلهل لذلك فيزداد عُتواً ونفوذاً، ويبدأ عقلي ينعكس عليه اشعاعات اليأس ويتسرب له الاعتقاد بجبرية الاحداث ويميل-غير جازم- الى النفر القائلين بأن الانسان مسير لا مخير، ويعطي للحظ دوراً موسعاً يقترب من حدود الخرافة في تفسير صعود طالع نجم البعض ونحس غيرهم. سابقاً كان تنتشي اساريري مستبشرة كلما شق لي باب أتامل أن يقودني الى فجر الفَرَج، ولكن أصاب يدي الاعياء من طرق الأبواب، وأصبحت أراها توائم تؤدي إلى نفس العواقب المحبطة، ولم يغريني بريق أيّ واحدة منها لو جاءت لي على هيئة موكب رئاسي! وكل ما تكرر تقرر، فاستوْثق يقين النتائج الخائبة، وصار الامر بمثابة نظرية يمكن التنبؤ بذات نتائجها لو أُعيد تجربتها مرات لا تحصى. جف بئر الصبر فلا أجد عزماً في استكمال مشوار تعقب الحلّ الذي اراه يرتحل مني لو اقتربت منه، ولا اتحاشى إطلاق سخريات ممزوجة بغثيان عندما التقط لقطات تتحدث بأن النفس لو أرادت شيء واستغرقت تركيزها فيه، فان الكون يتجاوب معها في تسخير موارده لتحقيقه لا محالة، ويبدوا ان خرافة مصباح علاء الدين قد عاد بهيئة عصرية يسمّى "قانون السر" الذي يروج له صنّاع التنمية البشرية الذين أصبحت اشمئز من سماع محاضراتهم ومن يقلدّهم. يرتحل اللوم من صلادة الظروف إلى نفسي، فيُوسعها تقريعاً على ضعْفها، ويجْلدها جزاءاً وفاقاً على فشلها، ويوجه

طاقته التدميرية لسحقها، وكأنّها شيء لا يملك استحقاق الوجود، وزبد يجب ان يذهب جُفاء ولا يمكث في الأرض.

ولكن أحيانا عندما ما يستحكم عندي الألم ويرجح كفة اشتهاء الموت، وأكرر بهذيان ما قالته السيدة مريم-ع- وقد اصطف جيش العسْرة ضدها فقالت "يا ليْتَني مِتُّ قَبل هذا وكُنْتُ نسياً منسياً" -ولا اعلم كلام يحتضن حالة الكرب ومعبّرا عن اوْجها ومتنفس عنها مثل هذه الآية-؛ يبرز سنا برق تحدّي الموت يضيء بين الفينة والأخرى، ويأبى الختام على وضعي الذي قطع شوطاً كبيراً ببلوغ الفشل الذليل، وأشهق فزعاً وأسى لو تخيّلت عاقبة حياتي مرسومة بهذه الهيئة المبتذلة، ولا أسمح بإرادة الموت التحكّم والتضحية في سبيلها، فما زالت هناك امنيات تعاندها بعتوٍ صلف. وكثيرا ما تعاف نفسي وتغص بأسف قصص اشخاص قضوا نحبهم بعاقبة وضيعة، كأنّ قدم عملاقة تشعر بالضجر دهستهم بلا اكتراث، وأتأنف ان ينسج الموت نهايتي على منوالهم واحتفي بالعدم على ان اموت مثلهم. وحتى الانتحار -ففضلاً عن أنّ وسواس الموت يمنعني عنه- فانّي اتكبّر عنه؛ لأنه عاقبة تنقش وشم الحقارة بنصوع على جبين حياتي، ولا اريد لهذه المأساوية ان تكون قصة ترويها الأجيال، ويضربوا بشجن كفاً بكف على مصيري الدميم، أو يدعوا الله على أن لا يبتليهم بمثل ما جرى لي.

ولكن بارقة الامل هذه تتوارى، كلما اعلم أني اخفقت في ترويض شراسة تكالب الظروف اتجاهي وتجريدها من قوتها، أو التقليل من

غلوائها، وليس كسلاً من عند نفسي كما تظنين يا شهرزاد. فكلما استجمعت بأسي لشق درب اخترق جدارها الفولاذي، فإن جهودي تبعثرها الرياح قبل أن استكمال كدْمة أو خدش فيها. اصبحت بطل عريق في الاستسلام مبكراً، وماء صبري يجفّ سريعاً في رمال حلبة نيل شيء ممّا أريده، فأرى كل مشوار استهلّه لا نهاية لخطواته كالتائه في الصحراء يدور في حلقة مفرغة ولا ختام مما فيه، فصار الفشل يقع نصب عيني عند الشروع بخطوة قد تغيّر حالي، ولا التفت لزيف حماس العاطفة للابتداء بفكرة يعرضها الخاطر او تسمعها من غيرها، واراها من الأفْك القديم الذي طالما أضلني سواء السبيل عن تقدير امكانيتي الخائرة وقدرتها في تحقيق ما اصبوا اليه.

تراكم الفشل والتخفّي، وتكدس الكبت والقمع الذاتي والخجل المتعاظم... كُل ذلك، جعلني لا أرى لنفسي شيئاً، وأن وجودي خطيئة قد جاء فلتة وينبغي ان يستأصل، أنّي زائدة دودية في جسم هذا العالم لا نفع يصدر منها، والعطاء الذي يغدق على كومة جسدي البالية لا يفيئ بالمقابل عطاءاً منه، والأحرى أنْ ينفق على من وجوده يدرّ من ضرعه سخاءاً مفيداً. أحيانا أرى شخص يضج من محياه فُتوّة الشباب الخلّابة فيموت فجأة، واتحسر على فنائه وهو في قمة النضارة، وأجوب على خراب نفسي واستغرب بقاءها! وارى وطئ الدنيا للمنطق العقلي الذي يقول إن الأنفع للبشر هو البقاء للأصلح وليس لعديمي الجدوى والعالة عليهم، فأتأسف على زوال من يجب بقائه، وبقاء من يجب زواله! أرى موتي هو

مصلحة للآخرين وتخليص لهم من عبء توفير متطلباتي المادية، وتهديم غم مستقبلي وكيفية ترتيبه، وكذلك وراثة ما انزلق لي من إرْث والديّ والذي لا يستهان بحجمه، وسيساهم بتحسين دخلهم المادي، ولن يؤثر موتي في إحداث شروخ بالغة الضرر في حياتهم، فلستُ مرتكز يُستند عليه فيخل توازنهم لو رحلت، فما هي إلا فترة تتوشح افئدتهم بالحداد حتى اعود نَسياً منسياً وكأني ممحو من سجل الوجود ولم اكُ شيئا مذكوراً.

هذا الوضع جعل اعتناق العدمية مغرياً لي يزحزح عن عاتقي تجشّم المعنى، أو إلحاق ما يكون إلى ما ينبغي عليه أن يكون. ألا أؤمن لو حركت الأشياء إلى نقطة ما ستكون أفضل حالا مما عليه الآن. أن الغي ضرورة تبوأ مركزاً بين الناس أزهو به، أو أعلق بصدري نياشين الإنجازات! ألا أرى بأساً لو حُشرت مع المُعدمين الذين إذا ما حضروا لم يُعدّوا ضمن المدعوين، والذين قضوا نحبهم في غِمار المغمورين. ألا استشكل وجود فرق بين المتسول والجنتل مان أو الملك والصعلوك. أن انظر إلى الطموحات والاماني لغو واضغاث أحلام. أن ابصق على ما تواضع عليه الناس فلا انْتحب لو خالفته، أو أُطأطأ رأسي حرجاً لو غايرته. ألا أنشغل بترتيب الأشياء لو شردت عن موضعها في النظام واتركها تسير على عمى وترتطم بمن تشاء. ألا انشغل في تحقيق ما يصبوا اليه الشباب من تحقيق ذواتهم، أن اجعل الوجود حشيشة استنشق منه ما يخدرني عنه. أن لا أكون بيدقاً في قضايا مصيرية كبرى أفنى فيها

سبيلها وطنية أو دينية. ألا اتعصب لرأي اعتقده وانافح من اجله واهلك من دونه، ان لا انخدع بفخ خلق المعنى لأشياء تتنفس نفاسة حتى أكبرها وأجُلّها في نفسي، وأساكن ضَنَك قَطع المفاوز الذي لا ينتهي لنيلها. ألا أعيش على قيد خط مسيرة لقنوها لي فامتطي نَصب الالتزام حتى لا احيد عنها. أن اتوسّم أن العبث يدغدغ أشياء الوجود والسراب هو الكامن في كينونتها. ألا أمد عيني إلى متاع الاخرين الذي ستكون عاقبته الحتمية صعيداً جُرزاً. وإذا كان القانون أن كلّ جديد يضمحّل ويبْلى، والنسيان سيلحق ذاتي بعد مماتي فأُطوى ولا أُروى، فلا مسوّغ لعمارة حياتي التي سيعمها الخراب في نهاية المطاف، أو الاهتمام بتحلية نظر الناس بما يشتهون. لا يجب أن أُطرب مسروراً إذا جدّ ما تطيب له النفس، أو تذهب حسرات على فواته، فسُرعان ما تتبخر طلاوته ويتخطّفه الاعتياد...

ينكمش قانون السببية ويقل مفعوله في عقلي. ويرتد بي اليأس إلى القرون الغابرة، ويكون نبيّ يجدد لي الايمان بالمعجزات. فأتلصص بعيوني السماء بين الحين والأخر، لعلها تَهب ما يخرق به الأسباب وتنجلي به الكربات. تنشط بضراوة أحلام اليقظة في تقليب الهيئة التي يأتي على صورتها الفَرَج وتعقيب فعلي عليها، فأتخيل -مثلا- أنّي في المنام، ويأتي لي ملكان وقد نبشا من جوفي علقة سوداء فاستيقظ منه، واتحسس نفسي غير مصدّق وقد زالت منها الاسقام، ويتوسع بؤبؤ عيني من الدهشة، ويطيش وجداني ويُجنّ من الفرح، وأرى الحياة تتجسد في الأرض فاجثوا على ركبتي وانحني عليها أُوسعها تقبيلا! وأتمدد عليها

وأباعد ما بين رجليّ كأنّي أحضنها اغتباطا بعودتها! واصيخ السمع إلى صدري، فاسمع لكمات صرخة هستيرية تنتظر إخلاء سبيلها، فاعصر نفسي بكل ما أوُتيت من قوة، وكأني استجمع كل أصوات العالم فأخرجها مدوية من فمي تشق الجدران وترن في كل الآذان، كأنه صياح لاعب قد سجل الهدف الذهبي لفريقه وأتى له بكأس البطولة، فينتاب رأسي الدوار وأهوي الى الأرض تارة أخرى، وقد تصرّمت طاقتي من جراء جلجلة صوتي، وتنساب من عيني دمعات وقد كانت تنتظر دورها لتشاركني هذه الاحتفالية المهرجانية. واتذكر الله تعالى فألوم نفسي على طيش حركاتي النزقة، وقد كان الاجدر بي ان احفّ نفسي بخشوع راكع له، وارمق بداخلي امتناني الذي لا تسعه السماوات والارضين السبع، فاشعر بأنّي ناسك يذوب حباً وشوقاً له، وابتغي ان لا يفارق جبيني السجود حتى اخر رمق من حياتي. وأتخيل أهلي وقد هرعوا لي وعقدوا ما بين حاجبيهم استفهاماً على تصرفاتي المجنونة هذه، فأزف لهم بشرى النبأ بزوال مرضي بطريقة مضطربة وأقول لهم: انظروا إلى سواد ما تحت العين وقد اطرق رأسه لي مودعاً بعد هذه السنين وتاركاً خلفه التوهج الابيض، لا تصدقون؟ أستطيع الآن أن آكل ثلاث وجبات باليوم وزيادة، لأن نقص الشهية قد رُدم، وقائمة الأطعمة التي نبذها ذوقي بسبب المرض، قد مُزّقت شرّ مُمزّق وكلّها أصبحت رائقة لي، فلن تحيروا وأنتم تطبخون لي! اطلبوا ما تشاءون مني وكل طلباتكم مُجابة. وكلّي نشاط وحيوية، فلو جريت من مشرق الشمس إلى مغربها لن يمسني لغوب، ولن تعلوا محياكم الشفقة على حالي الرثّ وتيه التدبير اتجاهه، فلقد شببت عن الطوق اخيراً

بعد تأخر نضجه عن الوقت المعتادّ! واعتذر لأكتافكم فقد أطلت المكث فيها، وأنتم أيها الأطفال لن اوبخكم بعد اليوم بسبب ضجيجكم العالي، فلقد صرت الان لهيب من صخب، وأنتم أيها الناس رحبوا بعودتي الى صفوفكم بعد انقطاع عنكم لم يكن بيدي وسأخدمكم بكل ما تريدون، فأنا مثلكم الان، واشبه تفاصيلكم، فلن تستغربوا شيئا مني بعد اليوم، وأنتِ يا امي لا أملك بوق اسرافيل وانفخ فيه، حتى تخرجي من مرقدك، وتنظري لي وقد أُنشأت خلقاً آخر، فيثلج قلبك ويقر عينه، وانتِ التي طالما كنتِ ترددين «قد كسرت ظهري، وأريد الموت والقلق قد زايل قلبي على مستقبلك» ...!

******

لربُما الان تقرأين رسائلي ورأسك يموج من صدمة الاكتشافات المتتالية، وأنا ازيح التحنيط عن الجانب المواري لشخصيتي. تندهشين بإعادة خلق تكوين شخصيتي أمام ناظريكِ وتحطّم الصورة التي رسختها بكِ. لطالما تساءلت هل ستحبيني بهذه الشخصية المتدنية الخالية من قشور شخصية النت الوضيئة والمصطنعة؟ تحت مشهد عيني ذممتِ شخصيات لم ترق لكِ، وفيها شبهاً مماثلاً لقالب ذاتي الذي أخفيته عنكِ. سأضيف هنا سبباً آخر جعلني اتلكأ بالكتابة أوّل الامر، وهو رعب ان تعرفي حقيقتي الكاملة، فتخلعين نفسك عني أو تلوذين بالمجاملة المستهلكة وهي انّي أقْبلك بكل عيوبك...! لمّا سألتكِ ذات مرة «ماهي نسبة غموضي بالنسبة اليكِ»؟ قُلتِ بحصافة صريحة «ما عرفتك للآن»! مع أن نسبة تفاهمي

معكِ وصلت حد الاتساق والتطابق، ورغم هذا السبب وضعت في جيبكِ مفتاح الدخول الى قاصة أسراري لاستدراجكِ، وأرمي لكِ بدخان أحاديث خاصة بي لأرى هل ستكتشفين النار المندلعة منها؟ تأتي أيام تتلجلج على فمي شكوى تعبي فارتدع عن قولها، أو تعجبني أشياء اوّد مشاركتكِ فيها فأحجم عنها. كُنت أريد نسيان نفسي وأن عاملكِ بطريقة أبوية تأكل حقها لصالح أبناءها، وأفسح الحرية لنفسكِ أن تصول وتجول كما تشتهي في أرجاء ذاتي، لكأني صُرت عبداً مملوكاً تحت تصرفكِ ولا اجدُ غضاضة في ذلك، وإنْ كان يخدش رجولتي قليلا. التقيتكِ في محطة مُتعبة من حياتكِ فلا طاقة لكِ للاهتمام التام بشخص آخر، لذا أجّلت كثيراً مما في ذاتي واخفيته حتى اشعار غير مسمى، ولا يحزّ في نفسي لو أبديتي لا مبالاة اتّجاه اشيائي. ألا أخلق حالة نكد مستمر في مزاجكِ، وخصوصا انّك تمزحين بقولكِ لي: بانّي مَقيت وسوْداوي وسلبي.

ما أنا يا شهرزاد سوى مرحلة مؤقتة واستراحة للتعب ومقهى لدفع الضجيج الذي اقضّ مضجعكِ. افراز لحالة متدهورة في حياتكِ وفلتة دخلت بالخطأ. لو كنتِ في سالف قمّة حياتكِ فلم يكن لقمّتكِ أنْ تنحني وتلتقط التعارف في قعري، فالحطام يجذب الحطام. كنّا مخلوقات لغوية نتطارح الكلام، فذاك ما أصلح وأقام ومكّن اوْد علاقتنا. المُتعة في كوْننا شيدنا حياة خيالية نطرح به الواقع المرير عن مرمى انتباهنا. لو التقينا في الواقع سهواً او تعارفا غفلة، فستنصرمين عني غير واجدة بي الصفات الجاذبة. الالتقاء معكِ في الحقيقة يفسد لذة علاقتي معكِ، وتوهجها منوط

ببقائنا عن بُعد بلا ملامح ملموسة، الوصال ينبثق منه الافتراق والغربة بيننا ويطفأ جمر العلاقة، وكل ما قلته عن امنيات اللقاء بكِ اضغاث أحلام سرت ذات برق عاطفة عمياء. أنا كائن لا أصلح للزواج والارتباط الجاد بكِ على أرضية الواقع، فانتِ انثى لا تعترفين إلا بالكيانات المتجسدّة في العلاقات كافة، ولديكِ نمط وطراز من الرجال غير متوافر بي. وهذا ما يدفع بي ان امحي اشيائي الحسية من لحم ودم عن طاولتي معكِ؛ لأنها لا توافق معاييركِ، وهذا ما كان يعزز خوفي من فقدانكِ إذا سقط القناع الالكتروني عنّي. بالنهاية أنا كائن يقْتات ويتنفس كالخفافيش على الظلام الدامس، غير ملموس، كأنّي ذكاء صناعي بلا هيئة تجسيدية تمثّلني وتُجيد الكلام وكثير من العمليات الدماغية. ربّما يُناسبني ان أكون شخصية في رواية العمى لجوزيه ساراماغو، او دور في مسلسل "see" حيث لا وجود للمظاهر الخارجية المرئية التي أخفقت في إجادة مسايرتها.

يا شهرزادي، ودائما ما اضيف بشراهة ياء التملك لأسمكِ؛ لان فاقد الشيء يتكلم عنه كثيرا!، أقول: قد اتممت عليكِ رسائلي، وافصحت بصورة مُجملة ترجمة السؤال الذي اقارع به دائما: لماذا انا غريب الاطوار؟ وبيّنت لماذا انا شبح غامض ومنغلق وكأني أحد أبناء العالم السفلي وتحت طبقات الأرض لا أحثوا الخطى فوق تراب الحياة، ولماذا لا يصلح لي رداء الحياة أن ارتديه كباقي أبناء جنسي البشري، فأنا من ثلّة الناس الذي يقطعون رحم امهاتهم بانتظار رحم القبر، فلا يصح حال لهم

إلا حفرة مقفلة على مصراعيها، وإخراج رؤوسهم منها لاستنشاق الحياة يصيبهم بالاختناق.

رسائلي تكاد تخلوا إلا لماماً من أحداث تشويقية خارجية وأمكنة أرتادها، وشخصيات أساسية اشتبك معها، واصيغها في عقدة محبوكة متينة، لم أكن يتيم او مناضل سياسي او لاجئ حرب او شخصية بطولية او قاتل مجرم او مهاجر مضطهد... لستُ من أصناف الشخصيات الذين يتخذها الروائيين مادة دسمة لصناعة رواياتهم، ذاوياً وخاوياً عالمي الخارجي، ولا املك فيه احداث مثيرة تستحق ان تدوّن في شيء، فقط مجموعة من الاحداث الفاهية التي تجعل الفم يتثاءب لو سردتها. يحسب من يراني ان بساط حياتي يسير فوق رياح الملل الجاثم والسكون الهامد، كأني مولود من بطن جماد واتخذ زوراً الهيئة البشرية! كثيرا ما يقال لي كيف اطيق حياتي هذه؟ كيف استحمل نفسي وانا متكأ على ارائك من السأم كأني في حالة يوجا متأملة من سنين طويلة؟، لو كُنت في مكانك لانفجرت من هذا الفراغ الشاسع وأفرغت حشوة المسدس في رأسي! ولكن في داخل نفسي وعقلي وروحي جرى أغلب تيار حياتي المريض، وتسلسل احداث صراعاتي وارتطاماتها الرجراجة، فأكثر التفاتي واهتمامي كان صوب هذا المعترك الذي يدور بين جنبيّ، وحياتي مُخادعة وصعب اكتناه تفاصيلها؛ لأن كل شيء عندي يجري في غرفة عمليات سريّة غير مجاز لها ان تكون في زحام الناس. وربما عندي أشياء خارجية تستحق الرواية وتؤلّف مع هذا السرد لؤلؤاً منضوداً رائعاٍ،

ولكن مزقتها من بالي وانصرفت عنها بتأثير ظلال عزلتي، التي تميل إلى اقصاء ما هو خارج صومعتها، حاجتي إلى اضاءة باطني أكثر من ثرثرة حوارات خارجية قد لا تؤدي غرضي من الابانة وغير وافية بمقصودي من الرسائل اليكِ او تشرد الى حشو ولغو يعتّم أكثر مما يبين. هل هي رواية او مذكرات او اسم آخر؟، لا اعلم اسماً يعنون ما كتبت، ربما هي في الاغلب رواية مهجّنة بلقاح أصناف أدبية أخرى. ما أعلمه انّي تحريت الصدق والمصارحة المتوترة بنسبة كبيرة، ولا أدري إنْ حدث التواء لا واعي من قبل نفسي اثناء الكتابة، فأقحمت عناصر خيالية متكلّفة بريء منها فحسبت انها من آثاري. إذا أتممتِ قراءة هذه الرسائل ولم انقل اليكِ ثقلي وجعلتكِ تعانين فيها توتري؛ فأعلمي أني كاتب رديء أخفقتُ في إفهامكِ، أو ان موضوعي لا تسعه عبارة، أو انّك لم تفهميني وهذا أمر مستبعد! هل اخفيتُ عنكِ أشياء؟ الحقيقة أنّه بعد مسح مطالعة عدّة مرات للرسائل اكتشفت أنّي لم اقل شيئاً! هذا المتن الطويل من الصفحات يخامرني شعور أنّه لم يُحط خُبراً بخطر معاناتي! مازلتُ بذرة غامضة لم تتفتّق عن محتوياتها من جذع وساق وأوراق وثمار. أكتب هذه السطور الأخيرة وبداخلي غليان لنقض كل ما كتبته، وإعادة التأليف بما يوفّي حق نفسي من البوح. وهناك أشياء كثيرة هائمة في عمى ومندثرة في رواسب قاع نفسي تنتظر حفرياتي للكشف عنها. شيء ما يقول لي قف ولا تختم، واستمهل الوقت ليعصر من منشفة ذاتك المزيد من ماء آثارك، ولكن نفذت طاقتي للتنقيب عن مزيدي، أو لإني كاتب غير بارع ولا مُضّطلع في التفتيش جيداً في دقائق اغواري، أو ربما أُريد ان احتفظ لنفسي بغلّة ما

تبقّى، حتى لا أفرغ تماماً من غموضي، ولأخفف من غلواء جرح نرجسية خصوصيتي التي أرغمتُها أن تفتح مِصراعيها للقلم.

بعد ما حدث يا شهرزاد من هذه الفضيحة التشهيرية بي، واعذريني على هذا الالفاظ السوقية المؤقتة، حتى اعطي لنفسي فسحة ان ترضى بشرعية ما حصل، وتغييرها الى الفاظ مقبولة مثل الاعتراف او البوح، أقول بعد ما حدث: لم اعد صالح بعد الآن لحديث معكِ، ولا عندي وجه اقابلكِ به، ولا أقدر على الالتقاء بكِ بنفسي الجديدة. فحاليا انا كائن جلده قد تشوّه بسكب الماء الحار عليه ولا يقدر النظر في عينكِ. نفسي التي خلقتها من الفبركة هي للكل، وأما ذاتي الحقيقية البشعة تخصني وحدي، فلا أريد لها فضاءاً مجتمعياً ينظرها بعين الشفقة والاعاقة، فانا كمنديل ورقي تم استخدامه وتخلّي عنه مجعداً وممزقاً وقبيحاً ومستهلكاً، ولا أريد ان ارجع بهذه الصورة اليكِ. لا اريد ان استخدم كلمات الوداع فأنا أتناءى عنها وأرهب من استعمالها، وأحرفها عن طريق لساني لو انفصلت عن شخص، أحب إيهام نفسي أن للحديث بقية معه سيُستأنف في لقاء آخر حتى لو كان الفراق نهائياً. أنّ الراحل يسير بشكل دائري وما يلبث ان سيعود إلى نقطة الافتراق وأتصل به، ولقاءنا مُمّتد ومفتوح لا ينتهي ببثّ حلقات برامجه أو يوضع له الختام. لا أعلم أهي الهشاشة النفسية الغارقة في بحر وحشة الضعف، وتتعلق بقشّ الأشخاص الذين نحبهم وتتقوّى بهم حتى تنجو من بطْش الخُوار؟ أو هو الخوف من بقائي وحيداً وعالقاً مع الألم، فأريد كسر تركيزي عنه وتوزيعه عليهم حتى

اتناسى بهم مؤقتاً؟ أم أن وداع الاشخاص هو مسحة من الموت والاخ الأصغر له، فيذكرني بخوفي المتعاظم منه، ومدخل لتذوّقه المرّ قبل ان يأتي وقته واتجرعه واستمرائه بالكامل؟ أو هو شيء مُنسلّ من فوبيا التغيير عندي، فيضُمّني إلى معسكر المحافظين والمتزمُتين على أشيائي لا أحيد عنها قيْد أنملة، ويجازيني بالتوتر لو حاولت الانخلاع عن ربقة الشيء إلى آخر جديد عنه؟ ولربما منشأ هذه الفوبيا مساكنتي منزل السكون وخلودي اليه لا أبرحه حتى ضمر ضدّه المقابل وهي الحركة التي تشكّل أُس وماهية التغيير! لذا تطبّعت كل أشيائي بالاستقرار وتنظر إلى كل تجديد لها على انه اضطراب مزعج يخلّ بسلامها، وحتى لو أدرجت شيء جديد بقوة الإرادة، فأنّها تعيد الكرّة ولا تسمح له بالمغادرة وتدخله في نطاق التقاليد المُمانعة لتقلّبات الزمن.

شردتُ بعيداً عن نواة الموضوع وفقدت تحكّمي في مساره، أعود فأقول: انّي أعلنتُ عليكِ الفراق، واشتهي ان ابتعد احقاباً طويلة. عندما انزع قناعي الغامض تشتد غريزة الهروب إلى وحدتي، فلا أعلم ذاتاً غير ذاتي أستطيع ان أكون معها في مرآة واضحة بلا رتوش. إخفاقي الأكبر معك ليس في الاحتفاظ بكِ، وإنّما عجزي عن إمضاء سجيتي كما أحب وبلا تقيّد، عايشتُكِ بتنكّر مُحكم وأرهب أن اواجهك تارة أخرى بدونه. لو عدت اليكِ الان سيتقوض بنائي معكِ، ونعود غُرباء يُنكر بُعضنا بعضاً. أعلم انّك لن تنقمي عليّ هذا الإسرار واخفاءه طيلة فترة تواجدي معكِ، ولن تجعليني من المخادعين الذين استطاعوا بحنكة توْرية حالهم عنكِ،

فلقد قدّمتُ من الاسهاب والاسباب ما يغفر ايّ قَدْحة غضب منكِ تصدر بعد قراءة هذه الرسائل. سأحْظر كل منافذ حساباتي معكِ، وأتلافى كل طريق يربطني بكِ، ولا اظن ان الامتعاض سيعضّ اناملكِ من الغيظ على اجرائي المتوحش بالابتعاد بلا ميعاد للقاء آخر؛ إذ أنّي أقوم بذات التصرفات الهاربة التي تقومين بها معي بغتة، فاستيأس من الاجتماع معكِ. ربما سنلتقي مرة أخرى عندما أصبح خلقاً طبيعياً آخر يُشار له بالبنان، وشخصاً جديراً وكفؤاً لمعاشرتكِ، وهنا أُرهن لقائي بكِ بمعجزة تنقذني من ظُلمات حالي الميؤوس منها! ولكن قد يُهدم سقفُ توقعاتي العالي بلقائكِ بحجارة الشوق فيغلبني، ويأتي بي اليكِ عن يدٍ وأنا صاغر بلا أيّ تغيّر في أمري. وحتى لو قررت المعافاة الكف عن التعالي والعودة إلى رحابي، فإنّ أزمة وجودية روحية سأعاني منها في التصالح مع الحياة والناس، فأظلّ مُلثّماً في منفى الهروب ومنها انتِ يا شهرزاد، او قد لا اجابهكِ مباشرة في التواصل، وإنّما أُدسّ بصمات تواصلي في جيبكِ من حيث لا تشعرين لأطمئنك عني، أو قد يستمر الانقطاع عنكِ ونتواطئ عليه إلى أبد الآبدين.. وأختم قولي بـ: سُبوحٌ قُدّوس شهرزادي.

******

انتهت